جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية
قسم العلوم الانسانية

ميدان: العلوم الإنسانية والاجتماعية
فرع: الانسانية
تخصص: تاريخ الغرب الاسلامي

إعداد الطالب: صوطي فتيح
يوم: ..../...../2024

تطور الفكر السياسي عند المرابطين وتأثيره على الدولة

لجنة المناقشة

الأستاذ	الرتبة	الجامعة	الصفة
توريريت مصطفى	أستاذ محاضر أ	جامعة محمد خيذر بسكرة	رئيسا
مسعود كربوع	أستاذ التعليم العالي	جامعة محمد خيذر بسكرة	مشرفا ومقررا
حوفاني أسماء	أستاذ محاضر أ	جامعة محمد خيذر بسكرة	مناقشا

السنة الجامعية: 2023 – 2024

بسم الله الرحمن الرحيم

الشكر والعرفان:

أحمد الله تعالى القدير وأشكره على ما وفّقني إليه

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات

الحمد لله حمدًا كثيرًا مباركًا طيّبا إلى يوم الدّين

أتقدّم بالشّكر الجزيل إلى من ساعدني في انجاز هذا العمل المتواضع وأخصّ بالتّقدير والشّكر الجزيل الأستاذ: "الدّكتور كربوع مسعود" الذي أشرف على هذه المذكرة وعلى المساعدات والتّسهيلات التي قدّمها لي وأرجو من الله تعالى أن يجزيه حسن الثّواب.

وأشكر جميع أساتذة التّاريخ بصفة عامّة ونخصّ بالشّكر والعرفان للأساتذة تاريخ "المغرب الإسلاميّ"، وإلى كلّ من وقف على المنابر ليعطينا من حصيلة علمه ومعرفته.

الإهداء:

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على خاتم الأنبيّاء والمرسلين :

أهدي ثمرة عملي إلى روح والديّ الكريمين "أحمد" وأمّي "بوبكر قمير"، أسكنهما الله فسيح الجنان إلى اخوتي إلى الزوجة الكريمة وأبنائي الّذين قدّموا لي التّشجيع المتواصل لإكمال دراستي.

إلى جميع الأصدقاء والأقارب والأحباب

وإلى كلّ من تذكره قلبي ونسيه قلمي، راجيا من الله عزّ وجلّ أن يجزيهم عنّي حسن الثّواب.

المقدمة

مقدّمة:

تعتبر بلاد "المغرب الإسلاميّ" منطقة التّحوّلات السّياسيّة، فلقد ساهم تعاقب الدّول في ظهور تطوّرات سياسيّة ودينيّة وحضاريّة كان لنمط التّفكير السّياسيّ للحكّام دور في ظهور مختلف التّغيّراتِ وتعتبر دولة المرابطين النّموذج الدّينيّ والسّياسيّ لذلك، وبالإضافة إلى ما سبق فقد عملت هاته الدّولة على تحقيق الاستقرار السّياسيّ في تلك المنطقة التي عجّت بكثرةِ ثوراتها القبليّة والعقديّة المختلفة.

امتدّ ظلّ هذه الدّولة وشغل جِسْرًا مهمًّا من التّاريخ في إطارِها الزّمانيّ (448هـ-541هـ) (1056م-1147م)، أمّا إطارها المكانيّ فقد امتدّت من حوض "السّنغال" و"شنقيط" إلى "بلاد المغرب" إلى "الأندلس"، وكان حكم هذه الدّولة من أدق فتراتِ التّاريخ الإسلاميّ حيث جاء تاريخها حافلا بالعطاءات والتّقلبات في العدوتين "المغرب" و"الأندلس" بالإضافة إلى ذلك فإنّ جزءا من تاريخ المرابطين رصد لنا تاريخ الدّعوة الدّينيّة للفقيه "عبد الله بن ياسين" بمؤسّسها ومنهجها الدّينيّ، والّتي كان لها الأثر الواضح على الجوانب الحضاريّة للدّولة.

أهداف الموضوع: لقد مثّل "المغرب الإسلاميّ" مسرحًا لأحداثٍ جليلة منها: تطوّر الفكر السّياسيّ عند المرابطين وتأثيره على الدّولة وهو موضوع هذه الدّراسة ومن أهدافها:

- معرفة الكيفيّة التي وصلت بها حركة المرابطين من صحراء "شنقيط" إلى "المغرب الأقصى".
- دراسة الفكر السّياسيّ والمذهب الدّينيّ الذي ينتمي إلى المرابطين وتأثيره على الجوانب الحياتيّة للدّولة المرابطيّة.

الاشكاليّة: أمّا بالنّسبة للإشكاليّة المطروحة في موضوعي هذا يتمثّل في:

- كيف كان أثر تطوّر الفكر السّياسيّ للمرابطين على الحياة العامّة للدّولة؟

وتندرج تحت الاشكاليّة الرّئيسيّة للموضوع مجموعة من الأسئلة الفرعيّة المتمثّلة في الجوانب الحياتيّة للمرابطين:

- كيف كانت أوضاع بلاد "المغرب" قبيل قيام دولة "المرابطين"؟

- ما هي مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ عند "المرابطين"؟
- فيما يتمثّل تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في الجوانب الحضاريّة للمرابطين؟

دواعي اختيار الموضوع: جاء اختيار موضوعي تحت عنوان:" تطوّر الفكر السّياسيّ للمرابطين وتأثيره على الدّولة (448هـ-541هـ) (1056م-1147م) بسبب:

- حبّ الاطلاع والدّراسة في التّاريخ عامّة وتاريخ "المغرب الإسلاميّ" خاصّة.
- الرّغبة في معرفة كيفيّة مساهمة الدّعوة الدّينيّة في نشوء الدّولة المرابطيّة في العصر الوسيط.
- ندرة الدّراسات الأكاديميّة التي عالجت هذا الموضوع.

خطّة البحث: للإجابة على هذه التّساؤلات اتّبعت الخطّة التّاليّة:

- استهللت هذا البحث بـ"مقدّمة" وثلاثة "مباحث"؛ تطرّقت أوّلًا إلى "المقدمة" التي احتوت على "التّمهيد" بالموضوع وأسباب اختياره والإشكاليّة وخطّة العمل والمنهج المتّبع وتقييم المصادر؛ وأمّا بالنّسبة لخطّة بحثي فبدأت بالمبحث الأوّل والذي جاء تحت عنوان: "**بلاد المغرب قبيل قيام دولة المرابطين**" حيث كانت "بلاد المغرب" في فراغ سيّاسيّ عرفت فيه دول مختلفة كانت في غالبيّتها خارجيّة ليس لها من السّيطرة السّياسيّة والمذهبيّة إلا على محيطها الجغرافيّ وخاصّة "المغرب الأقصى" الّتي تنازعت عليه "الصفريّة" و"الزّيريّة" و"الإسماعيليّة" و"أهل السنّة" وبالتّاليّ غياب سلطة مركزيّة على "المغرب" الذي ظلّ ينتظر توازنات جديدة ربّما تحقّق له الوحدة السّياسيّة ولما الوحدة الدّينيّة، ثمّ تناولت في المطلب الثّانيّ: "**الأوضاع الدّينيّة التي كانت سائدة لبلاد المغرب قبيل قيام دولة المرابطين**"؛ حيث ظهرت مجموعات متفرقة عن الإسلام وحقيقته وجوهره وتمكن بعض الدعوات البدعية الفكريّة أن تشكّل كيانات سياسيّة تحتمي بها وأصبح "المغرب الأقصى" شبيهًا بـ"الأندلس" في فترة ملوك الطّوائف. وأمّا المطلب الثّالث فقد خصّصته لـ:"**الدّعوة الدّينيّة للفقيه عبد الله بن ياسين**" والتي ظهرت في هذه الفوضى الدّينيّة التي شهدتها المنطقة ومحاولة هذه الحركة ارجاع المجتمع إلى جادة الطّريق وإلى مبادئ الدّين الإسلاميّ الحنيف معتمدة على المذهب المالكي في تحقيق ذلك، كما عرجت عن المراحل الّتي مرّت بها هذه الدّعوة الدّينيّة لإقناع

المجتمع آنذاك بؤسّسها ومنهجها. وفي المطلب الرّابع خصّصته إلى هذه الانتقاليّة للحركة من "الدّعوة إلى ظهور كيان سياسيّ مهّد لقيام تنظيم سياسيّ متمثّل في قيام الدّولة المرابطيّة"، ثمّ يأتي المبحث الثّانيّ الذي جاء تحت عنوان: "مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ عند المرابطين" إندرج تحته أربعة مطالب؛ فالمطلب الأوّل خصّصته لمختلف النّظم الإداريّة التي عرفتها الدّولة المرابطيّة، وفي المطلب الثّانيّ خصّصته للتّطرق إلى "مظاهر تّطوّر الفكر السّياسيّ في الميدان الاقتصاديّ من خلال التّطوّرات التي حدثت في مختلف الأنشطة الاقتصاديّة في التّجارة والصّناعة والزّراعة، وفي المطلب الثّالث تناولت فيه "الميدان الاجتماعيّ" وما حدث به من تطوّرات مركّزًا على طبقات المجتمع المرابطيّ وكذلك على العادات والتّقاليد البدويّة التي لم تستطع مقاومة مباهج الحضارة الأندلسيّة، ثمّ يأتي المطلب الرّابع والّذي تطرّقت فيه إلى "تطوّر الفكر السّياسيّ في الميدان الثّقافيّ"؛ حيث تعرّضت فيه إلى أهمّ العلوم النّقليّة والعقليّة والتي شهدت تطوّرات من خلال بروز الأعلام وحركة التأليف في بلاد "الأندلس" و"المغرب".

ثمّ يأتي المبحث الثّالث الذي جاء تحت عنوان: "**تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في الجوانب الحضاريّة للمرابطين**" وكان أيضًا بأربعةِ مطالب؛ فأمّا الأوّل تناولت فيه "الجانب الإداريّ" من خلال عمليّة التّلاقح بين المؤثرات الأندلسيّة والمغربيّة والسّودانيّة وكان تأثير ذلك في ألقاب ولي الأمر وفي السّكة ونظم الحكم....، وفي المطلب الثّانيّ تطرّقت فيه إلى "الجانب الاقتصاديّ" وذلك من فتح أسواق جديدة في "الأندلس" أمام تجارة "السّودان" والأسواق في "بلاد المغرب" عملت الدّولة على حمايتها وشدّ أزرها وإقطاع الأراضيّ للجند وهذا تأثر بمبادئ الدّولة الجهاديّة للفقيه "عبد الله بن ياسين"، وأمّا المطلب الثّالث فتناولت فيه "تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في الجانب الاجتماعيّ" من خلال بروز طبقة جديدة سيدة في "المغرب" و"الأندلس" تولّت الأعمال والحكم وهي "طبقة الملثّمون" التي توافدت إلى "الأندلس" وأصبحت صاحبة الدّولة والسّلطان.

وجاء المطلب الرّابع تناولت فيه "تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في الجانب الثّقافيّ والدّينيّ" حيث كان تأثير قيام الدّولة المرابطيّة في حضارة "المغرب" و"الأندلس" تأثيرًا كبيرًا في الحياة الثّقافيّة والدّينيّة والحضاريّة بصفة عامّة. فلقد توحد المغربين "الأوسط"

و"الأقصى" وظهورهما في "شمال إفريقيّا" حال دون توسّع عرب "بني هلّال" وأطماعهم في المنطقة ثمّ إنّ تدفق المرابطين على "الأندلس" أنقذها ممّا كانت فيه من فوضى واضطراب في ظلّ ملوك الطّوائف ثمّ إنّ هذا التّلاقح بين العدوتين سوف تكون له نتائج في تألّق نجم الثّقافة والفنّ في "المغرب" وتشجيع الأمراء وشدّ أزر العلم والعلماء ثمّ أصبحت "بلاد المغرب" أرضًا خصبة لبروز حركات فكريّة في منتصف القرن الخامس وبداية القرن السّادس من "علم الكلام" و"الفلسفة" و"التصوف" بنوعيه "السّنيّ" و"الفلسفي".

ومن أبرز علمائه الفقيه "وجاج بن زولو" وهو شيخ الفقيه "عبد الله بن ياسين" الذي كان زاهدا في زخرف الدنيا بالإضافة إلى "أبو علي حسين بن محمد الصدفي" [ت514هـ]، وأشرت إلى قضية كتاب "الإحياء للغزالي" وكيف تعامل معه العلماء والدولة ورأي المؤرخين فيه، ثم خاتمة تتمثل في حوصلة عن الموضوع.

المنهج المتبع: اعتمدت في هذه الدراسة على عدة مناهج منها:

- المنهج التاريخي: وهو المنهج الرئيسي لتتبع تطور الفكر السياسي والإداري لدولة المرابطين.
- المنهج الوصفي: من خلال إمكانية التعرف على الوقائع التي حدثت خلال الفترة الأولى عند قيام دولة المرابطين والتي سبقت إمارة "يوسف بن تاشفين".
- المنهج التحليلي: حيث قمت من خلاله بتحليل وتوضيح معالم النظم التي كانت عند المرابطين في الجانب الإداري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

الدراسات السابقة:

- "بن الديب عيسى": المغرب والأندلس في عصر المرابطين؛ دراسة ثقافية اجتماعية [480هـ-540هـ]، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008-2009.
- "غرادين مغنية": نظام الحكم في بلاد المغرب في عهدي المرابطين والموحدين [ق5-7هـ]، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في تخصص تاريخ المغرب الإسلامي، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تلمسان، 2015-2016.

- "لعناني مريامة": الأسرة الأندلسية في عصر المرابطين والموحدين، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة.
- "بوسنة زينب": الحياة الاجتماعية بالمغرب الإسلامي في عهد المرابطين [448هـ-541هـ] [1056م-1147م]، مذكرة ماستر، جامعة محمد خيضر، 2018-2019.
- "صلاح آدم عيسى": قيام دولة المرابطين ودورها في نشر الإسلام في السودان الغربي [448هـ-541هـ] [1056م-1147م]، مذكرة ماستر، 1438هـ-2017م.
- "علية تامة ومنى بكاكرة": النظم السياسية والإدراية عند المرابطية في عهد يوسف بن تاشفين [453هـ-500هـ] [1061م-1107م]، مذكرة ماستر، جامعة حمة لخضر الوادي، 1437هـ-1438هـ/ 2016م-2017م.
- "مليكة حمدي": المرأة المغربية في عهد المرابطين [448هـ-541هـ] [1056م-1146م]، مذكرة ماستر، 1422هـ-1423هـ/ 2001م-2002م.

<u>قائمة المصادر والمراجع والصعوبات:</u>

<u>أ/دراسة المصادر:</u>

أولًا كتب التاريخ العام: تحتل كتب التاريخ العام أهمية بالغة لدراسة الحقب الزمنية المختلفة لتاريخ المغرب والأندلس، وهي مصادر لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنها وعلى الرغم من تركيز هذه المصادر على العديد من الجوانب إلا أنها كانت مفيدة لي ومن هذه الكتب نذكر:

- **البيان المغرب في الأندلس والمغرب:** يرجع هذا الكتاب لمؤلفه "ابن عذارى المراكشي" [712هـ-1112م] حققه: إحسان عباس، كتاب متخصص لدراسة تاريخ المغرب والأندلس لا يمكن الاستغناء عنه بأجزائه الأربعة وخاصة الجزء الرابع الذي يتناول دولة المرابطين، وترجع أهمية هذا الكتاب لاحتوائه على شيوخ ثقات عاصروا الحدث.

- **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس:** كتاب يرجع لمؤلفه "ابن أبي زرع الفاسي" [726هـ-1326م] استفدت من هذا الكتاب في مواضع كثيرة منذ بداية دولة المرابطين بجنوب الصحراء.
- **كتاب الحلل الموشية في الأخبار المراكشية:** كتاب صغير الحجم كثير الفوائد مؤلفه مجهول؛ يعالج تاريخ المغرب والجزء الأهم في كتابه قد خصصه لدولة المرابطين منذ بداية قيامها إلى تأسيس "مراكش"، أفادني في مواضع كثيرة خاصة في فترة حكم "يوسف بن تاشفين"، ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي أفادتني في بحثي.
- **كتاب تاريخ ابن خلدون المسمى ب"ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من دوي السلطان الأكبر**":لمؤلفه "عبد الرحمن بن خلدون" [808هـ-1405م]، يعد هذا الكتاب من المصادر الرئيسية التي أفادتني في بحثي هذا حيث يعالج تاريخ المغرب ويعتبر موسوعة شاملة، حيث حدثنا عن الأصول الأولى التي تشكل منها المجتمع المرابطي امتدادا من ذلك القبائل الصنهاجية وناقش في جزئه السادس والسابع تركيبته العرقية التي تشكل منها مجتمع المرابطين خاصة البربر.
- **كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب:** لمؤلفه "عبد الواحد المراكشي" 571هـ أفادني في كونه يصف التاريخ السياسي لبلاد المغرب الكبير في هذه الحقبة ويصفها وصفا شافيا وافيا في ايجاز وبلاغة، كما يصف تاريخه الأدبي والعلمي في براعة وفن.
- **كتاب التبيان:** لأمير "عبد الله بن بلقين بن زيري" آخر ملوك "بني زيري" في "غرناطة". والكتاب يؤرخ لدولة "بني زيري" في "غرناطة" في القرن الخامس هجري وتكمن أهمية الكتاب في أن صاحبه معاصر للأحداث التي يكتب عنها وطرف رئيسي في كثير منها خاصة فترة ملوك الطوائف [469هـ-479هـ] واشتداد حروب الاسترداد وتدخل المرابطين في شؤون "الأندلس" وخلع ملوك الطوائف وكان "عبد الله" أولهم.

ثانيا: كتب التراجم:هذه الكتب نقصد بها الكتب التي اهتمت بتاريخ الرجال حسب أنماط مختلفة من الناس بداية بالأنبياء والخلفاء والعلماء وغيرهم، فهي تدرس جميع الطبقات والتي من أهمها:

- **كتاب التكملة لكتاب الصلة:** لمؤلفه" ابن الآبار القضاعي [658هـ-1259م] والذي له مصنفات تاريخية منها: موسوعة في تاريخ رجال "الأندلس" على اختلاف توجهاتهم والذي اعتنى بتحقيقه الدكتور "عبد السلام هراس"، بالإضافة إلى كتابه "الحلة السيراء" والذي اعتنى بتحقيقه "حسين مؤنس" وهو من كتب التراجم المهمة لفترة المرابطين بالذات وبالإضافة إلى كتابه "المعجم في أصحاب علي الصدفي" حيث استفدت منه من خلال ترجمته لتلاميذ علم كبير من أعلام العهد المرابطي وهو "أبو علي حسين بن سكرة الصدفي" [ت514هـ] وهو كتاب رغم صغر حجمه إلا أنه كتاب نفيس يحتوي على الكثير من المعلومات التاريخية عن العلماء في الفترة المرابطية.
- **كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة:** لمؤلفه "لسان الدين بن الخطيب" فقد تعرفنا من خلاله على العديد من الشخصيات المهمة للدولة المرابطية بالإضافة إلى كتابه "أعمال الأعلام" يترجم فيه لبعض الشخصيات التي كان لهم الأثر في المجتمع المرابطي سواءً كانوا من أفراد الطبقة الحاكمة أو الطبقة العامة.
- **كتاب قلائد العقيان ومحاسن الأعيان:** لمؤلفه " ابن خاقان" [ت529هـ] اعتنى بتحقيقه "حسن يوسف خريوش"، استفدت منه وهو يتكلم عن الوزراء والفقهاء والكتاب في عهد الدولة المرابطية بأسلوب بديع وسلس.
- **كتاب الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض:** لمؤلفه "القاضي عياض" [ت544هـ] ويعتبر من أهم التراجم للدولة المرابطية لأنه بكل بساطة عاش في كنفها وتولى القضاء في ظلها وله أيضا كتاب بالغ الأهمية وهو كتاب " ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك"؛ وهو موسوعة عظيمة الفائدة فيه ترجمة لعلماء المالكية ابتداءً "بالإمام مالك بن أنس" إلى عصر المؤلف، فجاءت مليئة باللمحات التاريخية والوقائع السياسية للمرابطين.

- **كتاب فهرست ابن عطية:** لمؤلفه "ابن عطية" [ت541هـ] وهو من معاصري الفترة المرابطية وقد استفدت منه في بعض المعلومات عن بعض العلماء والقضاة في الفترة المدروسة.

ثالثا: كتب النوازل والحسبة:

- **كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب [834هـ-914هـ] [1430م-1508م]:** لمؤلفه "الونشريسي" أفادني هذا الكتاب خاصة ما تعلق بسياسة المرابطين في ملكية الأراضي وما اكتنفها من أخذ الأراضي غضبا عن ملاكها أو ما يعرف "بنوازل الغصب" وأيضا ما تعلق بأراضي الأوقاف والأحباس في الفترة المدروسة.
- **كتاب شرح حدود ابن عرفة:** لمؤلفه "ابن عرفة"، أفادني هذا الكتاب في إظهار ما يعرف "بحوالة الأسواق" أي انتقال العقارات والضياع من دولة إلى أخرى مثل: ما حدث بين الدولة المرابطية والموحدية[1].
- **كتاب ابن عبدون:** ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، قام بتحقيقه ليفي "بروفنسال"، وقد أفادني هذا الكتاب في معرفة الشروط التي ألزمتها الدولة المرابطية في مناصب كثيرة أهمها: القضاء والمحتسب وأعوان القاضي.... بل حتى اللثام ومن اللثام ومن يرتديه من المجتمع المرابطي.

رابعًا: كتب الرحلات ومعاجم البلدان:

- **كتاب المسالك والممالك:** لمؤلفه "أبي عبيد البكري" [ت487هـ] فهو كتاب مهم لأن مؤلفه عاصر الدولة المرابطية وبذلك استفدت من معلومات دقيقة ومفيدة خاصة في الفترة الأولى من تاريخ المرابطين.
- **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار:** لمؤلفه "الحميري" [ت900هـ] استفدت منه في التعريف بكثير من البلدان والمواقع في العهد المرابطي.

[1]ابن عرفة: شرح حدود ابن عرفة، تح: محمد أبو الأجفان، دار العرب الإسلامي، القسم الأول، ط1، 1993، بيروت، ص423.

خامسا: كتب الجغرافيا:

- **كتاب صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس:** لمؤلفه "الإدريسي" [ت561هـ-1164م]، تكمن أهميته في كونه معاصر للفترة المرابطية وقد ساعدني كثيرا بذكره أحوال المدن المغربية والأندلسية.
- **كتاب صورة الأرض:** لمؤلفه "ابن حوقل" [ت367هـ] وهو معاصر "صنهاجة" في القرن الرابع، استفدت منه في التعريف ببعض المناطق الجغرافية في الفترة المدروسة.

ب/دراسة المراجع: بالنسبة للمراجع فقلد أفادتني في موضوع دراستي أذكر أهمها:

- سعدون عباس نصر الله: "**دولة المرابطين في المغرب والأندلس**"؛ حيث أفادني هذا الكتاب أنه يتناول فترة حكم "يوسف بن تاشفين" وأهم النظم التي قام بتأسيسها في تسيير دولته.
- حسن علي حسن: "**الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين**"؛ والذي يعد من أهم المراجع التي كتبت عن المرابطين وتناولت النظم السياسية والإدارية في هذه الدولة وأهم التفاصيل المتعلقة بها وهو صميم موضوع الدراسة.
- حسن أحمد محمود: "قيام دولة المرابطين"؛ وهو أحد المراجع المهمة التي عالجت الدولة المرابطية من شتى الجوانب ولقد أفادني كثيرًا في دراستي للموضوع.
- علي محمد الصلابي: "**فقه التمكين عند دولة المرابطين**"؛ وهو أيضا أحد المراجع التي أفادتني في البحث لأنه أيضا يعالج الدولة المرابطية من جوانب مختلفة.
- محمد عبد الهادي شعيرة: "**المرابطون تاريخهم السياسي**" **[430هـ-539م]** الذي أفادني خاصة في مظاهر تطور الفكر السياسي والجانب الإداري للدولة.
- عبد المنعم حمدي: "**التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**"؛ ولقد استفدت منه كثيرًا في دراستي للموضوع لأنه يعالج الدولة المرابطية من جوانب مختلفة.
- إبراهيم حركات: "**المغرب عبر التاريخ**"؛ والذي استفدت منه بمعلومات متعلقة بنظم الدولة المرابطية.

- يوسف أشباخ: "تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين"؛ حيث استفدت من هذا الكتاب من خلال اظهاره لسياسة المرابطين في "الأندلس" إلى غيرها من المراجع.

ج/صعوبات البحث: اعترضتني في سياق انجاز بحثي هذا جملة من الصعوبات أهمها:

- ✓ التداخل في المعلومات وتشابهها في معظم المصادر والمراجع مما عرضني إلى صعوبة تحرير المعلومات وانتقائها.
- ✓ صعوبة الفصل في الجوانب الحياتية للمرابطين الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وتشعب الموضوع كثيرا لأنه في عدوتين "المغرب" و"الأندلس" وأيضا الإطار الزماني لهذه الدولة يعتبر كبيرًا قرابة قرن من الزمان.

المبحث الأول: بلاد المغرب قبيل قيام دولة المرابطين

- ✓ **المطلب 1:** الأوضاع السياسية لبلاد المغرب قبيل قيام دولة المرابطين.
- ✓ **المطلب 2:** الأوضاع الدينية السائدة لبلاد المغرب قبيل قيام دولة المرابطين
- ✓ **المطلب 3:** الدعوة الدينية لعبد الله بن ياسين
- ✓ **المطلب 4:** بوادر تشكل دولة المرابطين

المبحث الأوّل: بلاد المغرب قبيل قيام دولة المرابطين

المطلب الأوّل:الأوضاع السّياسيّة لبلاد المغرب قبيل قيام دولة المرابطين

كانت بلاد المغرب العربيّ الإسلاميّ مسرحًا لدعاة الخوارج منذ بداية القرن الثّانيّ للهجرة، أي بعد أن تعرّضوا إلى ألوان القتل والهزائم على يد الأمويّين، وحتّى لما آل الأمر لعبد الله بن الزّبير في مكّة لفترة وجيزة وهو عدوّ للأمويّين لم يقصّر في محاربتهم أي الخوارج لما كانوا يشكّلونه من خطر على أهل السنّة والجماعة[1]فأصبحت بلاد الولّاة أرضًا خصبة لدعاتهم وذلك لأسباب عديدة نذكر منها: طلب الولّاة وجورهم على أهل المغرب ومعاملة أرضهم كأنّهم أرض حرب، ففرضوا عليهم الجِزية وأثقلُوا كَاهِلَهم بالمغارم والجبايات، كذلك صراع العصبيّات العربيّة خاصّة بين القيسية واليمنية. وما كان له من تأثير على المجتمع المغربيّ، أعطى انطباعًا خاطئًا عن الإسلام منذ بدايته الأولى، فتوافق هذا مع البساطة الّتي تميّز بها فكر الخوارج في طرح دعوتهم واستعمالهم لأسلوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وتوافقت هذه الدّعوة مع فطرة البربر وقوّة بأسهم[2].

تأسّست في بلاد المغرب الإسلاميّ دول منها: ما حسب على الفكر الخارجيّ كدولة بنيّ مدرار الصّفريّة الّتي اتّخذت إقليم "تافيللت" في المغرب الأقصى مركزًا لها وعاصمة دولتهم سجلماسة على وادي ملويّة، وقد قامت على أكتافِ العصبيّة البربريّة وبالأخصّ قبيلة "مكناسة"، بالإضافة إلى بعض القبائل من "صنهاجة" و"زناته" و" زنوج السّودان" و"أهل الرّبض الأندلسيّين"، كانت نهايتها على يد العبيّدين الشّيعة[3] الّذين أزالوا ملكهم دون أن يمكّنهم ذلك من السّيطرة على قبائل مكناسة بشكلٍ مطلق[4] والدّولة الرّستميّة الّتي

---

[1] **"حول بيعة ابن الزبير وأحوال فترة حكمه"**، ينظر: ابن الأثير أبي الحسن علي، الكامل في التّاريخ، تح: أبي العذاء عبد الله، دار الكتب العلميّة، 31، ط1، بيروت، 1407هـ- 1987م، ص 463.

[2] محمود إسماعيل عبد الرّزاق: الخوارج في بلاد المغرب حتّى منتصف القرن الرّابع الهجري، دار الثّقافة، ط2، المغرب، 1406هـ-1985م، ص 30-41.

[3] **"استمرّت هذه الدّولة من 140ه-757م إلى 297ه-911م"**، المرجع نفسه، ص 112و 127.

[4] " حتّى قضى عليها نهائيّا مرزون بن فلفول من ملوك مغراوة خلف المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة الأمويّ هشام في الأندلس، عبد الرّحمن بن خلدون، تاريخ بن خلدون، تح: سهيل زكار، دار الفكر، ج6، ص184.

أسّسها الاباضيّون بزعامة "عبد الرّحمن بن رستم الفارسيّ" على أرض تاهرت من المغرب الأوسط، وهي أرض تقع في إقليم عامر بالبربر ذوي المذهب الإباضيّ كهوارة ولواته ومزاته ولماته إلّا أنّ هذه الأخيرة كانت أكثر من غيرها تعصّبًا لهذا المذهب.

بُويِع "ابن رستم" كونه كان أحد الخمسة[1] حملة العلم إلى المغرب كما عيّنه أبو الخطّاب المعافريّ[2] على أفريقيّة قبل ذهابه "لمحاربة ابن الأشعث"[3] في طرابلس، فكان هذا بداية للزّعامة الّتي سوف تظهر فيما بعد بالمغرب الأوسط.

استمرّت هذه الدّولة حتّى سقوطها على يد العبيّد بن الشّيعة[4]. أمّا دولة الأدارسة[5]التي قامت على أكتاف قبيلة أوربة البربريّة[6]في شمال المغرب الأقصى والّتي لم تحتسب للخوارج، رغم أنّ أصلها في الدّعوة الزّيديّة التي بدأت بزعامة زيد بن علي حفيد الحسين بن علي –رضي الله عنه–، وتقوّت تحت زعامة محمد النّفس الزّكيّة، ذلك أنّها كانت تقول بجواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، وكان ذلك اعترافًا ضمنيًّا بخلافة الصّحابة ممّا جعل جمعًا من علماءِ أهل السنّة يؤازرونها كالإمام مالك وأبو حنيفة وغيرهم[7].

---

[1]" كانوا في البداية أربعة دعاة وهم: عبد الرحمن بن رستم نزيل القيروان، عاصم السدراتي من غرب الأوراس في الغرب الأوسط، إسماعيل بن درار الغدّاميّ من جنوب طرابلس، أبو داود النّفراوي من نفراوة بجنوب إفريقيّة ثمّ انظمّ إليها أبو الخطّاب عبد الأعلى بن السّمح (المعافري) : وهو من دعاة الاباضيّة في اليمن كلّهم توجّهوا إلى البصرة وأقاموا بها حوالي خمسة سنين يدرسون المذهب الاباضي على يد الشّيخ أبو عبيدة مسلم بن كريمة تمهيدًا لجوعهم إلى بلاد المغرب بغية تأسيس الدّولة الرّستميّة "، ينظر: محمّد عيسى الحريري، الدّولة الرّستميّة بالمغرب الإسلاميّ حضاريّا وعلاقتها الخارجيّة بالمغرب، دار الفكر، ط3، الكويت 1408هـ–1987م، ص ص81–82.

[2]المعافريّ أبي الخطّاب هذه الجماعة فأصبح رئيسا عليهم.

[3]محمود إسماعيل عبد الرزاق، المرجع السّابق، ص76.

[4]" استمرّت من سنة 160هـ– 776م إلى 296هـ–907م"، محمّد علي الحريريّ، المرجع السّابق، ص91.

[5]" استمرّت هذه الدّولة من 162هـ إلى 365هـ".

[6]" بالإضافة إلى قبائل أخرى استعان بها إدريس الأوّل في تأسيس دولته كزناتة وصنهاجة وهوارة وغيرهم"، ينظر: محمد إسماعيل، الأدارسة حقائق جديدة، مكتبة مديولي، ط1، 1411هـ–1991م، ص 60–61.

[7]المرجع نفسه، ص 21 وص 30.

عرفت هذه الدّعوة خاصّة في مرحلة الضّعفِ تذبذبًا واضِحًا فتارة تدخل تحت طاعة الفاطميّين وحُلفائهم من آل زيري الصنهاجيين ضدّ الأمويّين وتارة أخرى كانت تداهن الأمويين

والأندلس على حساب الشّيعة وأحلافهم، وتارة أخرى كانت تحاول ارجاع مجدها بأن تستقلّ عن الاثنين[1]، حتّى سقوطها النّهائيّ على يد الحملة التي بعثها إلى المغرب المنصور بن أبي عامر والّتي تعاونت مع مغرارة وقائدها زيري بن عطيّة[2] والّتي تمكنت من الإطاحة بدولة الأدارسة نهائيًّا سنة 374هـ-984م[3].

ونستنتج ممّا سبق: أنّ بلاد المغرب الإسلاميّ قبيل ظهور الدّولة المرابطيّة، عرفت دولًا مختلفة في غالبيّتها خارجيّة، ليس لها سيطرة مذهبيّة ولا سياسيّة إلّا على محيطها الجغرافيّ وخاصّة المغرب الأقصى الّذي تنازعت عليه الصفريّة والزّيريّة والإسماعيليّة والسنّة، فكانت أرضًا خصبة لصراعات كانت سجالًا بين الفرق المتنازعة، لكن في الغالب عرف منافسة بين الأمويين بالأندلس ومَنْ حالفهم من البربر والعبّاسيّين بالمشرق ومن حالفهم من البربر، ثمّ دخلت الدّولة العُبيّديّة الشّعبية من حالفهم من البربر بعد ظهورها في مسرح الأحداث فبقي المغرب مع بداية القرن الرّابع الهجري يعاني عدم الاستقرار السّياسيّ وحتّى الدّينيّ المذهبيّ، وشهد غياب كامل للسُّلطة المركزيّة وعليه بقي المغرب ينتظر دومًا توازنات جديدة تحقّق له الوحدة السيّاسيّة ولِمَا لا الوحدة الدّينيّة[4].

---

[1]محمد إسماعيلالمرجع السّابق، ص163.

[2]" هو قائد مغراوة الذي كلّم معظم الغرب الأقصى والأوسط تحت دعوة الأمويين في الأندلس وقائد دولتهم الحاجب المنصور بن أبي عامر؛ ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فارس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 102.

[3]محمود إسماعيل، المرجع السّابق، ص172.

[4]إبراهيم القادريّ بوتشيش: الإسلام السّريّ في المغرب العربيّ، النّاشر، ط1، 1995، ص ص 21و22 -40.

المطلب الثّانيّ:الأوضاع الدّينيّة السّائدة في بلاد المغرب قبيل قيام دولة المرابطين:

كانت بلاد المغرب في محنة سياسيّة ودينيّة، حيث ظهرت مجموعات مفرّقة عن الإسلام وحقيقته وجوهره، وتمكّنت بعض الدّعوات البدعيّة الفكريّة أن تشكّل كيانات سياسيّة تحتمي بها وأصبح المغرب الأقصى شبيهًا بالأندلس في فترة ملوك الطّوائف، وكانت الطوائف الّتي سادت المغرب قبيل وصولِ المرابطين تتكوّن من أربعة تكتّلات سياسيّة ودينيّة قويّة كان لها وزن في المغرب الأقصى:

- قبائل غمارة في الشّمال، قبائل برغواطة في المغرب وقبائل زناتة، حيث كانت تُكَوّن نطاقًا حول الطّوائف السّابقة لا سيما برغواطة، طوائف الشّيعة والرّافضة والوثنيّين في الجنوب[1].
- **الطّائفة الأولى:** "قبائل غمارة":

كانت مضاربها جبال الرّيف الممتدّة من ناحية البحر المتوسّط من "سبتة" و"طنجة" غربا إلى "وادي نكور"؛ الحسيمة حاليا شرقا، أمّا من الجنوب فتمتدّ إلى " فاس" وكانت غمارة بطنًا من بطون مصمودة حيث ظهر بها المشعوذون، " الخوارج" للمنعة في جبالهم، ووصفهم المؤرّخون مثل: "ابن خلدون" وغيرهم بأنّهم عريقون في الجاهليّة، بل الجهالة والبعد عن الشّرائع بالبداوة، وتنبّأ فيهم إنسان يعرف "بحاميم" بن عبد الله ولُقّب بالمفتري، وفي رواية أخرى بالمقتدي.

ولعلّها هي الأصل ثمّ صرفت إلى المفتري، والجبل الذي تنبّأ فيه ينسب إليه وهو جبل على مقربة من "تيطوان" وأجابه بشر كثير من غمارة وأقرّوا بنبوّتِه ورسم لهم شريعة استهوتهم برخصها، حيث ردّ لهم الصّلاة صلاتين عند طلوع الشّمس وعند غروبها، كما وضع لهم قرآنا بلسانهم؛ أي "البربريّ" ومن تعاليمه أنّه أحلّ لهم أكل "أنثى الخنزير" وأسقط عنهم الحجّ والظّهر والوضوء وحرّمَ عليهم الحوت حتّى يزّكى

[1]علي محمّد صلابي: تاريخ دولتي المرابطينوالموحدين في الشّمال الأفريقي، دار المعرفة، ط3، بيروت، 2009، ص58.

وحرّم بيض كلّ طائر[1]. وقد قتل المشعوذ الزنديق في النّصف الأوّل من القرن الرّابع الهجري في طنجة في حروبه مع قبائل "مصمودة السّاحليّة"، واستمرّت البدع الفكريّة بالرّغم من موت هذا الأخير، وظهر أحد أبنائه يدعى "عيسى" وكان مبجّلًا في قومه، وكانت قبائل "غمارة" غارقة في "الإباضيّة" بين النّساء والرّجال[2].

❖ **<u>الطّائفة الثّانيّة:</u>** "البراغواطيّة"

استطاعت هذه الطائفة الكافرة تأسيس دولة لها في القرن الثّانيّ للهجرة في إقليم "تامسنا"*[3]يسمّى اليوم بالشّاويّة[4]يمتدّ من الرّباط إلى ثغر فضالة الذي كان قاعدة لأسطولها وتنتهي عند بلدة "أزمور" عند مصبّ وادي "أمّ الرّبيع".

قد اختلف بعض المؤرّخين حول "اسم بورغواطة"، فبعضهم يرى أنّه لم يكن لها اسما لقبيلة معيّنة يجمعها أصل واحد أو أب واحد؛ بل كان اسمًا لأخلاط من " البربر" اجتمعوا على شخص يهوديّ الأصل إدعى النبوّة اسمه " **صالح بن طريف بن شمعون البرباطيّ**" نسبة إلى واديّ "برباط" في جنوب الأندلس فصارت كلمة برباطيّ تطلق على كلّ من اعتنق ديانته، ثمّ صرفت إلى برغواطي*[5].

– يرى ابن خلدون أن برغواطة قبيلة من المصامدة وأنّ ملوكها كانوا من مصامدة المغرب[6].

---

[1]مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأبصار، تح: سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الاسكندريّة، مصر، 1958، ص190.

[2]أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النّهضة العربيّة، بيروت، د ت، ص278.

[3]*تامسنا: تقع بين المحيط الغربيّ وبين وادي أم الرّبيع على نحو ثلاث مراحل: وهي قبائل متفرّقة منهم: برغواطة، مطاطة وكلّهم أصحاب حرث ومواشي وجمال والغالب عليهم الفروسيّة.

ينظر: الإدريسي: "وصفة المغرب وأرض السّودان ومصر والأندلس" [نقلا عن] " كتاب نزهة المشتاق، لندن، 1864، ص ص 236–237.

[4]مؤلّف مجهول: الاستبصار، المصدر السّابق، ص279.

[5]*البراغواطين: بكن من بطون المصامدة في بسائط تامسنا، وريف البحر المحيط من سلاوازمور.... وهم شعوب كثيرة ومتفرّقة.

ينظر: ابن خلدون، المصدر السّابق، ج6، ص280.

[6]المصدر نفسه، ج2، ص210.

كان من عقائد هذه الطّائفة الضّالة اعتقادهم بأنّ " **صالح بن طريّف**" هو المقصود بقوله تعالى في سورة التّحريم:﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ"4"﴾[1] ، وراح زعيمهم يقول بأنّه: المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزّمان لقتال المسيح الدّجال، وأنّ عيسى بن مريم يكون من أصحابه ويصلّي خلفه وشرّع لأصحابه واتباعه صوم رجب والأكل في رمضان وفي الوضوء غسل السّرة والخاصرتين، بالإضافة إلى طريقة الوضوء عند المسلمين. كما فرض عليهم خمس صلوات في النّهار وخمس صلوات في اللّيل، كما أنّ بعض صلواتهم تكون بالإيماء بلا سجود وبعضها على كيفيّة صلاة المسلمين وعند ابتداء الصّلاة يضع الفرد إحدى يديه على الأخرى ويقول بالبربريّة "ايسمن ياكشى" وتفسيره "باسم الله" ثمّ " مقر ياكش" أي "الله أكبر" ويقولون في تسليمهم بالبربريّة " أيحن يا كش" و" ووردام ياكش" أي الله أحد لا مثيل له، كما وضع **صالح بن طريف** قرآنا باللّغة البربريّة في ثمانين سورة أكثرها منسوب إلى أسماء الأنبياء أوّلها: أيّوب وآخرها سورة يونس[2].

وسمح لهم الزّواج فوق أربع نساء، وأباح لهم الطّلاق، وحرّم عليهم زواج بنت العمّ والزّواج من المسلمات، وأفتى في السّارق بقتله ورجم الزّانيّ ونفيّ الكاذب، كما حرّم رأس كلّ حيوان، وحرّم ذبح الدّيك والحوت أيّ السّمك ولا يؤكل إلّا أن يزكى أي يذبح، والبيض عندهم حرام وليس عندهم آذان ولا إقامة، كما أنّهم كانوا يكتفون في معرفة الأوقات بصياح الدّيوك ولذلك حرّموها إلى غير ذلك من التّعاليم الشّيطانيّة، وإلى حدّ كبير تشبه ديانة " حاميم المفتري" في غمارة[3].

الملاحظ أنّ تعاليم هذه الدّولة الكفريّة متأثرة بتعاليم اليهود المنحرفة، وكذلك ببعض التّعاليم الإسلاميّة، ويمكن القول: إنّها ديانة مشوّهة للإسلام، كان هدفها القضاء عليه وكانت هذه الدّولة عند أهل السّنة والجماعة مجوسا منحرفين مارقين عن الدّين الحنيف ولهذا فرضوا قتالهم واستحلّوا دمائهم.

---

[1]سورة التّحريم/ الآية:04.

[2]علي محمد صلابي: المرجع السّابق، ص ص59-60.

[3]مؤلف مجهول، "مفاخر البربر"، جهاد للنشر والتوزيع، تحقيق محمد زينهم، محمد عزب، ط1، القاهرة، 1417 هـ 1998م، ص 77.

واصلت هذه الدّعوة الكفريّة منذ سنة: 125هـ إلى خلافة هشام بن الملك إلى ظهور أهل السّنة المرابطين الملثّمين الذي قضوا عليهم قضاءً مبرمًا، وأشارت كتب التّاريخ أنّ حكام المغرب قبل مجيء المرابطين كالأدارسة والأمويين والزّناتيين قد قاتلوا برغواطة وأنزلوا بهم هزائم منكرة وخسائر فادحة[1].

عانى المغرب الأقصى محنة كبيرة بسبب هذه الدّولة الكفريّة والطّائفيّة البدعيّة وكان خطرها أشدّ وأقوى ممّا كُتِب في كتب التّاريخ[2].

❖ **الطّائفة الثّالثة:** قبائل زناتة:

تشكّل هذه الطّائفة من قبائل "مكناسة" و" مغراوة"*[3] وبني يفرن*[4]وغيرها من قبائل الزّناتية التي حكمت المغرب سنين بعد زوال نفوذ الأدارسة، حيث قامت بدور إيجابي في إعلان الحرب على الدّولة البرغواطيّة، كما عرف مع حكام هذه القبائل بالجور والظّلم والتّعسف في آخر زمانهم[5].

❖ **الطّائفة الرّابعة:** طوائف الشّيعة والوثنين:

كانت مضاربهم جنوب المغرب الأقصى بلاد السّوس وكانوا عبارة عن أقلّيات مبعثرة هنا وهناك، أمّا الشّيعة فقد انتشروا في مدينة تارودانت*[6] ونواحيها وكانوا دعاة للفكر الشّيعي الرّافضي، ويرجع بعض المؤرّخين أصولهم للدّولة العبيديّة

---

[1]علي محمد صلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الافريقي، المرجع السّابق، ص60.

[2]أحمد المختار العبّاديّ، المرجع السّابق، ص278.

[3]*مغراوة: هم من بطون زناتة وأوسعها، وسمّيت بمغراوة نسبة إلى مغروبن مسربن زاكيا بن وريسك بن الدّيرت بن جانا أخوة بن يفرن.

ينظر: مؤلف مجهول، مفاخر البربر، المصدر السّابق، ص33.

[4]*بني يفرن: كانت مواطنهم في المغرب الأوسط من الشّلف إلى تلمسان.

ينظر: بن خلدون، المصدر نفسه، ص33.

[5]علي محمد صلابيّ: فقه التّمكين عند دولة المرابطين، مؤسسة اقرأ، ط1، القاهرة، 1427هـ-2006م، ص42.

[6]*مدينة مغربيّة في أقصى المغرب الأقصى.

ينظر: أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالقيرواني قطعة من تاريخ أفريقيا والمغرب، تح: عبد الله العلي الزذيتون، دار الغرب الإسلاميّ، لبنان، 1990، ص15.

الرّافضيّة التي جاء ذكرها في صفحات من التّاريخ الإسلامي في الشّمال الإفريقي" الدّولة العبيديّة الرّافضيّة".

كانت مضاربهم جنوب المغرب الأقصى في أقصى بلاد الوسن، كانوا أقلّيات مبعثرة هنا وهناك، أمّا الشّيعة فقد انتشروا في مدينة تارودانت*[1] ونواحيها، وكانوا دعاة للفكر الشّيعي الرّافضيّ، ويرجع بعض المؤرّخين أصولهم للدّولة العبيديّة الرّافضيّة التي جاء ذكرها في صفحات من التّاريخ الإسلامي في الشّمال الإفريقي: الدّولة العبيديّة الرّافضيّة. ولقد كان الصّراع عنيفًا بين الشّيعة وأهل السّنة في كلّ ناحية وضاحيّة في المغرب كلّه، حيث تُوّجَ أهل السُّنّة بالقضاء على الدّولة العبيديّة إلّا أنّ بقايا جذورهم أزالها المرابطون بقوّتهم السّنيّة، وأمّا الوثنيّون فكانوا يسكنون الأطلس الكبير في جبل وعر حيث كانوا يعبدون الكبش متأثّرين في ذلك بديانات مصريّة قديمة كانت تعبد الكبش في زمن الفراعنة ويسمّونه الإله خنوم[2].

[1]*مدينة مغربيّة في أقصى جنوب المغرب الأقصى.

ينظر: أبو أسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالقيرواني، المصدر السابق، ص 15، قطعة من تاريخ إفريقيا والمغرب، تح: عبد الله العليّ الزيتون، دار الغرب الإسلاميّ، لبنان، 1990، ص15.

[2]أحمد مختار العبادي، المرجع السّابق، ص 289.

المطلب الثّالث:الدّولة الدّينيّة لعبد الله بن ياسين:

استشهد أبو عبد الله بن تيفاوت اللمثوني المعروف بتارسنا في أحد غزواته من قبائل السّودان الوثنيّة، فولّى صهره الأمير "يحي بن إبراهيم" الجدالي رياسة صنهاجة اللّثام واستمر في مدافعة ملك غانا في الجنوب وجهاد السّودان ثمّ خرج إلى الحج عام429هـ-1037م مع طائفة من زعماء قومه وناب عنه في رئاسة صنهاجة اللّثام ابنه " إبراهيم بن يحي"[1].

كان لرحلة الأمير:" يحي بن إبراهيم" إلى الحجّ آثار بعيدة المدى إذ أنّ ما رآه الأمير "يحي" من تقدّم الحركة العلميّة في المغرب الأقصى جعله يدرك الفرق الشّاسع بين بيئة المغرب الزّاخرة بالعلم والحضارة وبيئة الصّحراء الّتي خيّم عليها الجهل[2].

كانت الحياة العلميّة في مدن المغرب الأقصى، وقد بلغت أوجّها في القرن الخامس هجري، حتّى أصبحت مدارس المغرب وفي مقدّمتها مدرسة "فاس" قبلة العلماء والطّلاب[3].

مرّ الأمير: "يحي بن إبراهيم" في طريق العودة بمدينة القيروان حيث حضر وصحبه مجلس الفقيه "أبي عمران الفاسيّ" شيخ المذهب المالكيّ، حيث أعجب الشّيخ "أبي عمران بالأمير" "يحي" لما لمسه فيه من حبّه للخير وحرصه على التّعليم، فسأله عن بلاده ومن فيها من الخلق، وكما ينتحلون من المذاهب، فأخبره الأمير "يحي بن إبراهيم" بأنّه ليس منهم من يقرأ القرآن، وهم مع ذلك، محبّون للخير ويرغبون فيه ويسارعون إليه لو وجدوا من يقرئهم القرآن والعلم ويفقههم في دينهم ويدعوهم العمل بالكتاب[4].

---

[1]البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقيا، مكتبة المثنى، بغداد، 1966م، ص164.

[2]حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، ص304.

[3]ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ص47.

[4]المصدر نفسه، ص123.

وطلب من الشّيخ " أبي عمران" أن يعين له فقيها، يذهب معه إلى قومه بالصّحراء ليعلّمهم أمور دينهم ويرجعون إليه في نوازلهم وقضايا دينهم[1].

يرى بعض المؤرّخين أنّ "أبا عمران" لم يجد من بين تلاميذه من يقبل تلبية هذه الدّعوة، لأنّهم كانوا يرون أن دخول أرض الصّحراء صعبة[2].

ومن ذلك ما يذكره النّويري من أنّ الفقيه " أيا عمران" استدعى ابن أخيه عمر فقال له: اذهب مع هذا السّيد إلى الصّحراء، فعلم القبائل ما يجب عليهم من دين الإسلام، ولك الثّواب الجزيل من الله عزّ وجلّ، والذّكر الجميل من النّاس فأجابه إلى ذلك، فلمّا أصبح عمر جاء إلى عمّه فقال له: أعفني من الدّخول إلى الصّحراء فإن أهلها أهل جاهليّة، قد ألّفوا سِيَرًا ونشأوا عليها، فمتى نقلوا عنها قتلوا من أمرهم بخلافها[3].

لكن هذا الرأي يتعارض مع عُرف فقهاء المالكيّة في المغرب من حرصهم على رفع لِواء المذهب ونشره، لايهمّهم في ذلك اغتراب ولا تثبيط عزائمهم ، ويبدوا أنّ "أبا عمران" رأى أنّه من الأوفق لنجاحِ هذه المهمّة أن يختار فقيهًا من البربر يكون يعرف البيئة الملثّمة جيّدًا، ويلمّ بلسانها إلمامًا جيّدًا حتّى يستطيع أن يهدي هؤلاء القوم إلى الدّين الصّحيح[4] وعندما لم يجد بغيته من بين تلاميذه، أرسل الفقيه " أبو عمران" الأمير "يحي" إلى الشّيخ وجاج[5] بن زولو اللّمطي من تلاميذ الشّيخ "أبي عمران"، وكان قد رحل إلى

---

[1]ابن خلدون، المصدر السّابق، ج6، ص374.

[2]البكري: المصدر السّابق، ص165.

[3]المراكشي، البيان المغرب في أخبار اللأندلس والمغرب، ت ح إحسان عباس، دار الثقافة، ج4، ط 2، بيروت، 1983، ص ص 07-08.

[4]حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص 112.

[5]القاضيّ العيّاض: " ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك"، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، ج4، المغرب، دت، ص781.

القيروان وأخذ العلم عنه ثمّ عاد إلى السّوس*[1] فبنى دارًا سمّاها المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرآن وكان المصامدة يزورونه ويتبرّكون بدعائه، وإذا أصابهم قحط استسقوا به[2].

سار" يحي بن إبراهيم" بكتاب الشّيخ "أبي عمران" إلى الفقيه و"جاج" بمدينة نفيس*[3]أو قرية ملوكس، حيث عهد إليه أن يلتمس له من يثق بدينه وفقهه وكان ممّا جاء في رسالة فقيه القيروان أنّ: يبعث معه إلى بلاده من طلابك من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلّمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في دينهم[4].

ما كاد الفقيه وجاج يستلم رسالة شيخه "أبي عمران" حتى جمع مريديه رواد رباطه وأطلعهم على رغبة إمام القيروان، وانتدب لذلك رجل منهم جزولي النسب ومن أحذق الطّلبة الأذكياء: يدعى عبد الله بن ياسين[5]فمن يكون عبد الله بن ياسين؟

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن عليّ، وقد ذكر بعض المؤرّخين أنّه ينتسب إلى قبيلة جزولة*[6]الضّاربة في أقصى المغرب قرب جبال درن[7].

ذكر البكريّ: أنّ عبد الله بن ياسين "تيما ما ناوت" في طرف صحراء مدينة غانا[8] أي في أواخر مدينة "أودغشت" ولا يستعبد أن يكون قد انحدر من هذه القبائل الملثّمة التي

---

[1]*السّوس بلاد تنقسم إلى السّوس الأدنى وعاصمته طنجة، والسّوس الأقصى وهو أقصى بلاد المغرب ممّا يلي الصّحراء الكبرى.

ينظر: ياقوت الحموي، المعجم البلدان، دار الصّادر، ج3، بيروت، ص281.

[2]التّادلي: التّشوف إلى رجال التّصوّف، تح: أحمد التّوفيق، منشورات كليّة الآداب والعلوم، ط2، الرّباط، 1997، ص66.

[3]*نفيس: هي منطقة آجلو وهي قرية من مدينة تزنيت أو قرية ملوكس.

ينظر: البكري، المصدر السّابق، ص165.

[4]ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ص123.

[5] المصدر نفسه، والصّفحة نفسها.

[6]*جزولة قبيلة ابنت تصكي العرجاء، بنت زحيك بن مادغيس، وهي أخت من أخوات صنهاجة، موطنهم من بلاد السّوس وما يليهم من بلاد الصحراء وجبال درن.

ينظر: ابن خلدون، المصدر السّابق، ج6، ص270.

[7]البكري، المصدر السّابق، ص165.

[8]المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

تضرب في تلك النّواحيّ، ويرى حسن محمود أن ذلك يرجع نسبه إلى قبيلة جدالة التي تضرب قرب منطقة السّنغال والتوغل جنوبا حتّى منحى النّيجر وأنّه من السّهل أن يحرّف الرّواة اسم الجداليّ إلى الجذالي أو الجزولي فيصبح سبب خطأ في النّسخ أو عدم التّحقيق[1].

وممّا يفسّر تطوّع عبد الله بن ياسين لهذه المهمّة دون تردّد، فإنّ صحّت نسبة عبد الله بن ياسين إلى قبيلة جدالة فإنّه يكون أعرف النّاس بأحوال قومه وأكثرهم اطّلاعًا على مواطن الضّعف فيهم وتقويم المعوج[2].

لا تذكر المصادر المتداولة إلّا القليل عن حياة "عبد الله بن ياسين"، فلا نذكر إلا فقرات مقتضبة، وإذا كان القاضي عياض أشار في كتابه " ترتيب المدارك" في ترجمة " عبد الله بن ياسين"، أنّه كتب ترجمة مفصّلة في كتاب له عن تاريخ نسبه،إلاّ أنّ هذا الكتاب مازال مفقودًا[3].

أمّا من جهة تحصيله على العلم فيبدو أنه رحل من مسقط رأسه في اينع شبابه إلى الأندلس في دولة ملوك الطّوائف[4]ويكون بذلك قد نهل بين علم الأندلس وعلم القيروان[5].

يذكر "ابن بشكوال" أنّ عالما أخذ الحديث عن " ابن ياسين، ممّا يدلّ على أنّه كان يدرس الحديث قبل أن ينتقل إلى الصّحراء، وأنّه لم يكن فقط عالما على مقياس القفار الصّحراوية البعيدة عن العلم، وربّما يكون معروفًا من الأمير " يحي بن إبراهيم"، فإنّ هذه القبائل تكون أكثر معرفة برجالها، فإنّ أفراد القبائل عادة يفخرون برجالهم الّذين حصلوا على العلم ويعرفونهم على الأقل سماعًا ولا يستعبد أن تكون سيرة "بن ياسين" موضوع حديث عند كلّ كلام من علماء صنهاجة اللّثام وعن الإصلاح.

---

[1]أحمد حسن محمود، المرجع السّابق، ص113.

[2]البكري، المصدر السّابق، الصّفحة نفسها.

[3]القاضيّ عياض، المصدر السّابق، ص581.

[4]إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطّوائف والمرابطين، الشّروق، عمّان، 1997، ص03.

[5]أحمد حسن محمود، المرجع السّابق، ص166.

ولما كان عبد الله بن ياسين من أهل الجنوب من مواليد: "تيما ماناوت" فليس بعيد أن يكون كلّ ما جدّ من اختيار عبد الله بن ياسين هو تزكيته من علماء المغرب[1].

كان عبد الله بن ياسين من الفقهاء المتأثّرين بمبادئ فقهاء المالكيّة مثل: البعد عن السّلطان، والزّهد والتّقشف، والإيواء إلى الربط تقربا من الله حيث وصفه ابن زرع بأنّه كان من أهل الفطنة والدّين والتّقى والعفّة والورع والأدب والسّياسة، مشاركا في العلوم[2].

دخل عبد الله بن ياسين بلاد صنهاجة في صحبته زعيمها " يحي بن إبراهيم" فلمّا وصلا نزل " يحي بن إبراهيم" عن راحلته، وأخذ بزمام البعير الذي يركبه عبد الله بن ياسين احتراما له، وكان يعرفه للنّاس بقوله:" هذا حامل سنّة رسول الله " وقد تلقّاها النّاس بالإكرام وفرحوا بقدومهما وتيمّنوا بالفقيه وبالغوا في إكرامه[3]. ولأنّهم كما يبدو أنّهم أحسّوا بذلك المستقبل الزّاهر الذي أخذ هذا الفقيه الجريء يرسمه لهذه الشّعوب، حتّى أنّ هناك شيخًا منهم قال: حين رأى عبد الله بن ياسين ممتطيا راحلته، ماضيا في طريقه أرأيتهم هذا الجمل، لا بدّ أن يكون له في هذه الصّحراء شأن عظيم"[4].

مرّت دعوة عبد الله بن ياسين بثلاث مراحل قبل أن تقوم دولة المرابطين حيث أنّ بعض منها عاصرها وأشرف عليها وبعضها الآخر قام بها أتباعه المخلصون، أمّا المراحل الّتي مرّت بها دولة المرابطين قبل قيامها فهي: مرحلة التّعريف ثمّ التّكوين ثمّ التّمكين والتّنفيذ، هذه الأخيرة التي أصبحت فيها ملامح دولة المرابطين واضحة للعيان؛ إنّ المراحل التي عاصرها وأشرف عليها بنفسه هي مرحلة التّعريف والتّكوين وجزء من التّنفيذ أمّا بقيّة

[1]محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون تاريخهم السّياسيّ(430هـ-539هـ)، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1969، ص34.

[2]ابن زرع، المصدر السّابق، ص113.

[3]ابن زرع، المصدر نفسه، ص124.

[4]مؤلّف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشيّة، تح: سهيل زكار، دار الرّشاد الحديثة، 1439هـ-1970م، ص20.

المعارك فقام بها تلاميذه المخلصون من أمثال: أبي بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين*[1]. هذا الأخير كان صاحب فضل بعد الله تعالى في مرحلة التّمكين والتّوسع والانتشار الفعلي كيف ولا وهو منقذ الأندلس من الضّياع النّصرانية، وقاهر الحركات الكفرية البدعيّة من الوجود[2].

أ/ مرحلة التّعريف:

في هذه المرحلة قام " عبد الله بن ياسين" بتعريف النّاس بالعقيدة الإسلاميّة الصّحيحة مركّزًا على أركان الإيمان الستّة: "الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضائه وقدره"، على أصول منهج أهل السّنّة والجماعة، كما اهتمّ بتنظيف العقيدة الإسلاميّة من الملوّثات الشّركيّة والوثنيّة، الّتي كانت منتشرة في تلك الفترة[3].

- اهتمّ " عبد الله بن ياسين" وأتباعه في هذه المرحلة بتعليم النّاس الصّلاة والزّكاة وأحكام الصّيام حيث كانوا لا يعرفون من الإسلام إلاّ نفسه، كما حارب العادات السّيئة الّتي اعتاد النّاس على فعلها كالزّنى والزّواج أكثر من أربع نساءٍ وغيرهاوأوضحَ للنّاس ضرورة الالتزام بالسّنة والقرآن الكريم، وعمل على تفسير نصوص الدّين بأسلوب يلائم عقول الملثّمين، وأزال الشّبهات الّتي تعلّقت بأذهان النّاس من قبائل صنهاجة، وظلّ يجتهد على جمع النّاس على الإسلام ومبادئه والعمل به[4].

---

[1]يوسف بن تاشفين: تعود أصول يوسف بن تاشفين إلى قبائل صنهاجة في شمال إفريقيا وهو يوسف بن تاشفين بن براهيم بن تورقيت بن ورتا قطن بن منصور بن مصالة بن مانية ونهالي الصّنهاجي الحميري، كان ذكيًا، كثير الاستغفار والدّعاء قام بالعديد من الفتوحات والإنجازات في دولة المرابطين.

ينظر: لسان ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ج3، ط6، القاهرة، 1977، ص437.

[2]عليّ محمد صلابيّ، "تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي"، المرجع السّابق، ص43.

[3]المرجع نفسه، والصّفحة نفسها.

[4]المرجع نفسه، ص44.

ونستطيع أن نلخص هذه المرحلة في دعوة " ابن ياسين" أنّها كانت انطلاقًا من قوله تعالى:﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151)﴾[1].

من خلال هذه الآية حدّد بها " عبد الله بن ياسين" وظيفة النّبيّ – صلىّ الله عليه وسلّم– وواجبه، وكذلك الدّعاة من أمّته من بعده حيث أظهرها في كثير من الواجبات أهمّها:

*تبليغ وحي الله تعالى إلى النّاس، وذلك في قوله تعالى:﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾[2].

– تطهير نفوس النّاس من الأدران والشركيات والبدع وذلك بفعل الخير في الحياة الدّنيا وفي الآخرة الأجر والثّواب، في قوله تعالى:﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾[3].

– الحثّ على تعليم النّاس العلم النّافع؛ أي القرآن والحكمة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[4].

– كما نجد الأحاديث النّبويّة التي تربّى عليها "ابن ياسين" وتلاميذه مشجّعة لهم في سّعي الدؤوب من أجل إكمال مرحلة التّعريف بالدّعوة بنجاح. روى الإمام البخاري بسنده عن "عبد الله بن عباس" في باب تعريف النّبيّ– صلّى الله عليه وسلّم– قال:" ارجعوا إلى أهلكم فعلّموهم". وشأن أي داعية، يبتليه الله بأقوام غلاظ، الأكباد قساة القلوب فلقد أصدمت دعوة "عبد الله بن ياسين" الدّينيّة الإصلاحيّة، بأطماعهم فتعرّض للتّضييق والشدّة والتّعسف من بعض وجهاء قبائل صنهاجة ومن قبيلة جدالة وحاولوا قتله لكن الله تعالى نجاه منهم[5].

– أشار الأمير " يحي بن براهيم" على "علي بن ياسين" أن يهاجروا إلى جزيرة في حوض السّنغال ليتربّى فيها الأتباع، ابتغاء مرضاة الله والدّار الآخرة حيث قال له: " إن الجزيرة إذا حصر البحر دخلنا إليها على أقدامنا، وإذا ملأ دخلنا في الزوارق، وفيها الحلال

---

[1]سورة البقرة/ الآية:151.

[2]سورة البقرة/ الآية:151.

[3]سورة البقرة/ الآية:151.

[4]سورة البقرة/ الآية:151.

[5]علي محمد صلابي، "تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي"،المرجع السّابق، ص 45.

المحض الذي لا تشك فيه من الشجر البريّة وصيد البرّ والبحر وأصناف الطّير والوحوش والحوت"[1].

– ترك "علي بن ياسين" ديار الملثّمين واختار جزيرة في حوض نهر السّنغال للمرابطة وتربيّة المريدين على كتاب الله وسنّة رسوله– صلّى الله عليه وسلّم– بعد أن ترك صدى ودويًّا لدعوته في ديار الملثّمين، ومن ثَمَّ قرّر هذا الأخير أن ينتقل إلى المرحلة الثّانيّة: وهي مرحلة التّكوين، الّتي اختار لها مكان مناسب مقارنة بطبيعة المرحلة في حدّ ذاتها في تاريخ دولة المرابطين[2].

ب/مرحلة التّكوين:

تعتبر هذه المرحلة مرحلة حاسمة في تاريخ دولة المرابطين ما اسمي برباط بن ياسين فيا ترى ما معنى الرّباط في الإسلام؟

– الرّباط: حصن حربيّ يقام في الثّغور المواجهة للعدوّ للدّفاع عن ديار المسلمين، حيث أن هذه التّسمية مقتبسة من القرآن الكريم والسّنة النّبويّة الشّريفة، قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

وفي الحديث النّبوي الشّريف في البخاري، جاء فضل الرّباط في سبيل الله تعالى عن سهل بن سعد السّاعدي – رضي الله عنه– أن رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– قال: " رباط يوم في سبيل الله خير من الدّنيا وما عليها، وموضع سوط أحدهم من الجنّة خير من الدّنيا وما عليها، والرّوحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدّنيا وما عليها"[4].

– أمّا عن رباط "عبد الله بن ياسين" فقد اختار الحوض الأدنى لنهر السّنغال لاعتبارات عديدة أهمّها:

*أنّه يقع قريبا من مملكة "غانا" الوثنيّة وبالتّالي هو مهدّد دائما بالأعداء ومن جهة أخرى فإنّ المجموعة المقيمة فيها تكون دائما على أهبّة الاستعداد للجهاد، وفي نفس الوقت غير

[1] حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص23.

[2] حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص23.

[3] سورة آل عمران/ الآية:200.

[4] رواه البخاري: كتاب الجهاد والسّير، ج3، ص285، حديث رقم 2892.

بعيد من ديار الملثّمين فهو يستند عليهم في حالات الخطر، ثمّ أنّ هذه الدّيار تعتبر موردًا بشريًّا مهم لدعم دعوة "عبد الله بن ياسين" في المنطقة[1].

– كان دخوله الجزيرة في الحوض الأدنى لنهر السّنغال عام: 433هـ–1040م ومعه اتباعه المخلصون ثمّ ما فَتِئ أن بدأ الانضمام إلى جماعته من أبناء الملثّمين حيث تكاثر العدد حتّى بلغ الألف رجل، لما لاحظ "عبد الله بن ياسين" كثرة الاتباع وضع شروطا لازمة وذلك لطبيعة المرحلة الدّعويّة، لكي لا يتأثّر تنظيم رباطه الجديد حيث أنّه كان ينتقي أطهر الملثّمين نفسا وأوفرهم قوّة وأقدرهم على تحمّل المشاق، ثمّ أنّه كان يطلب من أتباعه أن يتخلّوا عن تقاليدهم وأعرافهم وتصوّراتهم التي تخالف الإسلام[2].

– عمل " عبد الله بن ياسين" جاهدا على تحكيم شرع الله على الأفراد وفي مجتمعه الجديد وكان يرى أن من فاتته صلاة من عمره عليه أن يقضيها، وهي مسألة فقهيّة اختلف علماء الأمّة فيها، وأَوْلَى اهتماما بالغا بالفقهاء والعلماء وبرفعهم إلى المراتب العالية حيث التفّ حوله مجموعة من الفقهاء والعلماء ليساعدوه على تربيّة النّاس وتعليمهم وتأهيلهم للمرحلة القادمة الحاسمة وكان أهل الرّباط في قمة من الصّفاء الرّوحيّ، ويعيشون حياة مثاليّة في رباطهم، فيتعاونون على قُوتِهم اليوميّ معتمدين على ما توفره لهم جزيرتهم من الصّيد البحريّ، يقتنعون بالقليل ويرتدون الثّياب الخشنة[3].

– كان رباط السّنغال الذي أسّسه "عبد الله بن ياسين" نبراسا يشع نوره وخيره وعلمه في تلك الصّحاريّ القاحلة، وأصبح مركزًا جاذبًا لأبناء صنهاجة إليه، كما أنّه وفّر الأمن والاستقرار في تلك الدّيار الصّحراويّة البعيدة، وقد أدى ذلك إلى ازدهار التّجارة، كما تميّز ذلك الرّباط بحسن إدارته وتنظيمه وتشكيله ممّا ساعد على قوّة البذرة الأولى لدولة المرابطين مشكّلًا بذلك مجلس الشّورى وجماعة الحل والعقد[4].

ج/مرحلة التّنفيذ: التي قام بها "ابن ياسين":

استطاع الدّاعيّة "عبد الله بن ياسين" وأصحابه أن يقطعوا مشوارًا فقهيًّا وتربويًّا وتنظيميّا ناجحًا، وأصبح معه رجال يعتمد عليهم في تبليغ دعوة الله على فهم صحيح لكتاب الله

[1] ابن زرع، المصدر السّابق، ص125.

[2] المصدر السّابق، والصّفحة نفسها.

[3] حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص28.

[4] عليّ محمد صلابيّ، "تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي"،المرجع السّابق، ص51.

وفقه أوسع لسنّة رسول–صلّى الله عليه وسلّم– ورغبتهم في ثواب الله تعالى طلبا في مرضاته ومخوفا من عقابه، وتمكّن من حبّ اتباعه له وشرع بإرسال البعوث إلى القبائل لترغيب النّاس في الإسلام، فلبّى مجموعة من أشراف صنهاجة هذه الدّعوة، ثمّ أمر أتباعه وتلاميذه أن يذهب كلّ منهم إلى قبيلته أو عشيرته يدعوهم إلى العمل بأحكام الله وسنّة نبيّه – صلّى الله عليه وسلّم– ولكن لم يجدوا استجابة من أقوامهم، فخرج "عبد الله بن ياسين" إليهم بنفسه، حيث جمع أشياخ القبائل واعظا ومحذّرا من عقاب الله واستمرّ ذلك سبعة أيّام لكنّهم ازدادوا فُسقًا، فلمّا يئِس منهم أعلن الجهاد ضدّهم[1].

– اجتمعت جموع المرابطين أوّلًا صوب قبيلة جدالة وهزمهم في معركة شرسة وقتل منهم الكثير ثمّ سار "ابن ياسين" إلى قبيلة لمتونة فقاتلهم وانتصر عليهم، ودخلوا في طاعته وبايعوه على إقامة الكتاب والسّنة، ثمّ اتّجه إلى قبيلة مسوفة التي دخلت تحت لوائه وبايعوه على ما يبايعونّه قبائل جدالة ولمتونة، فلمّا شهدت قبائل صنهاجة هذه الأحداث سارعت في مبايعة "بن ياسين" على بذل الطّاعة له واتّبعها الكثير من القبائل الصّحراويّة[2].

– قام ابن ياسين بوضع خطّة شاملة حيث ركّز على توزيع التّابعين من تلاميذه على القبائل التي دخلت في دعوته ليعلموها القرآن وشرائع الإسلام، وهكذا بدأ في التّخطيط لتأسيس الدّولة التي شرع لتأسيسها على أسس شرعيّة ربّانيّة، ويعتقد بعض المؤرّخين أنّ الذي أسّس الدّولة المرابطة فعليّا ونفّذ أحكامها الشّرعيّة هو: "يوسف بن تاشفين"، وهذا يتّضح من خلال الدّراسات العديدة لهذه الدّولة، ولما توفي الأمير "يحي بن إبراهيم الجدالي"، قدّم "ابن ياسين" مكانه، "يحي بن عمر اللّمتونيّ"، وكان من أهل الدّين والفضل، كما كان طائعًا في جميع أموره لإمامه "عبد الله بن ياسين"[3]

[1]ابن زرع، المصدر السّابق، ص85.

[2]حمدي عبد المنعم محمد حسين: التّاريخ السّياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعيّة، الاسكندريّة، 1997، ص41.

[3]حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص31.

المطلب الرّابع: بوادر تشكّل دولة المرابطين:

كان تأثير الدّعوة الدّينيّة التي قادها الملثّمون وعلى رأسهم:" عبد الله بن ياسين" ظهور كيان سيّاسي مهّد لقيام تنظيم سياسيّ متمثّل في قيام دولة المرابطين خاصّة منذ خروج " إبراهيم الجدالي" للحجّ، الّذي جلب معه فقيهًا يعلّمهم شرائع الدّين الإسلاميّ، ويحثّهم على الابتعاد عن كلّ المنكرات الّتي اعتاد المجتمع على فعلها، وللتّعمّق أكثر في الموضوع، كان لزامًا علينا أن نمرّ عبر أهمّ المحطّات التّاريخيّة الّتي مهّدت لقيام دولة كان لها شأن عظيم في بلاد المغرب الإسلاميّ.

- كان وصول المرابطين ونزولهم إلى الصّحراء التي تحت إمرة تيرلتان بن تكيلان*[1]في عام(222هـ-836م)، وعندما توفي حفيده الأفرين الأثير بن قطر بن تيلوتان*[2]، والذي كان على رأس قبيلة صنهاجة وعندما أدركته المنيّة في (287هـ-900م) خلفه نظيم بن الأثير*[3]في (360هـ-970م)الذي قتل من طرف أشياخ صنهاجة الذين خالفوه وأهدروا دمه، فعمّت الفوضى والاضطراب السّياسي في مدّة لا تقل عن 120سنة إلى أن جاء "محمد بن عبدالله بن تيفان اللّمتونيّ"*[4]الذي اجتمعت فيه خصال حميدة، لاقت الاستحسان مع شيوخ صنهاجة فولّوه قيادتها، لكنّه لم يعمّر في حكمه وقتل في هجوم قامت به أحد

---

[1]*تيرلتان بن تكيلان الصّنهاجي اللّمتوني: كان أوّل ملوك صنهاجة، ملك الصّحراء كلّها، ودانت لهم ملوك السّودان الغربيّ، كان في ايّام عبد الرحمن الدّاخل عاش نحو ثمانين سنة، توفي سنة222هـ.

ينظر: أبي زرع، المصدر السّابق، ج1، ص ص120-121.

[2]الأثير بن فطر بن تيلوتان: بعد وفاة تيلوتان خلّفه حفيده الأثير حتّى توفيّ سنة 287هـ.

ينظر: المصدر نفسه، ص 121.

[3]نظيم بن الأثير: تولّى بعد أبيه ملكا على قبائل صنهاجة حتّى سنة306هـ، ثار عليه شيوخ صنهاجة وقتلوه وافترق أمرهم.

ينظر: ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص ص 120-121.

[4]*تيفان اللّمتوني: أبو عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتار شتارشتا اللّمتونيّ، بعد اختلاف شيوخ صنهاجة لمدّة 120سنة، اتّفقوا بعدها على تارشتا مكا عليهم، فحكم لمدّة ثلاث سنوات ثمّ قتل بعدها في حرب مع السّودان، فتولّى بعده "يحي بن إبراهيم الكدالي".

ينظر: المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

القبائل اليهوديّة من السّودان، فكان إجماع الصّنهاجيّين على تعيين " يحي بن براهيم الجدالي" لخلافته*[1].

فأقام الأمير "يحي بن إبراهيم" على رياسة صنهاجة وحروبهم مع أعدائهم إلى سنة 427هـ، فاستخلف ولده "إبراهيم بن يحي" على صنهاجة، وارتحل إلى المشرق لتأدية فريضة الحجّ وزيارة قبر رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– فوصل وقضى حجّه وزيارته وعند رجوعه إلى بلاده، مرّ في طريقه بمدينة القيروان، فلقى الفقيه الصّالح "أبا عمران موسى بن الحاج الفاسي"، وحضر مجلس درسه وتأثّر بوعظه[2] فقال له الشّيخ: وما ينتحلون من المذاهب؟ قال: "إنّهم قوم غلب عليهم الجهل، وليس لهم كبير علم"، فاختبره الشّيخ وسأله عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيئًا إلّا أنّه حريص على التعلّم صّحيح النّية والعقيدة، فقال له الشّيخ: "وما يمنعك من تعلّم العلم؟" فقال:" يا سيّدي عدم وجود عالم بأرضي، وليس في بلادي من يقرأ القرآن فصلاً عن العلم ومع ذلك أهلي يحبّون الخير ويرغبون فيه لو وجدوا من يُقرئهم القرآن ويدرّس لهم العلم ويفقّههم في دينهم[3]. وكان أسمى طلبه أن يزوّدهم بفقيه يرجعون إليه في نوازلهم[4].

فكان من الفقيه "أبا عمران موسى بن الحاج الفاسي" أن عرض ذلك على طلبته فرفضوا ذلك*[5]ممّا جعل هذا الأخير أن أحال على تلميذ له من بلاد السّوس*[6] وسكانها أخلاط من برابرة المصامدة[1].

---

[1]*يحي بن إبراهيم الكداليّ: هو يحي بن عمر بن تلاكين اللّمتوني أبو زكريا كان من رؤساء لمتونة في العرار.
ينظر:خير الدّين الأركلي: قاموس تراجم أشهر الرّجال ونساء من العرب والمشرقين، ج6، ط2، ص166.

[2]النّاصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر النّاصري، دار الكتاب الدّار البيضاء، ج2، بدون تاريخ نشر، 1954، ص05.

[3]المصدر نفسه، ص06.

[4]البكري: المصدر السّابق" الممالك والمماليك"، ص858.

[5]*يذكر السّلاوي أن سبب امتناعهم عن الذّهاب صعوبة الدّخول إلى الصّحراء.
ينظر: الناصري السّلاوي، المصدر السّابق، ج1، ص99.

[6]*السوس: هي منطقة ببلاد المغرب كانت الرّوم تسمّيه "قمونية" قرب طنجة وهناك السّوس الأقصى والسّوس الأدني بينها مسيرة شهرين وبعده بحر الرّمال وورد عند لإدريسي أنّ بلاد السّوس هي تارودنت، وعرفت بلاد السّوس بأنّها السّحر والشّعوذة وأنّهم برابرة جفاة في مظهرهم خشون....، ويخشاهم النّاس ويحترمونهم، وسكّانها أخلاط من برابرة المصاندة.

في أقصى المغرب وهو" حاج بن زلو اللّمطي"*[2]من أهل السّوس الأقصى، كتب له كتابا لينظر في تلامذته من يبعثه معك فسر إليه تجد حاجتك عنده، فكتب إليه الشّيخ "أبو عمران" كتابا يقول فيه:" أمّا بعد إذا وصلك حامل كتابي هذا وهو: "يحي بن إبراهيم الكدالي" فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ويعلّمهم شرائع الإسلام ويفقّههم في دين الله، ولك وله في ذلك الثّواب والأجر العظيم والله لا يضيع أجر من أحسن عملا"[3].

ويعتبر "أبو محمد واجاج" هذا من رجال التّشوّف، قال فيه:" ومنهم واجاج بن زلو اللّمطي" من أهل السّوس الأقصى رحل إلى القيروان، وأخذ عن "أبي عمران الفاسيّ" إلى السّوس، فبنى دارا سمّاها "بدار المرابطين" لطلبة العلم وقراء القرآن وكان المصامدة يزورونه ويتبرّكون بدعائه وإذا أصابهم قحط استقوا به، فسار "يحي بن إبراهيم" بكتاب الشّيخ "أبي عمران" حتى وصل إلى الفقيه "واجاج" بمدينة نفيس، فسلّم عليه ودفع إليه الكتاب وكان ذلك في رجب سنة 430هـ[4].

– فنظر الفقيه "واجاج" في الكتاب، ثمّ جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشّيخ "أبو عمران"، فانتدب لذلك رجل منهم يقال له: "عبد الله بن ياسين الجزولي" وكان من حذّاق الطّلبة ومن أهل الفصل والدّين والورع والسّياسة مشاركا في العلوم فخرج مع " يحي بن إبراهيم " إلى الصّحراء[5].

ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السّابق، ج1، ص ص152، 181.

[1]المصدر نفسه، والصّفحة نفسها.

[2]*وزلو اللّمطي: هو أحمد محمد وحاج بن وزلو اللّمطي نسبة إلى لمطة أهل السّوس الأقصى بنفيس رحل إلى القيروان، وأخذ عن أبي عمران الفاسيّ، وعاد إلى السّوس، بنى دار لطلبة العلم.

ينظر: أبي عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب، المصدر السابق، ج 4، ص08.

[3]ابن زرع، المصدر السّابق، ص123.

[4]ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 26.

[5]المصدر نفسه، والصّفحة نفسها.

– اتّصف "عبد الله بن ياسين" بالتّقوى والورع وحبّه للدّين الإسلاميّ وتعاليمه، فما أن وصل قبيلة "جدالة" حتّى أخذ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لما لاحظه من انتشار الرّذائل والعادات السّيئة للإسلام[1].

– **يذكر ابن ابي زرع**[2]: كانوا يتزوّجون ما يشاؤون وفيهم من لا يعرف الصّلاة والزّكاة فكان الرّجل يتزوّج منهم السّت من النّسوة والسبع والعشر وما شاء، فأنكر عليهم ذلك عليهم ذلك ونهاهم عنه، وقال لهم: إنّ هذا ليس من السّنّة وإنّما الإسلام أن يجمع الرّجل بين أربع نسوة، ووجد أكثرهم لا يصلّون، وليس عندهم من الإسلام إلّا الشّهادتان وقد غلب عليهم الجهل ولجوئهم إلى الزّنا والسّرقة[3].

– وكان الرّجل منهم يصادق المرأة بعلم زوجها وحضوره[4].

– غضب "ابن ياسين" منهم وتشدّد عليهم بفرض نظام الأمر بالمعروف والنّهيّ عن المنكر، فأصبحوا يخافونه وينفرونه من دعوته، يقول البكري: فأبوا عليه وخالفوا عنه[5].

– هذه الحادثة جعلت عبد الله بن ياسين يفكر في أن يرحل إلى منطقة نائية مع اتّباعه إلى بلاد السودان، لكن "يحي بن إبراهيم الجدالي" قال له: "لا أتركك تنصرف وأتيت بك لا تنفع من علمك"، وأشار عليه بالرّحيل إلى جزيرة في الحوض الأدنى لنهر السنغال*[6]، فوافق "يحي بن إبراهيم" على ذلك فذهب معه

---

[1]محمد بن عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثّانيّ دولة لطّوائف عند قيامها إلى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، ط4، القاهرة،1998، ص 302.

[2]ابن زرع: المصدر السّابق، ص224.

[3]حمدي عبد المنعم حسين، المرجع السّابق، ص40.

[4]سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس في عهد يوسف بن تاشفين، دار النّهضة العربية، ط1، بيروت، 1985، ص17.

[5]البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، المصدر السّابق، ص168.

[6]*الجزيرة في الحوض الأدنى لنهر السنغال، ويقع المكان قرب مملكة غانا وغير بعيد عن ديار الملثّمين.

ينظر: سعدون عباس نصر الله، المرجع السّابق، ص26.

سبع نفر من قبيلة جدالة، ومكثوا بها لمدّة ثلاثة أشهر متعبّدين الله حتّى ذاع صيتهم وسمع بهم النّاس[1].

– شرع "عبد الله بن ياسين" مع اتباعه السّبعة في المرابطة في الجزيرة، وكان ذلك في عام (433هـ–1040م)، منهم: "يحي بن إبراهيم"، "يحي بن عمر اللمتوني"حيث أطلق عليهم "بن ياسين" المرابطين[2]، وما هي إلّا أيّام قليلة حتّى اجتمع عليه حوالي 1000رجل[3].

– ثمّ إنّه سمح لهم بالجهاد ضدّ من خالفهم من أشياخ صنهاجة[4]وقال لهم: "يا"معشر المرابطين، إنّكم اليوم جمع كثير نحو ألف رجل، ولن يغلب ألف من قلّة وأنتم وجوه قبائلهم ورؤساء عشائرهم وقد أصلحهم الله تعالى، وهداهم إلى صراطه المستقيم فوجب عليهم أن تشكروا نعمه عليكم بأن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدون في الله حتّى جهاده، فقالوا له: أيّها الشّيخ المبارك، أمرنا بما شئت تجدنا سامعين لك، مطيعين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا فقال لهم: أخرجوا على بركة الله وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وابلغوا حجته فإن تابوا فخلوا سبيلهم وإن أَبَوْ من ذلك وتمادوا في غيهم ولجو في طغيانهم مستعينا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين[5].

– أمر عبد الله بن ياسين كلّ رجل منهم بالسّير إلى قومه وعشيرته وأن يعظهم وينذرهم لكنّهم لم يأبهوا لذلك، فخرج عليهم بن ياسين بنفسه جامعا أشياخ قبائلهم وقرأ عليهم حجّة الله ودعاهم إلى التّوبة مرغبا إياهم في الجنّة. مخوّفهم من النّار مدّة سبعة أيّام وهم ذلك كلّه لا يلتفتون إلى قوله ولا يزدادون إلّا فسادًا فلمّا يئسَ منهم قال لأصحابه: قد أبلغنا الحجّة وأنذرنا وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله، فبدأ أوّلا بقبيلة "جدالة"، غازيا أيّامهم بثلاثة آلاف رجل

---

[1]ابن زرع، المصدر السابق، ص79.

[2]سعدون عباس نصر الله، المرجع السابق، ص26.

[3]السّيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة الشّباب الجامعيّة، 1999، ص609.

[4]النّاصري: الاستقساء، المصدر السّابق، ج2، ص ص8–9.

[5]المصدر نفسه، والصّفحة نفسها.

من المرابطين، وتمّت هزيمتهم، وقتل منهم الكثير، وأسلم الباقون إسلاما جديدًا، وكان ذلك في سنة434هـ[1].

– ثمّ اتّجه إلى قبيلة لمتونة وقاتلهم حتّى أعلنوا الطّاعة والولاء وتمّت مبايعته على الكتاب والسّنة، ثمّ انطلق إلى قبيلة مسوفة فقاتلهم حتّى بايعوه على ما بايعته جدالة ولمتونة فلمّا أتمّ ذلك سار إلى صنهاجة التي سارعت في إعلان المبايعة والتوبة. وكان من أتاه تائبا منهم يضربه مائة سوط ثمّ يعلّمه القرآن وشرائع الإسلام، وكان يأمرهم بالصّلاة والزّكاة وتأدية العشر من الصّدقات متّخذًا لذلك بيتًا للمال[2].

– أخذ "عبد الله بن ياسين" في شراء السّلاح وزيادة عدد الجيوش من ذلك المال وجعل يغزوا القبائل حتّى ملك جميع الصّحراء، كما أنّه شجّع طلبة العلم ببلاد المصامدة وسائر أقطار المغرب بأنّه رجل من جدالة يدعو إلى الله تعالى وإلى الصّراط المستقيم[3].

– في سنة 447هـ–1055م، اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة*[4]حيث أقاموا بالكتابة إلى الفقيه عبد الله بن ياسين يطلبون منه المساعدة لتخلّيهم وتخليص بلادهم من المعاناة التي فرضها حكم الطّغاة الظّلمة: زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن واندين، فما كان على ابن ياسين، أن جمع شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة فكان ردّ أصحابه بمديد المعونة لهم وقالوا له: أيّها الشّيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فَسِرْ بنا على بركة الله[5].

– انطلقت جموع المرابطين في شهر صفر سنة: 447هـ إلى بلاد درعة، فتصدّى لهم الأمير "مسعود بن واندين" *[6]وانتهت المعركة بهزيمة المغراويين، وتمّ مصرع "

---

[1]المصدر نفسه، ص09.

[2]المصدر نفسه، والصّفحة نفسها.

[3]المصدر السّابق، والصّفحة نفسها.

[4]*درعة: مدينة صغيرة في الجنوب الغربي للمغرب الأقصى تبعد بينها وبين سجلماسة ثلاث مراحل.
ينظر: ياقوت الخموي، المصدر السّابق، ج2، ص451.

[5]ينظر: موسوعة المغرب العربي، ج2، ص128.

[6]*مسعود بن محمد بن مسعود بن وانودين بن خزرون المغراوي، آخر أمراء مغراوة من بني خرز الذين حكموا سجماسة ودرعة من سنة 417هـ حتى قتله المرابطون واستولوا على ملكه سنة 445هـ.

مسعود " وتشتت جيشه وأسرع "ابن ياسين" بدخول سجلماسة"، وقدّم عليها عاملًا من لمتونة وحامية مرابطية ثمّ عاد إلى الصّحراء[1].

– في سنة 448هـ– 1056م توفي الأمير "يحي بن عمر اللّمتونيّ"، فعيّن وولّى عبد الله "بن ياسين" مكانه أخاه، "أبا بكر بن عمر" وذلك في محرّم سنة448هـ وقلّده أمر الحرب والجهاد ثمّ ندب المرابطين إلى غزو بلاد السّوس والمصامدة فزحف عليها في جيش عرمرم في ربيع الثّاني سنة448هـ.

وكان أبو بكر بن عمر رجلا صالحا وورعا فجعل في مقدّمته ابن عمّه "يوسف بن تاشفين" اللّمتوني، ثمّ سار حتّى انتهى إلى بلاد السّوس، فغزا جزولة*[2] وفتح مدينة ماسة*[3] وتارودانت – قاعدة بلاد السّوس– وكان بها قوم من الرّافضة يقال لهم: الجبلية نسبة إلى " علي بن عبدالله الجبلي الرّافضيّ، فقاتلهم "عبد الله بن ياسين" و"أبو بكر بن عمر" حتّى فتحوا مدينة تارودانت عنوة وقتلوا بها خلقا كثيرا ورجع من بقي معهم إلى مذهب السّنة والجماعة[4].

– ثمّ اتّجه المرابطون إلى آغمات*[5] عام(449هـ–1059م) فمكثوا فيها لمدّة شهرين ثمّ توجّهوا إلى تادلة*[6]فاستولوا عليها وقتلوا من بها من بني يغرن*[7].

ينظر: لسان الدّين ابن الخطيب الغرناطي: أعمال الاعلام، تح: أحمد مختار العبادي، دار الكتاب، ج3، المملكة المغربيّة، 1994، ص151.

[1]ينظر: موسوعة المغرب العربيّ، 2/ص 182.

[2]*جزولة: هي قبيلة عبدالله بن ياسين الأب الرّوحي للمرابطين، كانوا يقيمون ببلاد السوس مجاورين لقبيلة لمطة وكان بينهما عداء.

ينظر: يوزياني الدّراجيّ: القبائل الأمازيغيّة أدوارها ومواطنها وأعيانها، ج2، ص202.

[3]*ماسة: مدينة مغربية جنوب غرب أقادير بالسّوس الأقصى.

ينظر:ابن عذارى المرّاكشي، المصدر السّابق، ج1، البيان، ص26.

[4]أحمد مختار العبادي، المرجع السّابق، ص293.

[5]*إغمات: ناحية في بلاد المغرب على أرض البربر تقع قرب من مراكش وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير وليس بالمغرب بلاد أجمع بهذه الطّبقات ولا أوفر حظّا منها.

ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السّابق، ج1، ص224.

[6]*تادلة: تقع على وادي الرّبيع ويعرف إقليمها بغزاز وبها تمّ تأسيس مدينة داي تيعد على إغمات 4أيام.

ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص05.

[7]*بني يغرن: من بطون زناتة وأوسعها ونسبهم بني يفرن.

– أمّا الوجهة التّاليّة فكانت لقتل البراغواطين[1]على أرضهم ووصل الملثّمون إلى قتال زناتة[2].

ومن خلال ما سبق نستخلص: أنّ دور الدّعوة الدّينيّة التي تزعمها "عبد الله بن ياسين" كان له دور فعال في قيام دولة المرابطين التي استطاعت أن توحد قبائل بلاد المغرب الإسلامي في معظمها بعدما كانت مشتّتة هناك وهناك، محاربة بذلك كلّ العادات والدّيانات الكفريّة معتمدة على القرآن الكريم والسّنة النبويّة الشّريفة، متّخذة الأمر بالمعروف والنّهيّ عن المنكر شعارها.

ينظر: ابن الأحمر: تاريخ الدّولة الزّيانيّة تلمسان، تح: هاني سلامة، مكتبة اتقانة الدّينية، ط1، مصر، 2011، ص ص 1–10.

[1]بطن من بطون المصامدة في بساط تامسنا.

ينظر: ابن خلدون المصدر السّابق، ج6، ص280.

[2]ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السّابق، ج3، ص10.

المبحث الثّانيّ: مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ عند المرابطين.

- **المطلب 1:** مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في التّنظيم الإداري.
- **المطلب 2:** مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في الميدان الاقتصادي.
- **المطلب 3:** مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في الميدان الاجتماعي.
- **المطلب 4:** مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في الميدان الثقافي.

المبحث الثّانيّ: مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ عند المرابطين

المطلب الأوّل: مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في التّنظيم الإداريّ

أ/نظام إمارة المسلمين:

يرجع الفضل في وضع نظم الدّولة المرابطيّة إلى "يوسف بن تاشفين"، وهو الذي اتّخذ لنفسه لقب أمير المسلمين بعد معركة الزلاقة[1].

كان نظام الشّورى هو الأساس الذي قام عليه نظام الحكم في بداية قيام دولة المرابطين قبل "يوسف بن تاشفين"، حيث كان المرابطون يختارون رئيسهم بكامل الحريّة بعد عقد مجلس يتكوّن من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء، وبهذه الطّريقة تمّ اختيار "عبد الله بن ياسين" الّذي لم يهزّه منصب الإمارة والذي كانت وصيّتُه الأخيرة للمرابطين قوله:

"إيّاكم والمخافة والتّحاسد على الرّياسة فإنّ الله يؤتي ملكه من يشاء..."[2].

ويمكن من هذه الوصيّة أن نستنتج: أنّ "عبد الله بن ياسين" لم يكن يرى طريقة الحكم الوراثيّ، أمّا "يوسف بن تاشفين" فقد كان يخشى أن يعود الأمر فوضى من بعده، لذلك رأى أنّ يعيّن وليًّا للعهد يستخلفه بعد موته، وهكذا تحوّل نظام الشّورى الذي كان متّبعًا عند قيام الدّولة إلى نظام وراثيّ منذ أن اختار "يوسف بن تاشفين" ابنه عليا لولاية العهد سنة 496هـ/1102م الذي رأى فيه أنّه أهل خلافته*[3].

لقد كان من الطّبيعيّ أن يعمل "يوسف بن تاشفين" على مشاورة كلّ من يهمّه الأمر حول هذا الاختيار ولهذا بادر بمشاورة الفقهاء والقضاة وزعماء القبائل فوافق الجميع على

---

[1] ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ج1، ص137.

[2] المصدر نفسه، ص132.

[3] *يعلّق محمد بن الخلف في البيان الواضح على اختيار يوسف لابنه على بقوله:" ومما سلى النّفوس كل التّسلية، وأطفأ نار الرّزيّة ما كان من نظره الجميل الرّصين والرأي الحسن.
ينظر: الحلل الموشية، المصدر السّابق، ص55.

ما اعترف عليه وعلى إثره قرأ عليهم مرسوم البيعة الذي كان من إنشاء الوزير الفقيه "أبي محمد بن عبد الغفور"[1].

قد أشارت الوثيقة إلى أن "يوسف" قد اختار من بين أولاده من هو أصلح لقيادة الدّولة المرابطيّة المترامية الأطراف، فوجد ابنه الأمير الأجل "أبا الحسن" أكثرها ارتياحا إلى المعالي، واهتزازا وأكرمها سجيّة[2]. ثمّ أنّ "يوسف بن تاشفين" قام باستشارة أهل الرأيّ على القرب والنّأي[3].

ويشير مرسوم البيعة إلى أنّها كانت مشروطة ببعض الشروط اشترطها عليه أبوه ولعلّ أهمّها: التمسك بالمبادئ التي دعا إليها الإمام "عبد الله بن ياسين" من إعلان الجهاد على أعداء الإسلام واحترام الفقهاء والقضاء والعلماء، بالإضافة إلى ما ذكره صاحب الحلل في قوله: " كان من الشروط في تقديمه للعهد التي اشترطها عليه أبوه ترتيب سبعة عشر ألف فارس بالأندلس..."[4].

وفي سنة 496هـ/1102م عبر "يوسف بن تاشفين" إلى الأندلس، متفقّدا أحوالها وتنظيم البيعة لولده علي وقد صحبه ولداه الأمير: "أبو الحسن علي" والأمير "أبو الطاهر تميم"، ثمّ اتّجه إلى قرطبة مقرّ الخلافة الأمويّة والقاعدة الأولى للمرابطين في الأندلس وهناك قرّر أخذ البيعة لولده علي، وقد صدر كتاب القولية والبيعة عن "يوسف بن تاشفين" لولده "علي " بعلم وزيره وكاتبه ابن القصيرة في ذي الحجّة عام 496هـ[5].

في 499هـ وفي ولاية "علي بن يوسف" قرأ بإشبيليّة كتابا من ولي العهد بعزل القاضي "ابن منظور" وأورد الدّكتور "محمود مكيّ" رسالة صادرة عن "علي بن يوسف "

---

[1]الحلل الموشية، المصدر السابق، ص ص55-56.

2المصدر نفسه، ص ص56-57.

[3]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4]المصدر نفسه، ص 57.

[5]ابن الخطيب، المصدر السّابق، ج2، ص516.

مؤرّخة في آخر ذي الحجّة سنة 499هـ-1106م أيّ قبل وفاة "يوسف بن تاشفين" بيوم واحد تضمّنت ردّه على رسالة وجّهها إليه عدد من الفقهاء في إحدى أقاليم الدّولة[1].

اتّخذ "يوسف بن تاشفين" لنفسه لقبًا جديدًا هو لقب "أمير المسلمين وناصر الدّين" تتويجا للانتصار الّذي حقّقه في أرض الأندلس وقد ذكر ذلك صاحب روض الفرطاس أن تسمّى يوسف في يوم الزلاقة بأمير المسلمين ولم يكن يدعى به قبل ذلك[2]. وهو أوّل من تسمّى بأمير المسلمين من ملوك المغرب، ويؤيّد ابن زرع في ذلك من المؤرّخين ابن الخطيب[3] وابن خلدون [4]وعددا من الباحثين المحدثين إلى الأخذ بهذا القول[5].

وعلى ما يبدو أنّ يوسف اتّخذ هذا اللّقب بعد انتصاره في معركة الزّلاقة فمن الطّبيعيّ أن يعمد المنتصر إلى اتّخاذ لقب جديد يتناسب مع مقتضى الأحداث، ولهذا فإنّ هذا الانتصار كان الحافز والمشجّع الذي دفع بيوسف بن تاشفين إلى التّلقب به على سائر زعماء القبائل.

حافظ "علي بن يوسف" أمير المسلمين على نهج سياسة والده في اختيارِ ولي العهد فوقّع اختياره على ابنه الأمير "سير" وذلك في عام 522هـ-1128م، وفي هذا الصّدد يقول ابن عذارى المرّاكشي نقلا عن الورّاق:" لما عزم علي بن يوسف أن يخلع عهده إلى ابنه-سير- وشهد الشّهود عليه بذلك وكملت البيعة له".

ولمّا ولي "علي" ابنه "سير" ولاية عهده رأى أن يولي ابنه الأمير "تاشفين" الأندلس فولاه على مدينة غرناطة وألمرية وقرطبة نتيجة الصولات والجولات والتي حقّقت فيها انتصارات رفعت مكانته في نظر أهل الأندلس وشاع ذكره في المغرب والأندلس وكبر ذلك على

---

[1]حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيّامهم في الأندلس، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ط1، مصر، 1420هـ-2000م، ص19.

[2]ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص149.

[3]ابن الخطيب، المرجع السّابق، أعمال الإعلام، ج3، ص247.

[4]ابن خلدون، المصدر السّابق، ج6، ص250.

[5]حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص339.

أخيه الأمير "سير" ولي العهد ممّا جعل عوامل الغيرة تلتهب وقال لأباه: أن الأمر الذي أَهّلْتَنِي إليه لا يحسن لي مع تاشفين، فإنّه قد حمل الذّكر والثّناء دوني وغطّى على اسمي وآمال إليه جميع أهل المملكة، فليس لي معه اسم ولا ذكر، فأرضاه بأن عزله عن الأندلس، وأمره بالوصول إلى حضرته، فرحل عن الأندلس في أواسط سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ووصل مراكش وصار في جملة من يتصرّف بأمر أخيه "سير" ويقف ببابه كأحد اصحابه"[1].

ظلّ "سير" وليا لعهد أبيه إلى عام 533هـ، وقد اختلفت الرّوايات حول وفاته فيقول ابن القطان:" ولم يكن – أي سير– أهلا لشيء فعكف على البطلة ودخل مستورًا على أخيه عمر يريد زوجته، فجرح جراحة عجلت منيّته"[2].

وعلى ما يبدو أن هناك قد وقعت جريمة أخلاقية انتهت بوفاة "سير" في حياة أبيه... فثكله أبوه، واشتد جريمة عليه وكان عظيم الإيثار والإرضاء لأمّه "قمر" التي كانت قد تسبّبت في عزل تاشفين عن ولاية الأندلس وإهمال شأنه، فتدخلت من جديد لتقديم ولده إسحاق لولاية العهد، وكان إسحاق صغير السّن، تبنّته "قمر" وتولّت تربيّته، فشبّ محبًّا مخلصًا لها ولم يستجب على بن يوسف لطلبها قبل أن يستطلع رأي النّاس خاصتهم وعامتهم في ولي العهد[3].

جمع علي بن يوسف كبار رجال الدّولة من الفقهاء والقضاة وزعماء لمتونة وأفراد الأسرة المرابطية وعرض عليهم طالبا منهم المشورة، فأجمعوا على اختبار الأمير تاشفين لولاية عهد المرابطين، ووصلت البيعات من كل الجهات وذلك في رجب عام533هـ–1139م[4].

إنّ انشغال الدّولة بمحاربة الموحدين حال دون تحقيق رغبة "علي" في نقل ولاية العهد إلى ابنه "إسحاق"، ومنه نستنتج أنّ هناك عدم وجود نظام ثابت لولاية العهد في دولة

[1]ابن عذارى المراكشي، المصدر السّابق، ج4، ص97.

[2]المصدر نفسه، ص 67.

[3]المصدر نفسه،ص95.

[4]المصدر نفسه، والصّفحة نفسها.

المرابطين، وقد يترتّب عليه قيام النّزاع حول السّلطة ومثال ذلك الأمير "أبو بكر بن علي بن يوسف" الابن الأكبر لأمير المسلمين إذ أنّه ولد في 493هـ وكان يلقّب "ببكور أو بكو"[1].

وكان أوّل منصب تولّاه "أبو بكر" ولاية مدينة "إشبيلية" في ذي الحجّة (517هـ-1124م)[2]، ثمّ أسندت إليه قيادة الجيوش المرابطية في الأندلس إلى أن عزل عن ولاية "إشبيليّة" في رجب عام(522هـ-1128م)، بسبب عدم رضاه عن بيعة أخيه "سير" فأسرع أبوه بعزله وأمر بتكبيله وإرساله إلى الصّحراء[3].

ب/نائب أمير المسلمين:

كان من الصّعب على أمير المسلمين أن يترك وحده على تلك الدّولة المترامية الأطراف، ومن الطّبيعيّ أن يكون له نائب ينوب عنه في إدارةِ شؤونِ الأندلس وأكثر من نائب في إدارةِ شؤونِ المغرب، وكان يراعي في اختيار النّائب أن يكون أقرب النّاسِ إلى أمير المسلمين وأن تتوفر فيه حسن الإدارة والخبرة العسكريّة، وكان ممّن حضي بالولاية على الأندلس على عهد "علي بن يوسف" الأمير الطّاهر تميم[4]وأبو محمد بن فاطمة[5].

وكان لأمير المسلمين نائب عنه في المغرب مقرّه مدينة "فاس" التي تعتبر العاصمة الدّينيّة للمغرب، وهكذا حظيت باهتمام أمير المسلمين فكان يولي عليها أقرب المقرّبين إليه كأخيه "أبي الطّاهر بن تميم" الذي تولّى "فاس" بعد أن عزل عن الأندلس[6].

---

[1]ابن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الومان"، تحقيق محمد علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط1، دون مكان النشر، 1990، ص149.

[2]ابن عذارى، المصدر السابق، ج4، ص67.

[3]ابن القطان، المصدرالسابق، ص 149.

[4]ابن عذارى، المصدر السابق، ج 4، ص 48.

[5]المصدر نفسه، ص ص 63-64.

[6]المصدر نفسه، ص83.

ونظرا لأهميّة منصب نائب أمير المسلمين سواءً في المغرب والأندلس وخطورته، فكان أمير المسلمين يعمل على مراقبتهم ونقلهم حتّى لا يفكّروا في الاستقلال والانفصال[1].

ج/ولاية الأقاليم:

كان أمير المسلمين "علي بن يوسف" من اليقظة وحسن التّعرّف، بحيث أنّه كان يراقب سير الأمور في الولايات مخافةً أن يسند أمير من الأمراء بأمر ولايته أو يسيء معاملة رعيّته، فكان إذا ولى أحد الولّاة أرسل إليه رسالة يرسم له فيها السّياسة التي يجب أن يتّبعها، ومثال ذلك في رسالة مؤرّخة سنة 510هـ كتبها "أبو القاسم" أنجد عن أمير المسلمين إلى "أبي محمد بن فاطمة" واليه على "إشبيلية" جاء فيها" وقد رأينا والله ولي التّوفيق ...أن نجدّد عهدنا إلى عمالنا بالتزام أحكام الحقّ... واتّخذ الحقّ أمامك، وملك يده زمامك ... لا إله غيره ولا خير إلّا خيره"[2].

ويمكن أن نشير في هذا المقام إلى الرّسالة التي أرسلها "عليّ بن يوسف" إلى إشبيلية في جمادى الأولى سنة 512هـ، وهناك رسالة أخرى من إنشاء "ابن القصيرة" موجّهة من "علي بن يوسف" إلى أهل "بلنسية" يدعوهم فيها إلى الانصياع والطّاعة لواليه عليها "أبي محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة"*[3].

وإذا كانت سياسة أمير المسلمين تدعو إلى حسن معاملة الوالي لرعيّته، فإن سياسة الدّولة كانت تدعو أيضًا أن يعاقب الوالي أو يعزل إذا قصر أو أهمل شؤون الرّعية، ومثال ذلك في موقف أهل الجزائر الشّرقيّة من واليهم: "وأنور بن أبي بكر اللّمتوني" الذي تعسّف

---

[1] حسن أحمد محمود، ص351.

[2] ابن عذارى، المصدر السّابق، ج4، ص ص63-64.

[3] *أبي محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة: من أعظم قوّاد المرابطين، وأشهر رجالاتهم في الأندلس، اشترك في الحملة التي استنفذ المرابطون فيها بلنسيّة بعد وفاة السّيّد القنيطور.
ينظر: ابن القطان، المصدر السّابق، ص65.

على أهل الجزيرة وأراد أن يرغمهم على بناء مدينة جديدة بعيدة عن البحر، فامتنعوا عليه وثاروا ضدّه، فعزل من منصبه وولي عليهم "محمد بن علي بن غانية"[1].

د/نظام الوزارة:

تقول بعض المصادر العربيّة الأندلسيّة والمغربيّة أن الوزير كان يشغل مكانة سامية في دولة المرابطين، ويتمثّل ذلك بصدق في كتابات بعض الكتاب المعاصرين لهذه الدّولة ومن بينهم: "الطّرطوشي" صاحب كتاب "سراج الملوك"، و"ابن عبدون" صاحب كتاب "رسالة في القضاء والحسبة". فالطرطوشي يسجّل أهميّة الدّور الذي يقوم به الوزير بقوله: "وأشرف منازل الآدميين النّبوّة ثمّ الخلافة ثمّ الوزارة، والوزير عون على الأمور وشريك في التّدبير وظهر على السياسة ومفزع عند النّازلة وفي الأمثال نعم الظّهير الوزير"، ويرجع معنى الوزارة: من الوزارة والمعاونة، وهي المنصب الثّانيّ بعد منصب الخليفة لأنّ الوزير يشارك الخليفة في إدارة شؤون البلاد"[2].

أمّا ابن عبدون فيعبّر عن ذلك بقوله: "الوزير واسطة بين القاضي والسّلطان فاتّفاق القاضي والوزير يكون صلاح الدّولة وصلاح العالمين"[3]. ولما كان أهم مبادئ دولة المرابطين التي قام عليها الجهاد، فقد كانت تعتمد في نظمها الإداريّة على المقومات العسكريّة، ولهذا كان من الطّبيعيّ أن تغلب على صفة الوزير السّمة العسكريّة ومن العادة أيضا عند المرابطين أن يكون الوزير ملمًا بالآداب وفنونِ كتابة الرسائل والوثائق على النحو الذي عرف في عصر الطوائف في الأندلس، ولهذا أيضًا وجد عند المرابطين وزراء يجيدون الكتابة الدّيوانيّة كما يجيدون الدّراسات الفقهيّة، ومن أشهر الوزراء: "علي بن يوسف"، "الفقيه الكاتب مالك بن وهيب الإشبيلي" كان من أشهرِ الوزراء والكُتّاب والفقهاء وهو إشبيليّ الأصل كان موسوعة في الفقه والعلوم الدّينيّة والاجتماعيّة والآداب له كتاب

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص212.

[2] يحي نبهان، معجم مصطلحات التّاريخ، دار يافا العلميّة، ط1، عمّان، 2008، ص291.

[3] ابن عبدون: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح: ليفي برفنسال، مطبعة العهد العالمي الفرنسي للآثار الشّرقيّة، القاهرة، 1955، ص14.

سمّاه" "قراضة الذّهب في ذكر لئام العرب في الجاهليّة والإسلام" وكتاب: "الثمرة لبطليموس في الأحكام" وكتاب: "المجسطي في علم الهيئة"[1].

وقد ذاع صيت "مالك بن وهيب" بموقف من المواقف المشهورة أثناء المناظرة العلميّة الفقهيّة التي تمّت بين فقهاء المرابطين والمهدي بن تومرت في حضرت أمير المسلمين "علي بن يوسف"، ومن دون بقيّة الفقهاء أن يقدّر براعة هذا الرّجل ويدرك مدى الخطر الذي يمكن أن تتعرّض له الدّولة على يديه، فأشار على أمير المسلمين بقتله وقال له:" هذا رجل مفسد لا تؤمن عائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شرّ كبير"[2]. إلّا أنّ أمير المسلمين رفض قتله ولكن أمره بالخروج من البلد وليتوجّه حيث يشاء[3].

دولة لابن تاشفين علي ظهرت بالكمال من كلّ عيب

غير أنّ الشّيطان دسّ إليها من خباياه مالك بن وهيب[4]

ينان بن عمر: كان من أشهر الوزراء العسكريين، فقد كان قائدا لفرقة الحشم[5] وكان لينتان موقفا تاريخيًّا خلال المناظرة التي حدثت بين فقهاء المرابطين وابن تومرت، فقد أشار البيدق إلى ما قام به "ينتان" في هذا اليوم من إنقاذ "ابن تومرت" من السّجن وأنّه اقنع أمير المسلمين بتركه يرحل عن مراكش بدلًا من سجنه[6] ولقد حفظ الموحدون لينتان هذا الموقف النّبيل، ففي أحد المعارك وقعت ابنة لينتان تسمّى:" تاما كونت" في قبضة

[1]المراكشي، المعجب، تح: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، ط1، 1949، ص185.

[2]عبد الواحد المراكشي، المعجب، المصدر السّابق، ص185.

[3]المصدر نفسه، ص186.

[4]ابن القطان، المصدر السّابق، ص225.

[5]المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[6]أبي بكر بن علي الصّنهاجي–المكنّى "البيدق"–، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار منصور للطّباعة والوراقة، الرّباط، 1971، ص28.

الموحدين، فطلبت مقابلة "عبد المؤمن بن علي" وأخبرته بما فعله والدها من أجل "ابن تومرت"، فأطلق سراحها هي ومن كنّ معها من النّساء، وكان عددهنّ أربعمائة[1].

بالإضافة إلى إسحاق بن ينتان[2] وأبو محمد بن مالك[3].

هـ/ديوان الرّسائل والمكتبات:

يعتبر هذا الجهاز الإداري همزة وصل بين أمير المسلمين وعماله وولاته على مختلف أقاليم ومدن المغرب والأندلس من جهة وبينه وبين مختلف القوى المحيطة بدولته من ناحية أخرى، وعلى ممّا يبدو أن ديوان الرّسائل والإمكانيات على عصر "علي بن يوسف" كان يزخر بطبقة من كبار كتّاب الأندلس وأدباءه، وربّما كانت هناك أسباب لهذه الظّاهرة منها: أنّ أم "علي بن يوسف" كانت أندلسيّة كان لها أثر كبير في إزالة فجوة البداوة من طبيعته ثمّ أنّه ولد ببيئة تعجّ بالمؤدّيين الأندلسيين ثمّ أنّ نقطة الارتكاز في السياسة الخارجيّة لدولة المرابطين وبصفة خاصّة في عصر "علي بن يوسف" كانت الأندلس ثمّ سقوط ملوك الطّوائف أدّت إلى تفرق أدباء الأندلس وهجرتهم نحو المغرب ودخلوا في خدمة أمراء المرابطين، وبدأ هؤلاء يغدقون عليهم بعطاياهم وبدأ استخدام كتب الأندلس وفقهائه في خدمة دولة المرابطين على عهد أمير المسلمين "يوسف بن تاشفين" وأوّلهم "عبد الرحمن بن أسباط" التحق بخدمة البلاط المرابطين في سنة 472هـ[4]، وكذلك:

ابن القصيرة: وصفه "ابن خاقان" في القلائد بقوله:" عزة في جبين الملك، ودرة لا تصلح إلّا لذلك السّلك، باهت به الأيّام وتاهت في يمينه الأقلام، واشتملت عليه الدّول اشتمال الكمام على الفور اشربت إليه أماني إشراب الماء إلى الغور"[5].

---

[1] المصدر نفسه، ص49.

[2] الحلل الموشية، المصدر السابق، ص61.

[3] ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ج1وج2، ط1، الأردن، 1409هـ-1989م، ص500.

[4] الحلل الموشية، المصدر السابق، ص32.

[5] ابن خاقان، المصدر السّابق، ص500.

ونذكر أيضا "بنو القيطرنة" وهم "أبو بكر" و"أبو محمد" و"أبو الحسن بنو القيطرنة[1] و"ابن عبدون" الذي عاش في البلاط المرابطي حتّى آخر حياته حيث توفي في عام (520هـ-1126م)[2]. وكان من كبار شعراء الأندلس وإليه تنسب مرتبتيه لبني الأفطس المسمّاة "بالعبدونيّة"، وهي القصيدة التي بدأها بقوله:

الدّهر يفجع بعد العين بالأثر *** فما البكاء على الأشباح والصّور؟[3]**

كما أنّ "لابن عبدون" رسالة التي كتبها عن الأمير "سير بن أبي بكر اللمتوني" إلى أمير المسلمين "علي بن يوسف" يبشره فيها بفتح مدينة "شنترين" الحصينة[4].

-**ابن أبي الخصال:**هو "أبو عبد الله محمد مسعود الغافقي الشقوري المعروف بابن الخصال الغافقي، برز الفقيه وبرع في الكتابة والشّعر يصفه صاحب الإحاطة بأنّه: الشّيخ الأجل ذو الوزارتين، السيّد الكامل، الشهير الأثير، الأديب اللغوي... معجزة زمانه في صناعة النثر والنّظم"[5].

وحدث أن عهد "علي بن يوسف" إلى كاتبه "عبد الله بن الخصال" بكتابة رسالة توبيخ إلى جند بلنسية فاستغلّها فرصة لإظهار مكنون هذه على المرابطين ممّا تسبّب في غضب الأمير منه، وكان من فصول تلك الرّسالة قوله:" أي بني اللّئيمة، وأعيان العزيمة... وألا تكونوا على وجه نقابا، وأن نعيدكم إلى صحرائكم ونطهر الجزيرة من رخصائكم"[6].

- **ابن الجد من أعيان مدينة لبلة وإشبيلية**[7]:التحق في بداية أمره بخدمة دولة "ابن عباد"[1] ولما ذهبت دولتهم تولّى خطّة الشّورى ببلده لبلة[2] ثمّ استدعاه "علي بن يوسف"

---

[1]ابن الخطيب، المصدر السّابق، ج1، ص520.

[2]بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، مكتبة الثقافة الدّينية، القاهرة، ص118.

[3]ابن خاقان، المصدر السابق، ص123.

[4]المصدر نفسه، ص 164.

[5]ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص416.

[6]المراكشي، المعجب، المصدر السابق، ص176.

[7]ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ج1، ط2، مصر، 1964، ص341.

ليتولّى الكتابة في ديوان رسائله واستمرّ يؤدي دوره في بلاط أمير المسلمين إلى أن توفي في 586هـ[3]، وقد نقل "ابن خاقان" عدد من الرسائل التي كتبها "ابن الجد" عن أمير المسلمين "علي بن يوسف" وكلّها تركّز على تاريخ الأندلس في عصر المرابطين.

و/النّظام القضائي عند المرابطين:

إنّ مبدأ العدالة يعتبر من الأسس الهامّة التي دعا إليها الإسلام، وبذلك ظهرت أهميّة القضاء كجهاز إداريّ مهمّ في الدّول يقول ابن خلدون:" واستقرّ منصب القضاء آخر الأمر على أنّه يجمع مع الفصل بين الخصوم...". وكان القضاة يشرفون على خطّة الشّورى والفتيا [4]ويشرفون أيضًا على بيت المال واختيار القائمين عليه وأوجه انفاقه. وكان تعيين القضاة يصدر بمرسوم عن أمير المسلمين، ومثال ذلك المرسوم الذي أصدره "علي بن يوسف" في سنة (524هـ-1130م) بتولّيه القاضي "موسى بن حماد" قضاء مدينة "غرناطة" وقد جاء فيه: "... انهض نهوض مستقل بما حملناك، وتلقى ذلك بانشراح من صدرك، ... وقم في الخطبة مقام مثلك ممّن استحكمت سنه ورجح عليه..."، وهناك رسالة أخرى موجهة من "علي بن يوسف" إلى الوحيدي "أبو محمد عبد الله القيسي المالقي" تتضمّن واجبات القضاء[5].

وكان تولّية القاضي في منصبه تتمّ بناءً من ترشيح أهل البلاد وكان عزله تتمّ بمرسوم من أمير المسلمين ويرسل إلى أهل المدينة التي عزل قاضيها المعرفة أسباب عزله ومثال

---

[1]ابن دحية، المطرب، تح: إبراهيم الابياري- حامد عبد المجيد، الطبعة الأميرية، 1954، القاهرة، ص189.

[2]*لبلة: مدينة حسنة متوسطة القدر لها سور منيع، ونهرها يأتيها من ناحية الجبل ويجار عليه في قنطرة "لبلة" وبها أسواق وتجارات وبينها وبين البحر المحيط ستة أميال.

ينظر: الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1 وط2، بيروت، 1975-1984، ص558.

[3]ابن دحيّة، المصدر السابق، ص190.

[4]حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص ص 368-369.

[5]النباهي، تاريخ قضاة الأندلس -كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر ليفي بروفنسال، دار الكتاب المصري، 1948، ص

ذلك ما قاله "ابن عذارى" في سطور من المرسوم الذي أرسله "علي بن يوسف" إلى أهل مدينة "فاس" سنة (528هـ-1133م)، يبيّن فيها الأسباب التي أدّت إلى عزل قاضيهم "ابن ملجوم" وجاء فيه:" أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه وسيركم لما يرضاه وقد أنهى إلينا أنّ الجهول ابن الملجوم، أجهل بأحكام القضاء من العلجوم، ... وجعلنا شهب العزلة لشياطينه كالرجوم"[1].

وللمحافظة على استقلال القضاء كانوا يتقاضون رواتبهم من بيت المال[2] وكان للقضاة أيضًا حجابًا يحفظون هيئة المجلس القضائي ووقاره[3].

ومن أهمّ خطط القضاء الشّرعي للدّولة المرابطيّة نذكر قضاء الجماعة وهو من أرفع المناصب القضائيّة في الأندلس، حيث كان صاحبه بترف على القضاء في جميع أنحاء الأندلس، ومن بين القضاة الّذين شغلوا هذا المنصب نذكر: **"أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي"** و**" القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد ابن رشد المالكي"** و**" ابن الحاج المعروف بالتّجيبي"**[4].

وأمّا رئاسة القضاء في المغرب فكانت تسند إلى قاضي الجماعة بمراكش والذي كان يسمّى بـ"قاضي قضاة المغرب"[5] أو بـ"قاضي الحضرة"[6]، ويقول "حسن محمود" أنّ هذا القاضي كان أقرب الفقهاء إلى قلب أمير المسلمين يستفتيه في كل ما يعرض له من قضايا[7].

---

[1]ابن عذارى، المصدر السّابق، ج4، ص92.

[2]النباهي، المصدر السّابق، ص104.

[3]حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص370.

[4]حسن أحمد محمود،المرجع نفسه، ص 368.

[5]ابن دحيّة، المصدر السّابق، ص91.

[6]حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص368.

[7]المرجع نفسه، والصّفحة عينها.

وقد قطع المرابطون أشواطًا في تنظيم القضاء من مجرد تقسيم قضاء الأندلس والمغرب، وجعل زعامة القضاء في كلّ منهما لقاضي القضاء، أحدهما يختصّ بالأندلس والآخر يختصّ بالمغرب، بل أنّ المرابطين اتّخذوا فقيهًا له السّلطة العليا على قضاء المغرب والأندلس على السّواء[1]. وكان هذا المنصب من نصيب قاضي "مراكش" أو قاضي أو "طنجة" وأحيانا أخرى لقاضي جماعة "قرطبة"[2].

– كان النّظر في المظالم في عصر "علي بن يوسف" من اختصاصات ولي العهد، ونجد ذلك فيما أورده لنا "ابن عذارى" في نصّ يشير إلى تولية الأمير "سير بن علي بن يوسف" ولي عهد الدّولة خطّة النّظر في المظالم نصله ما يلي:" واستغل بالأمر ونظر في سائر ما تدعوه الضّرورة من أمور الجيوش والأحكام والولايات والعزل ورد المظالم"[3].

وعلى ما يبدو أنّ هذه الخطّة قد أضيفت إلى اختصاصات الوزير وذلك في آخر عصر "علي بن يوسف"، عندما ازدادت مشاكل الدّولة في الدّاخل بسبب الصّراع مع الموحدين وفي الخارج بسبب الحروب مع نصارى الأندلس، ويذكر "ابن عذارى" أيضًا في قوله:" واستوزر عليّ بن يوسف في آخر أيّامه إسحاق بن نيتان بن عمر بن نيتان ... وكان يتوقد ذكاء وعقلا وفهما فأعجب به إعجابًا كثيرًا وجعل إليه النّظر في المظالم والشّكايا، فاتّبع النّاس في أمورهم وكافّة شؤونهم"[4]. وهناك منصب جديد ظهر عند المرابطين أطلق عليه خطّة صاحب الأحكام كان يتولّاه فقيه من النّاشئين في سلك القضاء "وبتفويض" من قاضي القضاة يصدر أحكاما باسمه وهو ما يصطلح عليه حديثًا بقضاء الدّرجة الثّانية، كما وجد في عصر المرابطين قضاء درجة ثالثة يتولّاه فقيهًا يعرف بالمسدّد لا يتجاوز دائرة اختصاصه القرية الصّغيرة[5] وهناك جهاز إداريّ قضائي عسكري

[1]حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص368.

[2]المرجع نفسه، والصّفحة عينها.

[3]ابن عذارى، المصدر السّابق، ج4، ص78.

[4]ابن عذارى، المصدر السابق، ج4 ص ص101–102.

[5]حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص369.

كان يمارسه قضاة مختصون بحلّ مشكل الجند وكان هؤلاء يشتركون في القتال وتشجيعهم للقتال وكانوا يسمّون بقضاة المحلة أو قضاة الجند، وذكر صاحب المعجم إلى أحد القضاة الذين شغلوا منصب القضاة العسكريّ وهو "عبد الرّحيم بن إسماعيل" الذي عيّن في عسكر أمير المسلمين "علي بن يوسف" بمدينة "سلا"[1]، وأمّا بالنّسبة لقضاء الذميين في الأندلس فقد كان رجال الدّين من النّصارى واليهود يتولون القضاء لهم دون أن يتدخل فيهم المسلمين ماعدا في بعض القضايا المشتركة بين الذميين والمسلمين فإن قضاة المسلمين يتولون الفصل بينهما.

أمّا عندما تتكلّم عن التّنظيم الإداريّ للجيش المرابطي، ونظرا للأساس الذي قامت عليه الدّولة المرابطية وهو الأساس الدّينيّ الذي يعتمد على روح الجهاد، وظهرت جلية في معارك المغرب الأقصى التي خاضوها وتجلّت أيضًا في معركة الجهاد في الأندلس، وكان أمير المسلمين هو الذي يتولّى القيادة العليا للجيش المرابطي، أمّا الجيش المختلفة فكان يتولّى قيادتها قوّاد من الأسرة الحاكمة كي يضمن أمير المسلمين ولائهم وإخلاصهم له[2] وكان لكلّ من الأندلس والمغرب قيادة عليا موحدة وسارت الدّولة على سياسة أحداث التّنقلات بين قادة الفرق العسكريّة وهي نفس السّياسة التي ألفها_الدولة في شغل مناصب الولاية حتّى لا يكون ذلك فرصة للانفراد بالولاية والخروج عن طاعة أمير المسلمين[3].
وكان الجيش المرابطي يتشكل من العناصر التّاليّة:

أ/الملثمون أو المرابطون: وكانوا هم الخليّة الأساسيّة التي تكوّن منها الجيش المرابطي وقد قامت الدّولة على أكتافهم لشجاعتهم.

ب/العرب: وكانوا من الفرق الهامّة في الجيش المرابطي، وتسمّى بعض العناصر من هذه الفرقة إلى عرب الأندلس الذين استقروا في المغرب في عصر الأدارسة، وبعض آخر إلى

[1]علي محمد صلّابي، المرجع السّابق، ص184.
[2]حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص384.
[3]حسن أحمد محمود،المرجع السابق، ص 384.

"بني هلال"، وقد شارك هؤلاء العرب في معركة كقسو يجره، يقول المؤرّخ "الكردبوس" في هذا الصّدد:" فجرد أيّ – يوسف بن تاشفين– عسكرًا جرارًا من مرابطين وعرب وأندلس الشّرق والغرب، وقدّم عليهم قائده – محمد بن الحاج–، فالتقوه بكثره، فكانت بينهم جولات وحملات إلى أن زلزل الله أقدام المشركين وولوا مدبرين..."[1]،كما شاركوا في معركة "أقليش" يقول ابن القطان:" واستشهد في هذه الوقيعة أي إقليش – الإمام الجزولي–، وكان رجل صدق وجماعة من الأعيان والعربان"[2].

ج/ الحرس الخاص: تتكوّن قوى الحرص الخّاص وتتألف من أشجع الجند ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذي القوام الحسن والشّجاعة الفائقة والقوّة ففي عصر "يوسف بن تاشفين" كانت هذه الفرقة متألّفة من السّود الأفارقة الّذين درّبهم "الأمير" على فنون القتال وشكّل منهم حرسًا خاصًّا له ولم يلبث هذا الأخير إلى أن أصبح ركنًا أساسيًّا من أركان الجيش المرابطي وقد كان هناك تطوّر في فنون القتال يقوم على أساس نظام خماسي أيّ المقدّمة والمؤخرة والميسرة والميمنة والقلب وكان لكلّ قسم من هذه الأقسام قائده الخاصّ به[3].

وأمّا عن رّواتب الجيش المرابطيّ فكان يتكوّن من قسمين الأوّل يشمل الجند غير النّظاميين فلم تكن له رواتب ثابتة بل كان لكلّ جنديّ أرضه الزّراعيّة التي يتولّى زراعتها وكان يستدعى وقت الحرب للمشاركة في القتال ثمَّ يعود مرّة أخرى إلى أرضه يقول "الطّرطّوشي " في هذا الصّدد:" ومازال أهل الإسلام ظاهرين على عدوّهم ... لما كانت الأرض مقطّعة في أيدي الجند... ولم يزل أمر المسلمين في نقص وأمر العدّو في ظهور إلى أن دخلها الملثّمون، فردّوا الاقطاعات كما كانت في الزّمان القديم"[4].

---

[1]علي محمد صلابي، المرجع السّابق، ص196.

[2]ابن القطان، المصدر السّابق، ص66.

[3]محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثّالث عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1990، ص 418–419.

[4]الطّرطوشي، " سراج الملوك"، المطبوعات العربية، 1872، بدون مكان، ص123.

وهذا ما يؤكد أنّ الدّولة المرابطيّة اتّبعت نظام الإقطاع العسكريّ، أمّا بالنّسبة للجند النّظاميين كانوا في الغالب من النّصارى الذين زاد عددهم في عهد "علي بن يوسف" ولزيادة عددهم بات من الضّروريّ إنشاء ديوان للجند يهتم بشؤونهم، ومن أبرز مظاهر تطوّر الجيش المرابطي: إنشاء البحريّة المرابطية ويرجع الفضل في ذلك إلى "يوسف بن تاشفين" خاصّة بعد فتوحات المغرب الأقصى وازداد اهتمام الأمير بهذا الأسطول عندما أراد فتح الأندلس، وقد كان في أشدّ الحاجة لهذه القوّة البحريّة[1].

ومن أشهر قادة الأسطول المرابطي "أبو عبد الله بن ميمون" وقد تولّت أسرة "بني ميمون" قيادة الأساطيل المرابطية ثمّ انتقلوا إلى قيادة الأساطيل الموحديّة بعد سقوط دولة المرابطين، وعندما اضطربت الأوضاع السّياسيّة في أواخر عهد المرابطين طلب أهل "ألمرية" تقديم القائد "أبا عبد الله بن ميمون" بأن يكون واليا عليهم غير أنّه اعتذر بقوله: "إنّما أنا رجل منكم ووظيفتي البحر وبه عرفت، فكلّ عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به، فقدموا على أنفسهم من شئتم غيري"[2].

اتّبعت الدّولة المرابطيّة في البداية نظرا لمنشأتها الدّينيّة وتأثرها بتعاليم الفقيه "عبد الله بن ياسين" اتّبعت حكم الشّريعة الإسلاميّة في جباية الضّرائب، فكان أمير المسلمين "يوسف بن تاشفين" يلزم بتحصيل أموال الزّكاة والأعشار وأخماس الغنائم وجزيّة أهل الذّمة يقول صاحب روض الفرطاس:" ولم يجد في بلد من بلاده أيّ– يوسف بن تاشفين– ولا عمل من أعماله على طوال أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج في حافرة ولا بادية إلّا ما أمر الله تعالى به، وأوجبه حكم الكتاب والسّنة من الزّكاة والعشر وجزيات أهل الذّمة وأخماس غنائم المشركين"[3].

[1]أحمد حسين أحمد، المرجع السّابق، ص392.

[2]المراكشي، المعجب، المصدر السّابق، ص 210.

[3]ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ص137.

وباتّساع رقعة الدّولة المرابطيّة وتضاعف عدد جيوشها وخاصّة عندما فتحت الأندلس واتّساع عمليّة الجهاد، ولم تعد الموارد الشّرعيّة كافية لمواجهة المسؤوليّات الجديدة، فاضطرّ "يوسف بن تاشفين" إلى فرض ضرائب جديدة على أهل المغرب والأندلس عرفت "بالمعونة" وعندما تولّى "عليّ بن يوسف" لجأ إلى فرض "القبالات" على مختلف السّلع والصّناعات، وفي هذا يقول الإدريسي:" فكانت أكثر السّلع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل: سوق الدخان والصّابون والمغازل، فكانت القبالة على كلّ شيء يباع دقّ أو جلّ، كلّ شيء على قدره"[1]. كما لجأ "علي بن يوسف" إلى فرض ضريبة جديدة على مدن الأندلس الهامّة تعرف بـ"التعتيب" أو"التّعطيب" كان يخصّص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم الأسوار القديمة، وكان فرض هذه الضّريبة في أواخر غزوة "الفونسو المحارب" بالأندلس سنة (519هـ-1125م)[2]. كما اهتمّ الأمير "عليّ بن يوسف" بأعمال الجباية وكلّف النّصارى بجمعها[3].أمّا الأملاك السلطانيّة وهي الأملاك الخاصّة بأمير المسلمين فكان يعهد بتحصيلها إلى شخص يسمّى "بالمستخلص" وكان يشدّد في مراقبته، وكانوا يحاسبون ورثة المستخلص إذا مات، هذا الخوف دفع " مؤمل" مستخلص أمير المسلمين عندما حضرته الوفاة أن أتى ما كان عنده من مال وأشهد الحاضرين على دفعه إلى من استوثقه على حمله، ثمّ أبرأ جميع عماله وكتابه وأرسل رجلا من رجاله إلى أمير المسلمين يحمل كلّ ما يملكه "مؤمل" من مال خاص به ليخبر أمير المسلمين أنّ ذاك المال هو كلّ ما اكتسبه نظير خدمته في الدّولة، طالبا منه أن يقبل هذا المال تبرّعًا منه لبيت مال المسلمين وذلك خوفا أن يصيب ورثته مكروه إذا مات[4].

أمّا العملات فقد كانت الدّولة المرابطية عملتها الدّينار الذّهبيّ، كما استخدم المرابطون العملة الفضيّة المعروفة بالدّرهم الفضيّ، ولتسهيل المعاملات التّجاريّة ضربوا عملات

---

[1]الإدريسي، المغرب وأرض السّودان، المصدر السّباق، ص70.

[2]ابن عذارى، المصدر السابق، ج4، ص ص 83-84.

[3]ابن الخطيب، المصدر السّابق، ج3، ص524.

[4]ابن بلكين، كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدّينيّة، ط1، القاهرة، 2006، ص248.

بجانب الدّينار والدّرهم من فئة النّصف درهم وثمنه وكانت هذه العملة تسمّى" خروبة" (بالإسبانيّة Algorroba)[1].

[1]المراكشي، المعجب، المصدر السابق، ص207.

المطلب الثّانيّ: مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في الميدان الاقتصادي

أ/التّجارة:

لقد كان قطاع التّجارة نصيب وافر في عصر المرابطين وهذا راجع لامتداد رقعة الدّولة في أراضي السودان والمغرب والأندلس أدّى ذلك إلى فتح منافذ عديدة لتسويق المنتجات الزّراعيّة والصّناعيّة ثمّ عامل الاستقرار السّياسيّ في عصر " يوسف بن تاشفين" والنّصف الأوّل من عصر "علي بن يوسف" كان من أهمّ العوامل في تأمين الطّرق والمسالك التّجاريّة بين حواضر الدّولة وكذلك عامل الأسطول البحري وتشكيله في عصر "علي بن يوسف" فتح المجال لازدهار التّجارة الخارجيّة المرابطيّة وتأمين الطّرق التّجاريّة البحريّة التي كانت تتعرّض للقرصنة[1].

لا شكّ عندما نتكلّم عن التّجارة لا بدّ أن نتطرّق إلى أهمّ المراكز التّجاريّة الّتي تلعب دورًا هامًّا في تنشيط الحركة التّجاريّة، والتّي كان أهمّها في عصر المرابطين: مدينة "ألمريّة" يقول الإدريسي عنها:" مدينة الإسلام"[2] إذ كانت ميناءًا تجاريًّا هامًّا كان همزة وصل بين العدوة المغربيّة ومنتجات الأندلس، لاحظ "ابن غالب الأندلسي" أهميّة موقع "ألمريّة" فقال عنها:" فهي باب الشّرق ومفتاح التّجارة والرّزق"[3]والمدينة في حدّ ذاتها كثيرة التّجارات والمسافرين وكان أهلها مياسير حالًا وأحوالًا[4]. ويذكر الإدريسي أنّه كان بها 970فندقا[5] ، ونذكر "إشبيليّة" التي كانت من أكبر المراكز التّجاريّة للزّيت[6]، و"مالقة" في تجارة الفخّار وبخاصّة الذّهب[7].

---

[1]حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص401.

[2]الإدريسي، المغرب وأرض السودان،المصدر السّابق، ص197.

[3]ابن غالب الأندلسي: "قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة"، مجلّة معهد المخطوطات العربية لطفي عبد البديع، مجلد1، ج1، 1955، ص283.

[4]الإدريسي، المصدر السّابق، ص ص197-198.

[5]المصدر نفسه، ص 198.

[6]المصدر نفسه، ص 178.

[7]المقري، نفح الطّيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، ج1، 1988، بيروت، ص152.

***مدينة أغمات:** تعدّ من أهمّ المراكز التّجاريّة الدّاخليّة في المغرب، حيث كان تجارها يعدون القوافل التّجاريّة المتّجهة نحو السّودان التي تحمل "القناطر من الأموال من النّحاس الأحمر الملوّن والأكسية وثياب الصّوف والعمائم والمآزر وأصناف من الزّجاج والأصداف والأحجار وأنواع من العطر وآلات الحديد المصنوع"[1]، وقد كان التّجار يملك الواحد منهم ما بين سبعين ومئة جمل، وفي هذا الصّدد يقول الإدريسي:" ولم يكن في دولة الملثّم أحد أكثر منهم أموالًا ولا أوسع منهم أحوالًا، وبأبواب منازلهم علامات تدلّ على مقادير أموالهم وذلك أن الرّجل منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها في تجارته أقام على يمين بابه وعن يساره عرضتين من الأرض إلى أعلى وبنيانهم بالآجر والطّوب والطّين أكثر، فإذا مر الخاطر بدار ونظر إليّ تلك العون مع الأبواب قائمة عدّها فيعلم من عددها كم مبلغ صاحب الدّار"[2].

***سجلماسة:** كانت هذه المدينة من أهم المراكز التّجاريّة في عصر المرابطين والعامل الذي جعل لها هذه المكانة تحول طريق التّجارة الذي كان يربط بين "غانا" و"مصر" والذي أهمل بسبب العواصف الرّمليّة إلى "سجلماسة"، والتي كانت مقصد تجار من "البصرة" و"الكوفة" و"بغداد"، وكانت تجارتها تحمل إلى الشرّق عن طريق موانئ المغرب أو عن طريق البر المؤدي إلى إفريقيّة[3]، ومن العوامل المساعدة على احتلال "سلجماسة" هذه المكانة التّجاريّة الهامّة أنّها كانت نهاية طريق غالبيّة القوافل التّجاريّة التي تذهب إلى بلاد السنغال[4] بالإضافة إلى مدينة "أودغست" والتي كانت من أكبر الأسواق التّجاريّة وقد نافست مدينة "سجلماسة" وقصدها الكثير من التّجار الأثرياء[5].

وهناك مدينة **"تارودنت":** التي كانت من أهم المحطات التّجاريّة أيضًا والتي تقع على الطريق التّجاريّ السّاحليّ الذي يبدأ من "تارودنت" إلى مدينة "نول لمطة" ومنها إلى جزيرة

---

[1]الإدريسي، المرجع السّابق، ص66.

[2]المصدر نفسه، ص ص66-67.

[3]المصدر نفسه، والصفحة 67.

[4]أرشيبالدر لوسين، القوى البحريّة والتّجاريّة في حوض البحر المتوسّط (500هـ-1100م)، تر:أحمد محمد عيسى، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، 1951، ص387.

[5]المرجع نفسه، والصّفحة 386.

"أوديل" الواقعة على المحيط الأطلسي، وكانت "تارودنت" تستقبل القوافل التّجاريّة الآتية من الجنوب، وكانت مركزا مهمًا لتزويد القوافل التّجاريّة المتّجهة نحو السّودان الغربي بكلّ ما كانت تحتاج إليه[1]ولا يمكن أن ننسى مدينة "نول لمطة" وهي إحدى المحطّات التّجاريّة التي تقع على الطّريق التّجاريّ الممتد من "تارودنت هار" بنول لمطة إلى جزيرة "أوديل" على المحيط الأطلسي[2] ومما زاد المدينة أهميّة في عصر المرابطين أنّها أصبحت دارًا لصك العملة بسبب الذّهب الذي كانت تجلبه القوافل من بلاد السودان[3].

ولقد شهد عصر المرابطين نشاط الحركة التّجاريّة بين دولة المرابطين ومدن الغرب الأوروبي، وقد استمرّت هذه الحركة مزدهرة رغم غارات الإيطاليين على سواحل المغرب الإسلاميّ، وظلّت العملة التي كانت تسلك أنداك في "قطلونية" و"مونبيليه" باسم الدّينار المنقوش دليلا على قيام تجارة نشطة بين بلدان الغرب الأوروبي وبين مسلميّ الأندلس والمغرب وقد سيطر تجّار "جنوة وبيزة" على قدر كبير من تلك التّجارة خلال العصر المرابطيّ[4].

ب/الصّناعة:

ازدهرت الصّناعة في عصر المرابطين ازدهارًا عظيمًا، فقد توفّرت المواد الخام التي تحتاجها الصّناعة، وتدفقت من أسواق الأندلس والسّودان كما أنّ النّشاط التّجاريّ الضّخم بين موانئ المغرب والأندلس قد ساعد بدوره على رواج الصّناعة التي أصبح من الميسور تسويقها وتصديرها إلى أسواق الاستهلاك المختلفة، فأقبل الصناع على مضاعفة الإنتاج وظهرت في المغرب والأندلس مراكز صناعيّة ضخمة زاد تطوّرها خاصّة في عصر المرابطين، ومن أهم المراكز الصّناعيّة في الأندلس:

❖ **ألمريّة:** تمكنت هذه المدينة خلال العصر المرابطي باحتلال المركز الأول في صناعة المنسوجات الحريريّة في الأندلس وخاصّة في مدينة "قرطبة" حيث احتلّت

[1]الإدريسي، المصدر السابق، ص62.

[2]مؤلّف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص212.

[3]حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص400.

[4]أرشيبالدر لويس، المرجع السّابق، ص386.

الصّدارة في هذا المجال بالإضافة إلى صناعة الدّيباج والموشي إلى أن حلّت محلّها "ألمريّة"، وكانت "قرطبة" تعتمد في صناعة المنسوجات الحريريّة على مدينة "جيان"، التي كانت تتوفّر في قُراها كلّ مقوّمات هذه الصّناعة وفي هذا الصّدد يقول الإدريسي:" ولها –أي جيان– زائد على ثلاثة آلاف قريّة كلّها يربيّ دود الحرير"[1]، وكانت تربية دودة القزّ قد أدخلت الأندلس في القرن الرابع الهجريّ على يد أسرة من الشّام ثمّ ازدهر استخراج الحرير في الأندلس وأصبح يصدّر منها إلى سائر البلاد في أوربا وفي العالم الإسلاميّ، ولكن مع أوائل القرن الخامس الهجريّ أخذت مدينة "ألمريّة" تتبوّأ شيئًا فشيئًا المركز الرّئيسي لصناعات الحرير بعد "قرطبة" و "بجاية" ويعبر "ياقوت الحموي" عن ذلك بقوله:" يعمل بها –أي قرطبة– الموشي والدّيباج ..... فلم يثقف في الأندلس من يجيد عمل الدّيباج أجادة أهل ألمرية"[2]. كما أنّ الإدريسيّ يشير إلى مقدار ما وصلته هذه الصّناعات في عصر المرابطين وعن مدى شهرة "ألمريّة" في هذه الصّناعات وأنواع منسوجات فيقول: "ومدينة ألمريّة كانت في أيّام الملثم مدينة الإسلام وكان بها من طرز الحرير ثمانمائة طرازًا ... وصفوف الحرير الأخرى"[3]. كما اشتهرت "ألمريّة" بصناعة السّفن نظرا لتوفر المواد الأوليّة الخام اللازمة لقيام هذه الصّناعة في أرض "ألمريّة" وفي مناطق أخرى من الأندلس.فلقد كانت أخشاب الصنوبر اللازمة لصناعة الصواري تجلب من جبال "طرطوشة"[4]. أو من قصر أبي دانس[5] أو من شلطيش[6] وكان معدنيّ الحديد والنّحاس يتوفران في كثير من مدن الأندلس؛ فالحديد يكثر في طليطلة[7] وغرناطة[1].

---

[1]الإدريسي، المرجع السّابق، ص203.

[2]ياقوت الحموي، المصدر السّابق، ج5، ص119.

[3]الإدريسي، المصدر السّابق، ص197.

[4]الحميري، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: لاقي بروقنصال، دار الجيل، ط2، 1988، بيروت، ص124.

[5]المصدر نفسه، ص 161.

[6]المصدر نفسه، ص 111.

[7]الإدريسي، المصدر السابق، ص 188.

❖ **قرطبـة:** احتلّت هذه المدينـة مكانـة مرموقـة فـي الكثيـر مـن الصّـناعات خاصّـة صناعة دّباغة الجلود حتّى نسب إليها الجلد القرطبيّ الذي حمله التّجار إلى أوروبا كسلعة غالية نادرة، وقد عرف هنا باسم "Cordoran" نسبة إلى مدينة "قرطبة"، واستطاع الجلد القرطبي أن تكون له شهرة واسعة في تجليد الكتب وصنعت منه أغلفة تعد آية في دقّة الصّناعة وجمال الفنّ، ممّا دفع الأوروبيين إلى تعلّم هذا الفنّ ونقلوه عن المسلمين في الأندلس وساروا على منواله في تغليفِ كتبهم، وكذلك اشتهرت "قرطبة" بصناعة المنسوجات والتّحف الزّجاجيّة والبلوريّة والخزفيّة إلى جانب التّحف العاجيّة والمعدنيّة والآلات الحديديّة وصناعة الحليّ[2].

❖ **إشبيليّة:** اشتهرت هذه المدينة داخل الأندلس وخارجها، بصناعة الزيت المستخرج من الزّيتون؛ فالزّيتون الذي كانت تنتجه "إشبيليّة" يعتبر من أجود الأنواع لما يمتاز به من وفرة الزّيوت المستخرجة منه عن غيره، فضلا عن مذاقه لا يتغيّر من تخزينه لفترة طويلة[3]، وكان الزّيت الإشبيليّ يُصدّر إلى البلاد الإسلاميّة، كما اشتهرت "إشبيليّة" بصناعة الحليّ من الذّهب النّفيس والجواهر القيّمة لمقابض السيوف وحظيت إشبيليّة بشهرة فائقة في هذا المجال وفي هذا الصّدد يقول أحد ملوك إسبانيا التي يقول فيها:" أوصي أيضًا لابني بسيفي القتالي الذي صنع بإشبيلية ورصّع مقبضه بالذّهب ونفيس الجواهر"[4]، كما اشتهرت بصناعة السّكر[5].

كما أنّ هناك مراكز صناعيّة أخرى في الأندلس مثل: "مرسية" التي اشتهرت بصناعة البسط والحصر والأسرة المرصّعة، ونذكر مدينة "مالقة" التي اشتهرت بصناعة الفخار المذهب[6]، وعرفت مدينة "سرقسطة" بصناعة الفراء من وبر النمور[1]، ومن أهمّ المراكز الصّناعيّة في المغرب في عصر "علي بن يوسف":

---

[1]ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص14.

[2]عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب، الجامعة الإسكندريّة، بدون تاريخ، ص135.

[3]الحميري، صفة جزيرة الأندلس، المصدر السّابق، ص21.

[4]علي الجارم بك: قصة العرب في إسبانيا، مطبعة المعارف، مصر، 1944، ص135.

[5]المرجع السابق، والصفحة نفسها.

[6]المقري، المصدرالسابق، ج1، ص152.

- ❖ مراكش: والتي اشتهرت بصناعة الصابون والمغازل[2]، كما اشهرت مدينة
- ❖ فاس: بصناعة الزّجاج ولاسيما الزّجاج الملّون وكذلك تسبيك الحديد والنّحاس[3].
- ❖ مدينة نول: التي اشتهرت بصناعة الدرق اللمطية؛ فقد اشتهرت "نول لمطة" بصناعة السروج ولّجوم الخيل والأقناب[4] وهي سروج الخيل، وقد ازدهرت هذه المدينة نظرا لكثرة القوافل التّجاريّة التي كانت تمرّ بها، ونذكر مدينة "تارودنت" وكانت من أكبر مراكز صناعة السّكر، حيث كان يتوفّر بها معاصر السّكر، ومن "تارودنت" كان يجلب إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وأفريقيّة وهو السكر المشهور بـ"الطبرزرد"[5].

ج/الزّراعة:

تعاقبت سياسة دولة المرابطين اتجاه الأراضي بعدّة مراحل منها ما يسمّى "بالتّطبيب" أو "التّخميس"*[6]وعلى ما يبدو أنّ أراضي المغرب الأقصى كانت للقبائل التي تسيطر عليها أو تسكن فيها، ولكن عند قدوم المرابطين أصبحت الدّولة هي المالكة لكثير من الأراضي في البلاد، ولقد تمكن المرابطون من إخضاع جميع بلاد الصحراء واستولوا على قبائلها، وكان المرابطون يجمعون أسلاب المقتولين في غزواتهم ويجعلونها فيئا وغنيمة لهم أو ليبعثوا منها أموالًا لمساعدة النّاس[7] ولقد أمر الفقيه "عبد الله بن ياسين"

---

[1]المصدرنفسه، ص 197.

[2]الإدريسي، المغرب وأرض السودان، المصدرالسّابق، ص70.

[3]ابن القاضي، جذوة الإقتباس، فاس، 1039هـ، ص42.

[4]الإدريسي، المغرب وارض السودان،المصدر السابق، والصفحة 59.

[5]الإدريسي، المغرب وأرض السودتن المصدرالسّابق، والصّفحة 61.

[6]*عرف التخميس في العهود الأولى للإسلام وهو أن يعامل القائد المنتصر المهزومين كغنيمة بأن يأخذ خمسهم لاستعمال الدّولة.

ينظر: هوبكنز، النّظم الإسلاميّة في المغرب في القرون الوسطى، تر: أمين توفيق الطبيب، الدار العربية للكتاب، تونس، بدون تاريخ، ص ص 71-73-74.

[7]البكري، المرجع السابق، ص ص 155-166.

المرابطين بقتال مخالفيهم من أجل رفع راية الجهاد بعد أن اجتمع لديه في الرّباط الذي أسّسه أنصاره الذين دفعهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل "صنهاجة"[1].

وهنا بعض الدّراسات تقول أنّ الطّريقة التي اتّبعها المرابطون أو سادتهم هي تكفير الخصوم وذلك تمهيدًا للاستيلاء على أملاكهم وأموالهم بمبرّر شرعيّ، وهذه الرّؤيا مستمدّة من نظام التّطبيب الذي سَنّهُ الفقيه "عبد الله بن ياسين"*[2]، ويعتمد نظام "التّطبيب" على أخذ الثلث من أموال من ينظم إليهم من قبائل "صنهاجة" الصحراء لتطبيب أموالهم مثلما فعلوا مع قبيلة "لمطة" عندما دخلوا في طاعتهم فسألوهم ثلث أموالهم ليطيب لهم بذلك الثلثان[3]، ولقد وجّه نقد آخر إلى المرابطين حيث قيل أنّهم يستترون تحت ثوب الشّرع من أجل امتلاك أراضي الخصوم، ثمّ يقطّعونها لجندهم ويشاركون أصحابها في غلّاتها. ومع بداية الفتح المرابطيّ لشمال المغرب الأقصى عمل المرابطون بنظام "التّخميس" وتوزيع الغنائم على الفاتحين، وعلى ما يبدو أنّ النّظام توقف بعد تأسيس مدينة "مراكش" وبداية الدّولة[4] ولا سيما أنّ الجيش المرابطي بدأ يضمّ عناصر غير "صنهاجيّة" من "مصمودة" و "زناتة" و "مرتزقة" من العبيد الّود والرّوم[5]، ولم يرد أنّ الأراضيّ التي فتحت بعد تأسيس "مراكش" قد خمّست، ومن الجليّ أنّ نظام "التّخميس" أو التعدي على الأراضيّ في بيت المال أفقدت الدّولة كثيرًا من الأراضي، ولم تظهر آثار ذلك إلا في إمارة الأمير "علي بن يوسف"*[6]، الذي

---

[1] السلاوي، المصدرالسّابق، 2ج: ص ص 9-10.

[2] *لا شك أن "عبد الله بن ياسين" مالكي المذهب، ولو صح أن طبّق هذا النظام فإنّه خالف مبدأ الجهاد وما نصّت عليه السّنة حيث لم يذكر في موطأ مالك ما فعله "ابن ياسين".

ينظر: مالك بن أنس الإمام: الموطّأ صحّحه وأخرج أحاديثه محمد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بدون مكان، 1951، 2: 450-460.

[3] البكري، المصدرالسابق، ص166.

[4] المصدرنفسه، ص165.

[5] ابن أبي زرع، االمصدر السّابق، ج1، ص139.

[6] * علي بن يوسف بن تاشفين أمه أمّ ولد رمية وتسمى بأم الحسن مولده بسبتة عام (477هـ-1084م) بويع له يوم مات أبوه بمراكش بعهد منه وتمسى بأمير المسلمين وذلك في عام (500هـ-1106م) وسنه يوم بويع ثلاث وعشرون سنة وظل على سيرة أبيه الحميدة إلى أن توفي عام (537هـ-1142م) وولى من بعده ابنه تاشفين.

ينظر: ابن القاضي، جذوة الاقتباس، المصدرالسابق، ج2، ص460.

حاول زيادة أراضي الدّولة بعدّة وسائل على الرّغم من احترام المرابطين للمكيّة الخاصّة بعد استتباب أمرهم[1]، ولكن ما اتّبعه الأمير "علي بن يوسف" من سياسة قد تسبّب بحدوث اضطرابات في البلاد، لأنّه حاول مراجعة الملكيّات العامّة التي آلت إلى ملكيات خاصّة ولا شكّ أنّه لو تمّ للأمير "علي بن يوسف" مراجعة ما آل من ملكيات خاصة لساعد الدّولة على أن تستردّ كثيرًا من الأراضي التي استولى عليها بدون وجه حقّ[2]، كما أنّ هذا الأمر ترتّب عليه نتائج خطيرة تمثّلت في اشتعال العديد من الثّورات[3] وربّما هذا الشّيء الذي جعل أهالي المغرب الأقصى يرفضون هذا النظام وهكذا يتّضح لنا أنّ نظام المرابطين اتجاه الأراضي كان متمثلا في "التّطبيب" ثمّ "التّخميس" وهو اقطاع الجند أو عن طريق الشراء وهذا ما شجّع النّاس على شراء الأراضيّ واستثمارها في المغرب الأقصى[4].

اتّبع المرابطون سياسة إقطاع قبائلهم ما يقتسمون من أراضي البلاد العربية وأمّا في "الأندلس"، فلقد ساروا في بداية أمرهم عن طريقة الإقطاع العامري[5] ولما استقرّ أمرهم رجعوا إلى سابق عهدهم، وما كان سائدًا من إقطاع الجند أرزاقها، وعلى ما يبدو أنّه كان إقطاع تمليك وهكذا شجّع كثيرًا من النّاس على إحياء الأراضي الموات، وهناك سياسة أخرى طبّقت على الأراضيّ الزّراعيّة في عهد المرابطين أو ما يعرف بالملكيّة الخاصّة والتي كان لها أربع وسائل لتملكها تملّكًا خاصًّا، أن تأتي هبة من الدّولة أو إقطاعًا منها أو وراثة أو شراءً وتدل الإشارات عن الأراضي الموروثة في القرن السّادس هجري 12 ميلادي، كانت كثيرة مما ازدادت أهميّة خطّة المواريث واعتبار المال الموروث أطيب مكسب[6]، ولقد كان لشراء الأراضيّ تأثيرًا مباشر على

---

[1]ابن خلدون، المصدرالسّابق، ج6، ص185.

[2]عصمت دندش، الأندلس في نهاية المرابطين في مستهلّ الموحدين عصر الطّوائف الثّانيّ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بدون تاريخ، ص 157-159.

[3]عز الدين موسى: النّشاط الاقتصادي في الغرب الإسلاميّ خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، ط1، 1973، بيروت، ص132.

[4]المرجع نفسه، والصفحة 150.

[5]الماوري، الأحكام السّلطانيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1421هـ، ص230.

[6]نزيه شحادة، صفحات من الحضارة الإسلاميّة، دار النّهضة العربيّة للنّشر، ط1، بيروت، 2006، ص423.

الملكيّة الخاصّة، وذلك يرجع إلى الأوضاع السياسيّة مع ملوك الطّوائف في الأندلس من جهة والغزو الهلالي من جهة أخرى، ثمّ مع فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، ويقول "بن خلدون" في هذا الصّدد: "أنّ العقارات والضياع ترخص في فترة الانتقال من دولة إلى أخرى حتى تتناهى الكثير من الأملاك إلى شخص واحد، ويطلق "ابن خلدون" على هذه على هذه الظّاهرة "حوالة الأسواق"[1].

مارس ملوك الطّوائف والعرب الهلاليّة سياسة العبث والإفساد في الملكيّات الخاصّة، فكثرت نوازل الغصب[2] وبيع المضغوط ولجأ ضعفاء النّاس إلى بيع أراضيهم بأسعار زهيدة، وبعد استباب الأمن الذي فرضته الدّولة المرابطيّة حاولت الرّجوع إلى ما اسموه "بيع الغبن"[3] وأمّا الذي أراد الاحتفاظ بأرضه اتّبع طريقة "الانزال" فينزل أحدًا مكانه في ملكه فيعتبر المنزل الأرض على كراء ويكون الانزال على فائدة المال دون رقبته وكثيرًا ما يمتنعون عن دفع الكراء[4].

لما فتح المرابطون الأندلس عمل الفقهاء الذين كانوا مع ملوك الطّوائف في الدّولة الجديدة محتلين المراكز السيّاسيّة والعسكريّة فازدادت ثروتهم، وحسب بعض المصادر التّاريخيّة أنّ الملكيّة الخاصّة للأراضيّ في بلاد الأندلس كانت تدور في أيدي فقهائها، هذا ما جعل العامّة تنقم على الفقهاء[5].

***أراضي الأحباس والأوقاف:** لم تهتم الدّولة المرابطيّة بالأحباس، فلم توقف شيئًا، وانتقد "ابن سعيد" عدم اهتمامهم بذلك مع عظمة سلطانهم بالأوقاف[6]، ثمّ سرعان ما تغيّرت الفكرة إلى قيام الدّولة المرابطيّة بوقف مساحات شاسعة من أراضي الدّولة في

---

[1]ابن عرفة، شرح حدود ابن عرفة، تح: محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، القسم الأوّل، ط1، 1993، بيروت، ص423.

[2]الونشريسي، المعيار، تح: محمد دحي، دار الغرب الإسلاميّ، ج9، بيروت، ص ص 540-542.

[3]الونشريسي المصدرالسّابق، ج 9، ص ص540-542.

[4]الونشريسي، المصدرنفسه، ج6، ص138.

[5]المراكشي، المعجب، المصدرالسّابق، ص171.

[6]جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، 448هـ-1056م إلى 468هـ-1269م، دراسة سياسيّة وحضاريّة، دار الوفاء الاسكندريّة، ص204.

حدّ ذاتها وفي بعض الأحيان تتخلّل الملكيّات الخاصّة[1]، فكان دخل أحباس مسجد القرويين في (528هـ-1134م) أكثر من ثمانين ألف دينار مرابطي[2]، وقد كان دخل أرض جسها رجل واحد في تسلب على الشّعراء تغل مائة دينار مرابطيّة في العام[3]كما انتشرت أحباس المعاهدة في البلاد الأندلسيّة بأسرها حسب ما اكتشفت القضايا المترتبة عن تغريب المعاهدة إلى البلاد الغربية في إمارة "علي بن يوسف"[4] يذكر "الإدريسي" في هذا الصّدد أنّ أحباس الغراب تسلب وقصر أبي دانس تنتشر في غرب الأندلس[5].

***الضّرائب:** يقول "ابن خلدون": " إنّ الدّولة سواء قامت على سنن العصية أو الدّين تكون قليلة الضّرائب كثيرة الجباية في أوّل عهدها لأنّ الرّعايا ينشطون للعمل فيكثر الاعتمار، وعندما تنتقل الدّولة إلى التّرف تكثر الضّرائب فيثقل ذلك على النّاس فيقلّ الاعتمار وتتقص الجباية ولا يكون ذلك إلّا تدريجيًّا فإنّ أقوى الأسباب في الاعتمار تعليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن"[6].

كأنّ "ابن خلدون" سيستقرئ سياسة المرابطين والموحدين فيما بعد الضرائبيّة.

لا تذكر المصادر شيئا عن الضّرائب الزّراعيّة في بلاد بني باديس، وكان أوضاع المُلّاك والزّراع قاسيّة في ظلّ حكم بني حمّاد، فالعرب الهلاليّة مشاركون النّاس غلّاتهم مناصفة وبنو حمّاد يجبون منهم خراجا قد اسقطه النّاصر بن علناس عن أهل بجاية لما أسّسها للتّعمير، وفرضت "زناتة" في البلاد الغربية قبل قيام المرابطين ما شاءت من ضرائب وتميّزت جباية هذه الضرائب بالعنف والقسوة[7]، كما ضيّق ملوك الطّوائف على أهل الأندلس بما فرضوا من ضرائب فادحة من جزية على رؤوس

---

[1]الونشريسي، المصدرالسّابق، ج7، ص ص 80-91.

[2]سالم عبد العزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندريّة، 1999، ص666.

[3]المراكشي، المعجب، المصدرالسابق، ص215.

[4]ابن عرفة، المصدرالسابق، ص230.

[5]الإدريسي، المغرب وأرض السودان، المصدرالسّابق، ج2، ص544.

[6]محمد عايد الجابري: فكر ابن خلدون، العصية، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط8، بيروت، 2007، ص211.

[7]ابن زرع، المصدرالسابق، ص102.

المسلمين مشاهرة وضرائب ستوجه على الغنم والبقر والدّواب والنّحل تفوق ثمن أصولها، بالإضافة إلى ما أسماء ملوك الطّوائف بالمهونة، يرفضونها متى شاءوا كما ضيق عليهم صاحب "طليطلة" (الأذفونش) بطلب الجزيات السّنويّة التي فرضها عليهم[1]. وكان الزّراع أكثر النّاس تأثّرًا بهذه الإجراءات الضّرائبيّة لأنّ حياة المغرب تقوم أصلا على الزّراعة حتّى أنّ "ابن عبدون" يقول:" فالفلاحة هي العمران... وببطالتها تفسد الأحوال، وينحل كلّ نظام"[2].

وكانت هذه الأوضاع السّياسيّة سببا في فتح كثيرًا من حصون البلاد الغربية أبوابها للمرابطين واستدعاء الأندلسيين لهم "إيثارا للحريّة" لما شاع عن المرابطين من ردّ المظالم وقطع المغارم وأنّهم كانوا لا يأخذون إلّا الزّكاة والعشر[3] فظهر المرابطون بمظهر المنقذ في البلاد الغربية والأندلسيّة، تقول إحدى روايات "ابن أبي زرع الفاسي" أنّ الفترة المرابطيّة لم يفرض فيها خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا مكس ولا وظيفة لا في بادية ولا في حاضرة[4].

وفي رواية ثانية تقول أنّ هذه السّياسة اتّبعت في إمارة "يوسف بن تاشفين" وحده، وفي رواية ثالثة تقول أنّ الضّرائب فرضت أيّام "علي بن يوسف" لما ثار عليه "ابن تومرت" ويميل "المراكشي" إلى الرّواية الثّالثة حين يذكر الخراج في أيّام "عليّ بن يوسف" دون أن يبيّن متى فرض ذلك[5].

ولكنّ الدّارسين المحدثون بأنّ قالوا أنّ الضّرائب كانت قليلة على الأقلّ في أوائل فترة الدّولة المرابطيّة أو فترة "يوسف بن تاشفين" بالتّحديد، وعلى ما يبدو أنّ هذه الضّرائب الشّرعيّة لم تعد تفي بالتزامات الدّولة العسكريّة في الأندلس لا سيما مع تقلّص أراضي الملكيّة العامّة ثمّ عيشة التّرف التي بدأ المرابطون يحيونها، وأغلب الظّنّ أنّ هذا التّطوّر بدأ في أواخر إمارة "يوسف بن تاشفين"، فقد كتب "الطّرطوشي"

[1]أحمد حسن محمود، المرجع السّابق، ص261.

[2]ابن عبدون، المصدرالسابق، ص5.

[3]ابن زرع، المصدرالسّابق، ص137.

[4]ابن أبي زرع، المصدرالسّابق، ص 137.

[5]المراكشي، المعجب، المصدرالسّابق، ص177.

إلى "يوسف" قائلًا:" وقد بلّغني إنّك استأثرت على المسلمين بالحظّ الوافر من حطام الدّنيا وزخرفها، فلبست النّاعم وأكلت اللّبن وتمتعت بلذّاتها وشهواتها". وعلى ما يبدو أنّ الأزمة الماليّة للدّولة المرابطيّة قد تفاقمت في عهد "علي بن يوسف" وما قضيّة مراجعة الملكيّات الخاصّة إلّا مظهرًا من مظاهرها خاصّة بعد موقعه إقليش (501هـ-1108م) وبدأ معين الغنائم ينضبّ واشتدّت سيطرت النّساء المرابطيات على الأموال[1]ولا سيما أنّ النّظام الاجتماعيّ المرابطيّ كان يقوم على الأمومة طبقا لما يقتضيه المثل الأعلى البربريّ.

[1]المصدر نفسه، والصّفحة نفسها.

المطلب الثّالث: مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في الميدان الاجتماعيّ

انقسم المجتمع في بلاد "المغرب" و"الأندلس" أيّام المرابطين إلى طبقات اجتماعيّة، فالطّبقة الحاكمة كانت صاحبة السّيادة أو ما عرف عنهم بـ"الملثّمين" أو "اللمتونيون" ويذكر "ابن عبدون" في هذا الصّدد:" يجب أن لا يلثّم إلّا صنهاجيّ أو لمتوني أو لمطي، فإنّ الحشم والعبيد من لا يجب أن يلثمون على النّاس ويهيبونهم ويأتون أبوابا من الفجور كثيرة بسبب اللّثام"[1].

وعلى ما يبدو أنّ المناصب الكبرى عند المرابطين مثل مناصب حكام الولايات وقادة الفرق العسكريّة كانت موقوفة على أفراد البيت الحاكم وهذا من أجل ضمان أمير المسلمين ولاء الحكام وقادة الجيش له، وسارت الدّولة المرابطيّة على نهج تعاليم الفقيه "عبد الله بن ياسين" وظلّ هذا الوضع قائمًا طوال العصر المرابطيّ الأوّل أي قبل عبور المرابطين إلى "الأندلس"، إلّا أنّ ضم المرابطون "الأندلس" إلى دولتهم في المغرب، بدأ تطوّر جديد يطرأ على هذه الطّبقة الحاكمة لا سيما بعد أن بهرتهم مظاهر الحضارة في الأندلس فأخذوا بها واستغرقوا فيها، ولعلّ هذا ظهر جليًّا في عهد "عليّ بن يوسف" الذي كان يحرص أن ينزل بمدينة "إشبيليّة" في معرش غاية الحسن والجمال، وقد وصفه صاحب القلائد بقوله:" خرجت بإشبيلية مشيعا لأحد زعماء المرابطين فلمّا انصرفنا مال بنا إلى معرش أمير المسلمين أدام الله تأييده الذي ينزله عند حلوله إشبيليّة وهو موضع مستبدع كأن الحسن فيه مودع فيه..."[2]. وكان من الطّبيعيّ أن يستطيب أمراء الدّولة مثل هذه الحياة وقد ساعد على ذلك أن أمراء المرابطين كانوا ينتقلون في مناصبهم بين الغرب والأندلس.

أمّا عن الفقهاء والقضاء وعلماء الدّين فلقد كانت لهم مكانة مرموقة في المجتمع الأندلسي المغربيّ في عصر المرابطين، ولعلّ السّبب يكمن في الدّور الكبير الذي قاموا به في قيام الدّولة المرابطيّة أو التعاليم الرّاسخة التي وضعها الفقيه المالكي "عبد الله بن ياسين" المنشئ الرّوحيّ للدّولة ومؤسّسها. ومن الطّبيعيّ أن يتمتّع فقهاء

[1] ابن عبدون، المصدر السّابق، ص28.

[2] حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص422.

المالكيّة بمنزلة كبيرة في بلاط "يوسف بن تاشفين" ثمّ في بلاط ولده "علي بن يوسف" ويصبحون موضع المشاورة حتّى أضحوا يسيطرون ويتحكّمون في الأمراء والحكام على قلّة علمهم وجمود أفكارهم يقول صاحب المعجب: "اشتدّ ايثاره لأهل الفقه والدّين وكان لا يقطع أمرًا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء..."[1] فزاد ربحهم ومالهم وأخذوا ألوان البذخ والتّرف ومن أمثلة ذلك القاضيّ الفقيه "أحمد بن حمدين" والقاضيّ "أبي الحكم بن حسون" بمالقة... وبالرّغم من تلك المكانة العظيمة التي وصل إليها فقهاء المالكيّة في عصر "عليّ بن سوسف"، فإنّ هذا العصر شهد انتقادًا للشّعراء لهم وهجوهم إياهم يقول "ابن البنى" أحد شعراء جيان:"

فملكتموا الدّنيا بمذهب مالك **** وقسّمتموا الأموال بابن القاسم

وركبتموا شهب الدّوابّ بأشهب **** وبأصبغ صبغت لكم في العالم[2]

أمّا عن مكانة المرأة عند المرابطين فكانت لها مكانة رفيعة في المجتمع المغربيّ الأندلسيّ فكانت ظاهرة في مجال الحياة العامّة وربّما السّبب يرجع إلى أنّ المرابطين قد نشأوا في بيئة صحراويّة حيث تكون المرأة الرّكن الأساسيّ في بناء الحياة الاجتماعيّة والاقتصادية، فهي التي ترعى الإبل والغنم وهي التي تطهو الطّعام وتربّي الأولاد وتحيك الثّياب. وقد أشار المؤرّخون إلى ظهور تطّور لبعض النساء المرابطيات في سياسة الدّولة وأبرز مثال على ذلك نذكر السّيدة "زينب النفراويّة" زوج أمير المسلمين "يوسف بن تاشفين" والتي كانت لها مكانة سامية في الدّولة وإن كنت غير مبالغ فكأنّها المستشار السّياسيّ لأمير المسلمين "يوسف بن تاشفين" والذي سمع لها عندما قدّمت له نصيحة وأشارت عليه في معاملة الأمير "أبي بكر بن عمر " بعد عودته من الصّحراء وقالت:" يا يوسف أف ابن عمك رجل متورّع في سفك الدّماء، فإذا لقيته فقصر عمّا كان يعهده منك من الأدب والتّواضع وأظهر له غلظة ولاطفه مع ذلك بالأموال والخلع والثّياب والطّعام والشّرف واستكثر من ذلك فإنّه ببلاد

[1] عبد الواحد المراكشيّ، المعجب، المصدر السّابق، ص171.

[2] المصدر نفسه، والصّفحة نفسها.

الصّحراء"[1]. وطبّق "يوسف بن تاشفين" نصيحتها، وهكذا فاز بالمغرب الأقصى الذي كان العصب الأساسيّ لهذه الإمبراطوريّة الضّخمة التي أسّسها المرابطون في "المغرب" و"الأندلس".

ونذكر السّيدة "قمر" زوجة أمير المسلمين "علي بن يوسف" والّتي أشارت على زوجها أن يولى ابنها "سير" ولاية عهد أبيه وقيل قد تملكها الغيرة على ابنها "سير" من أخيه الأمير "تاشفين" وذلك بسبب الانتصارات التي حقّقها على النّصارى في الأندلس. فأشارت "قمر" إلى زوجها أمير المسلمين بعزل ابنه "تاشفين" عن ولاية "الأندلس" فرضخ أمير المسلمين لها وبعث في استدعاء ولده "تاشفين" من "الأندلس" حيث أصبح تحت إمرة ابنها "سير" إلى أن توفي الأخير، فتدخلت "قمر" مرّة أخرى في اختيار ولي العهد، وعرضت على الأمير "علي بن يوسف" أن يولى ابنه "إسحاق" ولاية عهده، وكاد أمير المسلمين أن يوافقها على ذلك، إلّا أن المرابطين قد اجمعوا على اختيار "تاشفين" لولاية العهد[2].

كما قصد الشّعراء الأميرات المرابطيات يستشفعنّ بهنّ، وقد كانت مكانة المرأة المرابطيّة من السّمو بحيث أن الرّجل كان ينسب إلى أمّه وليس إلى أبيه فمثلا: كان بعض القادة المرابطين الذين لعبوا أدوارًا أساسية في أحداث "المغرب" و"الأندلس" يحملون أسماء أمّهاتهم مثل: "ابن عائشة"، "ابن فاطمة"، "ابن غانية"، "ابن تاشفين" و"ابن الصّحراويّة وغيرهم، وممّا يلفت النّظر أيضًا أنّ النّساء المرابطيّات كنّ يخرجنّ سافرات في الأسواق والميّادين في حين يتلثّم الرّجال.

* وأمّا عن أهل الذّمّة في "المغرب" و"الأندس" من النّصارى المعاهدين واليهود فقد كانوا يشكّلون طبقة كبيرة في المجتمع المغربيّ الأندلسيّ، وحظوا بمكانة مرموقة لدى حكومات ملوك الطّوائف، ومن هنا كان من الطّبيعيّ عندما قامت دولة المرابطين في "المغرب" و"الأندلس" أن تضع حدًّا لهذا النّفوذ الكبير الّذي تمنع به أهل الذّمّة، ومن جهة أخرى أنّ الدّولة لم تخرج في تعاملها معهم عن أحكام السّنة النّبويّة وهي تخيّرهم بين الإسلام ودفع

[1] ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ج1، ص135.

[2] ابن عذارى، المصدر السّابق، ج4، ص ص 97-98.

الجزية السّنويّة لبيت مال المسلمين، وفي عهد أمير المسلمين "علي بن يوسف ورغم روح التّسامح إلّا أنّ نصارى "الأندلس" المعاهدين ظلّوا يحملون روح الحقد والكراهيّة لهؤلاء السّادة الجدد وبالرّغم من ذلك فإن "علي بن يوسف" قد استعان بهم للعمل في بلاطه وأنشأ منهم فرقة خاصّة في الجيش كما عهد إليهم أيضا بتحصيل الضّرائب في "المغرب"[1].

*أمّا اليهود فقد طبّق عليهم ما طبّق على النّصارى المعاهدين في تخييرهم بين الإسلام والجزية وقد رضي الكثير منهم الجزية لبيت مال المسلمين؛ روى أحد فقهاء "قرطبة" وجد مجلّدًا من تأليف "ابن مسرّة القرطبيّ" أنّه وجد في المجلّد حديثا عن الرّسولﷺبأنّ اليهود ألزمت نفسها إذا مرّت خمسة قرون من مبعث رسول الله ﷺولم يظهر مسيحهم المنتظر فإنّهم سوف يعتنقون الإسلام فأخبر هذا الفقيه "يوسف بن تاشفين" بالأمر فاجتاز على مدينة السيارفة وهي مدينة اليهود في الأندلس ليطالبهم بالوفاء بالوعد الذي وعد به أجدادهم من قبل ولهذا صرفوا الكثير من الأموال لأمير المسلمين حتّى لا يجبرهم على الوفاء بوعدهم القديم[2]، لكن بعد مجيء ولي العهد "علي بن يوسف" تغيّر نمط التّفكير في هذه الطّبقة وكان متسامحًا معهم والدّليل يقدّمه "يوسف أشباخ" حيث يقول:" ولم يتمتّع اليهود بنوع من التّسامح إلّا في عهد خلفاء يوسف بن تاشفين"[3].

تمركز اليهود في مدينة "اليسانة" في الأندلس، بينما في المغرب كانوا يقيمون في مدن خاصّة مثل مدينة "فاس"[4]، ومدينة "أغمات " و"ريكة"[5]، وكان أمير المسلمين "يوسف بن تاشفين" يمنعهم من دخول العاصمة "مراكش" إلّا نهارًا لقضاء حاجاتهم ثمّ ينصرفون عشيّة فإذا عثر أحدهم استبيح دمه وماله.

*أمّا مجتمع العامّة فكان يتكوّن من التّجار والصّناع والحرفيّين والمزارعين، فالاستقرار السّياسيّ والاقتصاديّ الذي عرفته الدّولة المرابطيّة في عصر "يوسف بن تاشفين" والنّصف الأوّل من عصر ولده "عليّ" كان سببًا في ظهور التّجارة وتطوّرها ثمّ

---

[1]يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج2، القاهرة، 2011، ص230.

[2]الحلل الموشية، المصدرالسّابق، ص58.

[3]يوسف أشباخ، ، المرجع السّابق، ج 2، ص230.

[4]البكريّ، المصدر السّابق، ص115.

[5]الإدريسيّ، المغرب وأرض السودان، المصدر السّابق، ص69.

كان إلغاء الدّولة للضّرائب الباهظة على التّجارة والمتاجر تحفيز كبير على ممارسة نشاط التّجارة وأصبح في مقدور التّاجر أن يطوّر ثروته طالما يؤدّي ما عليه من ضرائب شرعيّة للدّولة فازدادت ثروات التّجار وشاركوا في الحياة الاجتماعيّة بكلّ مظاهرها وكان الحال نفسه بالنّسبة للصّناع والحرفيّين، وفتحت الدّولة أبواب المغرب أمام صنّاع الأندلس، فأصبحوا يشكّلون جانبًا كبيرًا في الدّولة، وبدأ الصّناع المهرة في عهد "علي بن يوسف بن تاشفين" إذ يقول "الإدريسي" أنّ "يوسف بن تاشفين" أحضر المهندس الأندلسيّ "عبد الله بن يونس" إلى "مراكش" سنة (470هـ-1088م)، ولم يكن بمرّاكش إلّا بشأن واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين "يوسف" لأنّ الماء فيها ليس بعيد الغور، فاستخدم هذا المهندس الأندلسيّ السّواقي بعد أن قام بحفر آبار مربّعة كبيرة من الأعلى إلى الأسفل، فكثرت البساتين، وقد أكرمه "يوسف بن تاشفين" طوال مدّة إقامته بـ"مراكش"[1] كما يشير "الإدريسي" إلى إحضار "علي بن يوسف" لصنّاع من "الأندلس" لتشييد "قنطرة" على نهر "تانسيفت" الذي تقع عليه "مراكش"[2].

وهكذا نرى أنّ الصنّاع والحرفيّين أصبحوا يشكّلون جانبا كبيرًا في المجتمع المغربيّ الأندلسي وأصبحوا موضع احترام وتقدير أمير المسلمين وأمراء الدّولة. وهكذا فتح المجال أمامهم للمشاركة في الحياة الاجتماعيّة في "المغرب" و"الأندلس".

لقد ازدهرت مكانة المزارعين في عهد المرابطين وازداد اقبالهم على زّراعة أراضيهم ويرجع ذلك إلى السّياسة الضّريبيّة الحكيمة التي سارت عليها الدّولة.

تعتبر العادات والتّقاليد من المظاهر الاجتماعيّة من العناصر المهمّة لحضّارة الشّعوب ومن ثمّ فإنّ المرابطين وعلى الرّغم من نشأتهم البدويّة في الصّحراء وتأثرهم بتعاليم الإمام الفقيه "عبد الله بن ياسين" لم يستطيعوا مقاومة مباهج الحضارة الأندلسيّة بكلّ مظاهرها ومفاتنها ولا سيما فنّ الغناء والموسيقى والطّرب، وإنّ كان ظهور ذلك جليًّا في عصر "علي بن يوسف"، إلّا أنّ البوادي الأولى قد ظهرت في عصر "يوسف بن تاشفين" نفسه

[1] الإدريسي، المغرب وأرض السّودان، المصدرالسّابق، ص ص 67-68.

[2] المصدرنفسه، والصّفحة 69.

وقد كان عصر "علي بن يوسف" عصر انغماس بمباهج الحضارة الأندلسيّة فقد شغف بمجالس الطّرب والموسيقى وتجلّى ذاك في مجلس طرب حضرة أمير المسلمين "عليّ بن يوسف"، حيث يقول الوزير "أبو محمد عبد الرّحمن بن مالك المعافريّ" في هذا المجلس:

لا تلمنيّ إذا طربت لشجو **** يبعث الأنس فالكريم طروب

ليس شقّ الجيوب حقّ علينا **** إنّما الحقّ أن تشقّ القلوب[1]

وقد سار أمراء المرابطين على درب أمراء الأندلس في حبّهم لمجالس الطرب والموسيقى ومثال ذلك الأمير "أبو بكر إبراهيم بن يوسف بن تاشفين" المعروف بـ"ابن تيفلويت" والي "سرقسطة" في عصر "عليّ بن يوسف" حيث أنّ هذا الأخير اتّخذ من الفيلسوف "ابن ماجه" كاتبا له، ويروى أنّ "ابن ماجه" حضر مجلسًا من مجالس الطّرب لمخدومه وألقى موشّحه التي كان مطلعها:

جرز الذّيل أمها جرّ **** وصل الشّكر منك بالشّكر

وطرب "ابن تيفلويت" لذلك فلمّا ختمها بقوله:" عقد الله راية النّصر لأمير العلا أبيّ بكر" وقال:" ما أحسن ما بدأت وما ختمت"، وحلف بالإيمان المغلظة ألا يمشي "ابن ماجه" إلى داره إلّا على الذّهب، فخاف الحكم سوء العافية فاحتال بأن جعل ذهبا في نعله ومشى عليه[2].

لقد بدأت حركة المرابطين تأخذ شكلها الإيجابي حينما عهد "عبد الله بن ياسين" إلى بناء رباط يأوي إليه هو وأصحابه مبتعدين عن النّاس متقرّبين من الله تعالى يتزهدون ويجاهدون، فالجهاد من أخصّ صفات المرابطة حيث يقول الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]. وقد بدأت حركة المرابطة على سواحل المغرب منذ الفتح الإسلاميّ لحمايتها من غارات البيزنطيّين من جهة ومن جهة

[1] عبد العزيز سالم، المرجع السّابق، ص111.

[2] ابن الخطيب، المصدر السّابق، ج1، ص407.

[3] سورة آل عمران: الآية 200.

أخرى للتّفرّغ للعبادة والزّهد، ولكن لم تلبث هذه الأربطة أن تحولّت عن غاية الجهاد إلى غاية أخرى لا تقلّ عنه وهي نشر تعاليم الإسلام واللّغة في مختلف أجزاء المغرب ومن أجلها انتشرت الأربطة والزّوايا والذي يتبع خطّ سير الهدي "بن تومرت" منذ عودته من المشرق ونزوله في مدينة "بجاية" حتّى عودته إلى موطن أهله وعشيرته في جبل ايجليز ليرى وجود هذه الأربطة والزّوايا[1].

توسّعت دولة المرابطين في مبدأ الجهاد، حيث فرض "ابن ياسين" الجهاد على أنصاره من المرابطين ودعاهم إليه حيث قال:" يا معشر المرابطين أنّكم جمع كثير، وأنتم وجود قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى الصّراط المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في سبيل الله حقّ جهاده"[2].

لم يقتصر أمر الجهاد على اهتمام الدّولة بل شارك في الجهاد مختلف طوائف الشعب وعلى رأسهم الفقهاء والقضاة ورجال الدّين ونالوا شرف الشّهادة في سبيل الله، وقد أشار "ابن القطان" إلى بعض من استشهد من الفقهاء في معركة "إقليش" وعلى رأسهم الإمام " الجزولي" الذي يصفه "ابن القطّان" بأنّه رجل صدق"[3]، وشارك الفقهاء في معركة "كنتدة" واستشهد منهم القاضيّ الفقيه "أبو عليّ الصّدفيّ" والقاضيّ "أبو عبد الله بن الفرّاء" قاضيّ "المريّة"، وقد أشار المؤرّخون إلى استشهاد ما يقرب من 20ألفا في معركة "كنتدة"[4].

[1]عبد الواحد المرّاكشيّ، المعجب، المصدر السّابق، ص181.

[2]ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ص125.

[3]ابن القطّان، المصدر السّابق، ص66.

[4]المصدر نفسه، ص 42.

المطلب الرّابع: مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في الميدان الثّقافيّ

1. الحياة العلميّة:

أ/علوم الفقه والحديث: نتيجة لنشأة الدّولة الدّينيّة ظهر الكثير من الأعلام المحدثين والفقهاء مثل: "أبو الوليد بن أحمد بن رشد الجدّ"(450هـ-520هـ)، قاضي الجماعة بـ"قرطبة" الذي كان من أعلام الفقه المالكيّ في "الأندلس" الذي برع في علم الفرائض ومن بين مؤلّفاته كتاب: "المقدّمات لأوائل كتاب المدوّنة"، كتاب:" البيان"، و"اختصار المبسوطة"، و"اختصار مشتمل الآثار للطّلحاويّ"[1]. والقاضيّ الفقيه "أبو عليّ الصّدفيّ" الذي استقرّ بـ"مرسيّة" حيث توافد عليه طلاّب العلم من مختلف أنحاءِ الأندلس يقول "ابن بشكوال":" وكان عالمًا بالحديث وطرقه عارفا بعلله وأسماء رجاله ونقلته..."[2]. وقد شارك في موقعة "كنتدة" واستشهد في عام 514هـ وبرز في ميدان الفقه والحديث في ذلك العصر القاضيّ الفقيه "أبو بكر بن العربيّ" وكان من أهمّ فقهاء "الأندلس" في عصر المرابطين تولّى القضاء بـ"إشبيليّة" ثمّ توجّه للتّدريس والبحث والتّصنيف، ومن أشهر كتبه: "العواصم والقواصم"، وكتاب "أنوار الفجر" في مدح الرّسول-صلى الله عليه وسلّم- وبلغت مؤلّفاته نحو الأربعين كتابًا[3].

ومن أشهر فقهاء الدّولة المرابطيّة القاضي "أبو الفضل عياض بن موسى بن العياض اليحسبي السّبتي" المعروف بالقاضيّ "عياضّ، تولّى قضاء "غرناطة" في سنة 530هـ. وكان من كبار علماء المذهب المالكي وله كتاب "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك"[4]، ومنهم أيضًا "أبو الحسن علي بن عبد الرحمن " المعروف بـ"ابن

[1]حسن أحمد محمود، المرجع السّابق، ص433.

[2]المرجع نفسه، والصّفحة عينها.

[3]محمد عبد الله عنان، المرجع السّابق، ص457.

[4]ابن خاقان، المصدر السابق، ص ص ص 326-328-381.

أبـي حقـون"، ولـه مختصـر فـي أصـول الفقـه سـمّاه بـ"المقتضب الأشـفى مـن أصـول المستصفى"[1] وغيرهم.

أمّا في علم التّفسير فقد برز "أبو محمد عبد الحقّ بن غالب بن عبد الرّحمن بن عطيّة المحاربيّ" وله كتاب يسمّى بـ"الوجيز في التّفسير"[2]، وقد برز في عصر "علي بن يوسف" من الفقهاء وعلم الحديث "أبو عبد الله محمد بن جوط بن أحمد الأنصاريّ" المعروف بـ"ابن أبي أحد عشر"[3]، و"أبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر بن فيرة اللّمخي" ويعرف ب"ابن الدّباغ"[4]، و"أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التّجيبيّ" المعروف بـ"ابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة"[5] وغيرهم.

ب/علوم اللّغة: نبغ في عصر المرابطين الكثير من العلماء في النّحو وعلوم اللّغة منهم: "أبا محمد عبد الله بن محمّد بن السّيد البطليوسيّ النّحويّ"(521هـ)، ومن مؤلّفاته: كتاب" الاقتضاب في شرح أدب الكتاب"، وكتاب" الثنية على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمّة"، وكتاب آخر في شرح "الموطّأ" بالإضافة أنّه كان شاعرًا، ومن الأئمّة اللّغويين الذين برزوا في هذه الفترة نذكر:" أبو الحسن عليّ بن أحمد بن خلف الأنصاريّ النّحويّ" وكان متبحرا في الأدب واللّغة متقدّمًا في علم القراءات[6]. و"أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله النّحوي" المعروف بـ"ابن اللّجاش" وقد كان عالما مقتدرًا في النّحو[7]، و"أبو العباس أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله" المعروف بـ"التّدميري"(ت555هـ)، ومن تآليفه: "نظم القرطين وضمّ أشعار السقطين"؛ جمع فيه أشعار "الكامل للمبرّد" و"الفوادر لأبي علي البغدادي" وله أيضًا كتاب "التّوطئة في العربيّة"، وكان من أهل المعرفة بالنّحو واللّغة والعروض وله أرجوزة مزدوجة في قراءة

[1]ابن الآبار: معجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصّدفي –رضي الله عنه–، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ط1، 2000، بدون مكان، ص300.

[2]ابن خاقان، المصدر السابق، ص655.

[3]النباهي، المصدر السّابق، ص111.

[4]محمد عبد الله عنان، المرجع السّابق، ص460.

[5]المرجع نفسه، والصفحة 461.

[6]المرجع نفسه، والصفحة عينها.

[7]المرجع نفسه، والصّفحة 469.

"نافع" وثانيّة في قراءة "ابن كثير" ومن مؤلّفاته: كتاب "فوائد الإفصاح عن شواهد الإيضاح"[1].

ج/ التّاريخ والجغرافيا: نبغ في عصر المرابطين عدد كثير من أعلام الرّواية والكتابة التّاريخيّة ومن أبرزهم: "أبو زكريا يحي بن محمد بن يوسف الأنصاريّ الغرناطيّ" المعروف بـ"ابن الصيرفي والذي كان علامة في البلاغة والأدب والتّاريخ، كتب بـ"غرناطة" عن الأمير "تاشفين بن عليّ تاشفين" أيّام كان واليا على "الأندلس"[2].ومن مؤلّفاته كتاب: "الأنوار الجليلة في أخبار الدّولة المرابطيّة"، وكتاب آخر: "قصص الأنبياء وسياسة الرّؤساء" وهما مؤلّفان لم يصل إلينا، ونذكر أيضًا: "أبو الحسن عليّ بسام الشّنتريني" (542هـ-1148م) صاحب كتاب: " الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، وأيضًا: "أبو عبد الله محمد بن خلف بن الحسن بن إسماعيل الصّدفيّ" ويعرف بـ"ابن علقة" وقد ألّف كتابًا سمّاه: "البيان الواضح في الملمح الفادح" وقد توفي في عام (509هـ-1114م)[3]

و"أبو نصر الفتح بن محمد القيسي الإشبيليّ" والمعروف بـ"الفتح بن خاقان" ومن مؤلّفاته: كتاب "قلائد العقيان في محاسن الأعيان"، وكتاب "مطمح الأنفس وصرح التآنس" وكتاب: "رواية المحاسن وغاية المحاسن"[4]. وأيضًا "أبو القاسم خلف بن عبد الملك" ويعرف بـ"ابن بشكوال" وكان من أبرز أعلام المؤرّخين المرابطين، ومن أشهر مؤلّفاته: كتابه المعروف: "الصّلة" والذي كان كتابًا متما لكتاب "ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس"، وأيضًا له كتاب "الغوامض والمبهمات" في اثني عشر جزءًا، وله أيضًا كتاب: "المنتخبة والحكايات المستغربة" في عشرين جزءًا وغيرها. توفي "ابن بشكوال" في رمضان (472هـ)[5].

وفي علم الجغرافيا نبغ عدد كبير من الجغرافيّين في الأندلس والمغرب في عصر المرابطين نذكر: "الشّريف أبو عبد الله محمد الإدريسي" صاحب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وقد ألّفه "الإدريسي" لرجار الثّانيّ صاحب "صقليّة"، ولهذا عرف هذا

---

[1] المرجع نفسه، والصّفحة عينها.

[2] ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص ص 108-112-147.

[3] ابن الآبار، المعجم، المصدر السّابق، ص313.

[4] المرّاكشيّ، المعجب، المصدر السابق، ص88.

[5] ابن الخطيب، المصدر السّابق، ج1، ص467.

الكتاب باسم "الرّجاري" (Librogeriamo)، ونذكر جغرافيّ آخر عاصر "علي بن يوسف" "عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجاري" صاحب كتاب: " المسهب في غرائب المغرب"، ويقول "حسين مؤنس" في هذا الصّدد:" يندر أن نجد مؤلّفا أندلسيا كتب بعد الحجاري، دون أن يشير إليه مما يدلّ على أنّ كتابه كان مرجحا وحجّة"، ويعتبر أصنافه إلى المكتبة الأندلسيّة، شيئًا تميز عمّن سواه ممّا جعل الرّجوع إليه والأخذ به عنه ضرورة لا معدى عنها لكلّ من تعرّض للتأليف في أدب الأندلس وجغرافيته وتاريخه"[1].

<u>التّصوّف:</u> ظهرت الصّوفيّة في عصر المرابطين وكان رائدها في "الأندلس" "أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطا الله الصّنهاجيّ الأندلسي" الذي عرف ب"ابن العريف" ولد في عام (481هـ)، والذي نشأ نشأة دينيّة وأقبل على دراسة الفقه وعلوم الدّين واشتهر بالزّهد والعبادة ومن مؤلّفاته كتاب: "محاسن المجالس"، الذي ضمّنه طريقته الصّوفية الجديدة والتي كان جوهرها الزّهد في كلّ شيء ما عدا الله[2]. ذاع صيته في الزّهد والعبادة وكثر مريدوه حتّى وصل ذلك إلى أمير المسلمين "علي بن يوسف"، ويقال أن فقهاء "ألمريّة" أنفقوا على إنكار مذهبه، فاشتكوا به إلى "علي بن يوسف" فحذّره وأصدر أمرا بالإتيان به من "ألمرية"[3]، مع مجموعة من المتصوفة ومنهم "أبي بكر محمد بن الحسين الميورقي" من "غرناطة"، و"أبي الحكم بن برجان" من "إشبيلية"، وكانوا نمطا واحدًا في الانتحال والاتصاف بصلاحيّة الحال، و" لأبي الحكم" الشفوف عليهم حتى قيل فيهم غزالي "الأندلس"[4]. فساروا جميعا إلى مراكش ولم يلبث بها إلى أن توفي ودفن يوم الجمعة الثّالث والعشرين من صفر سنة (536هـ)، واحتفل النّاس بجنازته وندم "علي بن يوسف" على ما كان منه في جانبه[5]. وكان "أبو العباس بن العريف" ينظم الشّعر الذي يحمل السّمات الصّوفيّة ومن أعلام التّصوّف في عصر المرابطين نذكر: "أبو العباس

---

[1]مؤنس حسين: الجغرافيّة والجغرافيّون للأندلس، صحيفة العهد المصري، الدّراسات الإسلاميّة، مدريد، المجلدات 7-8، 1959-1960، ص343.

[2]التادلي، المصدر السابق، ص118.

[3]المصدر نفسه، والصّفحة نفسها.

[4]المصدر نفسه، ص155.

[5]عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة ألمرية الإسلاميّة، قاعدة أسطول الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، 1984، ص184.

أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التّجيبيّ" الزاهد ويعرف بـ"ابن الإقليشي" فبرز في علوم الحديث واللّغة والأدب وسمع الحديث من صهره "أبي الحسن" "لطارق بن يعيش" و"أبي بكر بن العربي" و"أبا العباس بن العريف"[1] للإقليشي مؤلفات منها: كتاب "الكواكب "وكتاب "النّجم من كلام سيد العرب والعجم". ومن متصوفيّ الأندلس الذين لعبوا دورًا سياسيا في تزعم ثورة المريدين "أحمد بن قيسي" زعيم المريدين في تسلب غرب "الأندلس" والذي كان من تلاميذه "ابن العريف" والذي التفّ حوله الأنصار والأتباع حيث كان يلتقي بهم في رباط أقامه في تسلب إلى أن ذاع صيته ووصلت شهرته الآفاق وقد استغل وفاة "علي بن يوسف" واشتغال "تاشفين" بصراعه مع "عبد المؤمن ابن علي" وأعلن الثّورة على المرابطين في غرب "الأندلس"[2].

هـ/ الطّب: تطوّرت العلوم الطّبيّة والصّيدلانيّة في عصر المرابطين تشهد به أسماء الأعلام التي تألّقت في حضارة "الأندلس" و"المغرب" وأشهرها: "ابن زهر" وهو اسم طبيب أندلسيّ و"نسيب أبو مروان عبد المالك بن زهر " إلى أسرة أندلسيّة لمعت في ميدان الطّبّ والعلوم الطّبيعيّة والكيميائيّة وعميدها هو "أبو مروان عبد الملك" ابن الفقيه "محمد بن مروان بن زهر الأيّاديّ الإشبيليّ، الذي كان متميّزًا في علم الحديث "بإشبيليّة" ثمّ جاء من بعده بعد وفاة أبيه ولده "أبو العلاء زهر بن عبد الملك" وقد ورث عن أبيه تفوّقه ونبوغه في الطّب وحظي بمكانة عظيمة لدى حكومة المرابطين ومن مؤلّفاته كتاب: "الخواص"، وكتاب "الأدوية المفردة"، وكتاب "الإيضاح بشواهد الافتضاح"، توفي "زهر" في "قرطبة" سنة (525هـ-1131م)[3]. وقد خلفه "أبو مروان عبد الملك بن زاهر" المعروف في الغرب باسم(Aven Zoo)، وقد برع في الطّبّ براعة أبيه وجدّه وذاع صداه في "المغرب" والأندلس". وهكذا كانت له مكانة مرموقة لدى الأمراء المرابطين، فقد صنّف لأمير "أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين" كتابا سمّاه: "الاقتصاد في صلاح الأجساد" ومن مؤلّفاته كتاب: "التّسيير في المداواة والتّدبير"، وقد ألّفه القاضيّ الفقيه "أبو الوليد بن رشد" ويعتبر هذا الكتاب من أعظم مراجع الطّبّ في العصور الوسطى، وله

[1] التادلي، المصدرالسابق، ص118.

[2] علي محمد الصّلابيّ، المرجع السابق، ص321.

[3] ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص49.

أيضًا كتاب "الأغذية"، ومقالة في "علل الكلى" ورسالة كتب بها إلى بعض أطبّاء إشبيليّة في علّة البرص والبهاق، وقد وشي "بعبد الملك" إلى أمير المسلمين "علي بن يوسف" فاستدعاه إلى "مراكش"، وسجن بها مدّة ثمّ أطلق سراحه وعاد إلى "إشبيليّة" حيث مكث بها إلى أن توفيّ عام (557هـ)، وخلفه ولده الطّبيب الأشهر "أبو بكر بن زهر" الذي كان له مكانة سامية عند خلفاء الموحدين[1].

ونذكر أيضًا من الأطباء الذين برعوا في عصر "علي بن يوسف": "أبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوي"، وكان له كتاب: "الشّفا"[2]، و "أبو عامر محمد بن يحي بن محمد بن خليفة بن ينق" هذا الأخير الذي لازم "أبا العلاء بن زهر" بإشبيلية وأخذ عنه الطّبّ والأدب[3]وغيرهم.

ومن هنا نستنتج: اهتمام المرابطين بالطّبّ ومن أجل ذلك كان هناك منصب عرف "برئيس الصّناعة الطّبيّة" وهو تقريب منصب يقابله اليوم "وزير الصّحة".

و/علم الفلك والتّنجيم والفلسفة: يعتبر علم الفلك والنّجوم من العلوم التي أحبّها "المغاربة" وقد بدأ الحكّام على تشجيع العلماء لدراسته، ولطالما عُدَّ هذا العلم من العلوم التي تحفّز النّفس البشريّة إلى الاستطلاع، لهذا نجد خلفاء الإسلام في العصور الوسطى لا يقدّمون على أيّ أمر حتّى يستشيروا المنجّمين، كما أنّ هذا العلم يرتبط بالجوانب الحياتيّة في الجانب الدّينيّ خاصّة مواقيت الصّلاة وإهلال الأهلّة[4]. كما أنّ الأمراء المرابطين كانوا خير سند لهؤلاء العلماء المنّجمين لحاجة النّاس إليه وارتباط ذلك أيضًا بالجانب الاقتصاديّ أيضًا خاصّة ما تعلّق بالنّشاط التّجاريّ البحريّ من خلال معركة حركة المد والجزر وتزويد التّجار والملّاحين بأحوال الطّقس والمناخ[5]. ومن بين أهل العلم نذكر

---

[1]محمد عبد الله عنان، المرجع السّابق، ص474.

[2]خير الدّين الزركلي، وفيات الأعيان، ج5، ص318.

[3]ابن سعيد، المغرب في حليّ المغرب، المصدر السابق، ج2، ص388.

[4]جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصريّ المرابطين والموحدين (448هـ-1056م) إلى (668هـ-1269)، دار الوفاء، ط1، الإسكندريّة، 2001، ص300.

[5]إبراهيم القادريّ بوتشيش، حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في المغرب الإسلاميّ، دار الطّليعة، ط1، لبنان، 2006، ص105.

"محمد أبو بكر بن الصائغ" المتوفيّ بمدينة "فاس" عام (533هـ-1138م)، و"علي بن محمد القطّان" والعالم "ابن أبي الصّلت" الذي ساهم في تطوير علم الفلك في العصر المرابطيّ، وفي هذا الصّدد يقول السّيوطيّ: "كان ماهرًا في علوم الأوائل رأسًا في معرفة الهيئة والنّجوم، كثير التّصانيف، بديع النّظر وله رسالة في العمل بالإسطرلاب*[1]، وقد حظي هذا العلم باهتمام كبير من حكام المرابطين فبوصول "يوسف بن تاشفين" إلى الحكم وشروعه في بناء العاصمة "مراكش" بدأ في استقطاب المنجّمين، وتقول بعض المصادر أنّ هؤلاء تنبّأوا للعاصمة المغربيّة بأنّها تتعرّض للحصار، وهذا ما جعل الأمير يفكّر في إخفائها عن الأعداء[2].

2. الحياة الأدبيّة:

لمّا قامت الدّولة المرابطيّة لم يكن لدى المرابطين اهتمام بالآداب والشّعر عكس ما كان في بلاد بني العباد، وبالرّغم من ذلك لم يكن الوضع سيّئًا في عصر المرابطين ولعلّ الصّورة القائمة التي نتصوّرها عن الحركة الأدبيّة في عصر المرابطين وتأخرها عمّا كانت عليه في عصر الطّوائف وخاصّة في ميدان الشّعر وربّما يرجع السّبب إلى التّعصّب الأندلسيّ والذي عبّر عنه "الشّقندي" ففيها مبالغة في الثّناء على ملوك الطّوائف ومدى اهتمامهم بالشّعر والمكانة المرموقة التي بلغها الشّعراء في عهدهم يقول الشقندي: "فما كان أعظم مباهاتهم إلّا قول العالم الفلانيّ عند الملك الفلانيّ والشّاعر الفلانيّ مختص بالملك الفلانيّ وليس منهم من بذل وسعة في المكارم... وسمعت عن الملوك العربيّة "بنو عبّاد" و"بنو صمادح" و"بنو الأفطس" و"بنو ذي النوى" و"بني هود" كلّ منهم قد خلّد فيه من الامتداح ما لو مدح به اللّيل لصار أضوء من الصّباح[3].

هذه الصّورة التي رسمها الشقنديّ لحال الشّعر في عصر المرابطين، الذي ربّما ينطبق على فترة حكم "يوسف بن تاشفين" الذي كان عصر جهاد وكفاح، إلّا أن عصر

---

[1]*التّنجيم أو علم الهيئة: علم يعرب منه الاستدلال بالتّشكلات الفلكيّة وأوضاعها.

ينظر: طائش كبرى زادة، مفاتيح السّعادة ومصباح في موضوعات العلوم، دار الكتب العلميّة، ج2، ط1، بيروت، 1985، ص313.

[2]إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات مفقودة، المرجع السّابق، ص ص 107-108.

[3]المقري، نفح الطّيب، المصدر السابق، ج4، ص188.

"علي بن يوسف" قد ازدهر الشّعر وكان الجيل الثّانيّ الذي تبع جيل "يوسف بن تاشفين" كان يستسيغ النّثر والنّظم ولحن الغناء وعادت مجالس الأمراء عامرة بالشّعر والمدّاحين يقول "غرسية جومث" في هذا الصّدد عن عصر "علي بن يوسف": "إنّ الشّعر الأندلسي لم يمت في عصر المرابطين، وكلّ ما حدث أنّه كيف نفسه بما يلائم الظّروف الجديدة التي أحاطت به، بيد أنّه من الإنصاف أن تقرّر أن خلفاء "يوسف بن تاشفين" لم يلبثوا أن استسلموا لسلطان الثّقافة الأندلسيّة القاهرة، وأصبحوا أقرب إلى الأندلسيّة منهم إلى الأفارقة"[1].

ومن بين أهمّ الشّعراء الأندلسيين نذكر: "أبا العبّاس أحمد بن عبد الله القيسي" المعروف "بالأعمى التّيطليّ" الذي مدح الأمير "علي بن يوسف" في قصيدة منها هذا البيت:

جنابك للعلا حصن حصين **** وذكرك للمنى دنيا ودين [2]

وكذلك الشّاعر "أبو بكر بن سهل" والشّاعر "محمد بن عبد الرّحمن العقيلي الجراويّ" وكذلك الفقيه "أبا بكر بن يحي بن محمد بن يوسف"؛ ولقد حظي الشّعراء في هذا العصر بمكانة مرموقة ومنهم الأمير "أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين" المعروف "بابن تافلويت" الذي كان قصره محطّ أنظار الشّعراء، نذكر منهم الشّاعر الأندلسيّ الكبير "ابن خفاجة" والذي مدح "ابن تافلويت" في قصيدة منها هذا البيت:

فالعمري إن لم أثبك أبا إسحاق **** أني أذن لعين اللّئيم [3]

*كما حظي فقهاء الدّولة المرابطيّة بمدح هؤلاء الشّعراء لمكانتهم العالية التي كانوا يستغلّونها في الدّولة فمثلا: "الأعمى التيطلي" مدح القاضيّ الفقيه "ابن حمدين" قاضي الجماعة "بقرطبة" بقوله:

إليك ابن حمدين وإن بعد المدى **** وإن غربت بي عنك المغارب [4]

---

[1] غرسية جومث، الشّعر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، القاهرة، 1902، ص165.

[2] الأعمى التيطلي، الدّيوان، تح: إحسان عباس، بيروت، 1963، ص222.

[3] المصد نفسه، ص 187.

[4] المصد نفسه، ص38.

وإلى جانب المدح كان أيضا النّقد والذّم للمرابطين وفقهاء دولتهم، وممّن اشتهر بالهجاء في هذا العصر الشّاعر "أبو بكر بن يحي بن الشهل اليكي" الذي هجا المرابطين:

لا تطلبنّ مرابطا ذا عفّة **** وأطلبه شعاع النّار في الغدران[1]

ونذكر الهجائيين: "أبو جعفر أحمد بن محمد" المعروف "بابن البنى" الذي هجا فيها فقهاء المرابطين بقوله:

وركبتم شهب الدّوابّ بأشهب **** وبأصبغ صبغت لكم في العالم[2]

ازدهر وتطوّر الشّعر في عصر "علي بن يوسف بن تاشفين"، وظهر لون آخر فيه وهو شعر الطبيعة ومن بين الشّعراء الذين نبغوا فيه: "ابن سارة الشّنتريني"، "ابن الزّقاق""ابن خفاجة البلنسيّ" و"عبد الحقّ بن عطيّة"، وأمّا فيما يتعلّق بالنثر فظهرت الرّسائل الدّيوانيّة ويتميّز هذا النّوع باستخدام المحسّنات البديعيّة كالسّجع والجناس"[3]، ومن أشهر كتاب المرابطين: "ابن خقان"، "ابن عبدون"، "ابن الجد" و"ابن الصّيرفي"... وكذلك الرّسائل الإخوانيّة كالرّسالة التي كتبها "ابن عبدون" إلى "أبي عبد الله محمد أبي الخصال" يخطب مودّته يقول فيها: "وأنا ما قصدت فيها خطبت به إليك لآخذ عليك بفضل الابتداء وإنّما سلكت سيل الافتداء، واتبعت دليل الاهتداء..."[4].

<u>الموشّحات والأزجال:**</u> فنّ الموشّحات أندلسي المنشأ يقول "ابن خلدون": "وأمّا أهل الأندلس، فما كثر الشّعر في قطرهم وتهذيب مناصبه وفنونه..."[5]، ومن أشهر وشّاحيّ هذا العصر: الشاعر "الأعمى التيطلي" وكذلك الفيلسوف "ابن ماجه"... .

أمّا الزّجل يقول "ابن خلدون": "أنّه لمّا شاع فنّ الموشّحات في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه..."[6].

---

[1]ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص266.

[2]المرّاكشيّ، المعجب، المصدر السابق، ص171.

[3]سالم، قرطبة، المرجع السّابق، ج2، ص182.

[4]المراكشي، المعجب، المصدر السابق، ص 168-169.

[5]ابن خلدون، المقدّمة، المصدر السابق، ص583.

[6]المصد نفسه، والصّفحة نفسها.

وكان أوّل من ابتكر الأزجال "أبو بكر بن قزمان القرطبيّ" المتوفيّ في عام (555هـ)، وقد اشتهرت أزجال "ابن قزمان" في المشرق والمغرب على السّواء وجمعت في ديوان خاصّ[1]ومن موشّحه في مدح القاضيّ "أحمد بن الحاج" قوله:

و صل المظلوم لحقّ وانتصف غنيّ ومسكين **** يحضر الانكار والإقرار ويقع الفصل فالحين

[1]ابن سعيد، المصدرالسابق، ج1، ص168.

المبحث الثّالث: تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في الجوانب الحضاريّة للمرابطين

- ✓ **المطلب 1:** تأثير تطور الفكر السياسي في النظام الإداري
- ✓ **المطلب 2:** تأثير تطور الفكر السياسي في الجانب الاقتصادي
- ✓ **المطلب 3:** تأثير تطور الفكر السياسي في الجانب الاجتماعي
- ✓ **المطلب 4:** تأثير تطور الفكر السياسي في الجانب الثقافي والديني

المبحث الثّالث: تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في الجوانب الحضاريّة للمرابطين

المطلب الأوّل: تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في النّظام الإداريّ

إنّ قيام دولة المرابطين قد ترك آثارًا بعيدة المدى عميقة الأثر في تاريخ المغرب وتاريخ الأندلس، ذلك أنّ الدّولة الجديدة استطاعت لأوّل مرّة أن توحد في المغرب الأقصى بين العدوتين السّاحليّة التي سادت فيها المؤثرات الحضاريّة الأندلسيّة والتي ينزل بها قوم يشتغلون بالزّراعة، بينما المنطقة الأخرى الهضبيّة والجبليّة التي كانت في الواقع بربريّة لم تنفذ إليها المؤثرات الثّقافيّة الأجنبيّة، وكان أهلها يعتمدون في حياتهم على التّنقل والترحال.

لقد ترك قيام الدّولة المرابطيّة أثرًا واضحا في ناحية أخرى حيث كانت هذه الأخيرة جدارًا منيعا لصدّ زحف بني هلال على بلاد المغرب بعد أن نالوا من "القيروان" وهدّدوا الدّولة الحمادية حيث وضعت حامية قويّة في "تلمسان" استطاعت أن تجنّب المغرب الأقصى شرّ بني هلال ولأنّهم علموا أن المغرب الأوسط منطقة استراتيجيّة تتحكم في الطّريق الموصل إلى المغرب الأقصى، والدّليل على ذلك ما قام به "يوسف بن تاشفين" في تولية القائد اللمتوني*[1] الشّهير "مزدلي" فاتح "بلنسيّة" يرعى شؤونه ويحرس مالكه[2].

وقد أدّى دفاع المرابطين على سيادة المغرب الأوسط ضدّ عرب بني هلال إلى اصطدامهم بالحماديين بعد أن آزروهم في فتح المغرب الأقصى إلّا أنّهم لم يكونوا مرتاحين لذلك، وظلّوا يتحينون الفرصة حتّى عبرت قوات المرابطين إلى الأندلس وهاجموا المغرب الأوسط لانتزاعه من المرابطين ممّا جعل "يوسف بن تاشفين" يغادر الأندلس ويرجع إلى المغرب لمواجهة هذا الخطر الداهم[3].

---

[1]*نسبة إلى لمتونة وهي أولاد لمط وجدالة ولمط ومصطوف حيث أنّ لمط جد لمتونة ابن وجدال جد جدالة ولمط جد لمطة ومصطوف جد مسوفة وكلهم ينتسبون إلى صنهاجة.

ينظر: الحلل الموشيّة، المصدر السّابق، ص 57-60.

[2]ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص30

[3]ابن بسام: الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: أحسان عباس، دار الثقافة، المجلد الثّانيّ، بيروت، 1417-1997، ص105.

ولقد كان لقيام دولة المرابطين نتائج بعيدة المدى في إحداث توازن القوى في الجزء الغربيّ من البحر الأبيض المتوسط وذلك لظهور قوّة النورماند بجنوب "إيطاليا" الطامحون للوصول إلى "صقليّة" وفي الوقت نفسه عمدت أساطيل جمهوريّات "إيطاليّا" إلى تهديد الملاحة في المنطقة، وراحت مملكة "قشتالة" و"ليون" تبسط ظلّها على الأندلس وتذل ملوك الطّوائف ولكن بقيام دولة المرابطين بسطت ظلّها على الساحل المطل على "بحر الرّوم" وبدأت تنشأ أسطولا بحريا بعد فتح "سبتة" و"طنجة" واستطاعوا أن يوقفوا توسّع الفرنجة في "الأندلس" وأن يبددوا فرق الاسترداد وأن يستولوا على جزيرتي "ميورقة" و"منورقة"[1].

استطاعت الدّولة الفتيّة أن تقضي على السّياسة التي سارت عليها البابويّة لإثارة حرب صليبية في الغرب ومن جهة أخرى لعبت دورًا كبيرًا في تاريخ المعركة الصّليبيّة التي كانت توشك أن تشتعل نارها في الشّرق طامحة للاستيلاء على بيت المقدس، يقول "ابن الأثير" في هذا الصّدد:" من بعض هؤلاء الملثمين رحلوا بعد الحملة الصّليبيّة الأولى إلى بغداد وخطبوا في الناس سينهضون الهم ويلهبون الحماس في النّفوس ويدعون إلى الجهاد في الشّرق كما دعوا إليه في الغرب"*[2].

استطاعت دولة المرابطين أن تجمع بين "المغرب" و"الأندلس" وأن تبسط نفوذها حتى إقليم "السنغال" و"النيجر" وهكذا تلاقحت المؤثرات الأندلسية والمغربية والسودانية وعملت على إقامة مجمع فاضل مبني على أساس إحياء السنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان تأثير ذلك واضحا على وضع الدولة الشرعي وفي ألقاب ولي الأمر وفي السكة ونظم الحكم وفي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ونحن نعلم هذه المبادئ كلها دعى إليها مؤسس الدولة للفقيه "عبد الله بن ياسين" ومحاربته للعقائد الضالة وتوجيه المجتمع الجديد الوجهة التي يريدها دون أن يطمع في ملك أو سلطان، لما كانت مذاهب

---

[1] التادلي، المصدر السّابق، ص106.

[2] قال ابن الأثير: وفي سنة 499هـ، ورد إلى بغداد إنسان من الملثمين ملوك للغرب قاصدا إلى دار الخلافة فأكرمه وكان معه إنسان يقال له الفقيه من الملثمين أيضا فوعظ الفقيه في جامع القصر، واجتمع له العالم العظيم وكان يعظ وهو ملثّم، بل روى ابن الأثير أيضًا أنّ بعض هؤلاء الملثّمين قد شارك الأفضل في حربه مع القوى الصّليبيّة في الشّرق.

السنة تنادي بالإمامة لقريش[1]، ولما كانت رسالة الدولة الجديدة هي إحياء تعاليم السنة كان من الطبيعي أن تعترف بإمامة قريش ومن الطبيعي أيضا أن نتيجة الدولة الفتية صوب العباسيين تلتمس منهم العون والتأييد، ولم يكن من الطبيعي أيضا أن يعرف المرابطون بالشيعة وهم المالكيون المتعصبون الذين يكفرون بني عبيد، وقد تمثل إيمان المرابطين بأحقية بني العباس في الإمامة والخلافة في ما نسب إلى "يوسف بن تاشفين" حين طالبه قومه بأن يتخذ لقب "أمير المؤمنين" فقال: "حاشا الله أن تسمى بهذا الاسم إنما تسمى به خلفاء بني العباس..."[2].

والسؤال المطروح متى اتصل المرابطون "ببغداد" يطلبون الاعتراف بهم كولاة شرعيين يدينون للخلافة بالطاعة؛ نسب المؤرخون ذلك إلى "يوسف بن تاشفين" بعد معركة الزلاقة يعني بعد 479هـ، ويذكر البعض الآخر أنه راسل الخليفة "أبا العباس أحمد المستظهر" ونحن نعلم أن هذا الأخير ولي الخلافة سنة 487هـ؛ يعني بعد "الزلاقة" وفريق آخر قال إنه اتصل بالخليفة "المقتدي بأمر الله" والدي ولي الخلافة سنة 467هـ إلى 487هـ وكان معاصرا للزلاقة وتؤكد مراجع أخرى هذا الاتصال وتقول بأن "يوسف" كان يفخر بأنه معيد دعوة أمير المؤمنين[3].

ومنه نستنتج أنه لم يكن من المعقول أن يتصل "يوسف" بالخليفة العباس قبل سنة 480هـ، وهي السنة التي توفي فيها "أبو بكر بن عمر" وتمت البيعة "ليوسف" رسميا فلا يستبعد أن يكون "يوسف" قد اتصل "بالمقتدي" يطلب منه الاعتراف بشرعية حكمه ولما توفي "المستظهر" سنة 487هـ وخلفه "المقتدي" اتصل به "يوسف" يطلب تجديد الاعتراف فهذا تقليد يتجدد كلما مات خليفة وخلفه آخر وهذا ما يفسر التناقض الظاهر في رواية

[1] البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبح وأولاده، القاهرة، 1910، ص249.

[2] الحلل الموشية، المصدر السابق، ص16.

[3] المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

المؤرخين كما أن "السكة" في عهد "يوسف بن تاشفين" قد نقش عليها اسم "عبد الله" أمير المؤمنين إشارة للخليفة العباس[1].

هناك ملاحظة أن اسم الخليفة العباسي المنقوش على السكة المرابطية هو "عبد الله أمير المؤمنين" وقد ظل هذا الاسم كما هو حتى آخر عهد الدولة، فكان دلك سببا في أن بعض الباحثين أثاروا جدلا حول اسم "عبد الله" المنقوش على السكة، فقالوا أنه قد يكون اسم "عبد الله بن ياسين" صاحب دعوة المرابطين ولكن "عبد الله" كما نعلم لم يتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين، ولم يكن من الممكن أن يتخذ هذا اللقب وهو يعلم أنه من ألقاب الخلافة ثم أن الخليفة المعاصر لقيام دولة المرابطين هو "أبو جعفر عبد الله القاسم بن عبد القادر" الذي ولي سنة 462هـ إلى 467هـ، ثم خلفه من سنة 467هـ-487هـ وكلا الخليفين يسمى "عبد الله"، كما أن صاحب شذور العقود[2] يفسر النقوش التي ذكرت على السكة المرابطية هكذا "في دينار لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ... وكتب في الصفحة الأخرى الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع السكة..."[3].

كما أن المرابطين قد اتخذوا السواد شعارا لهم لأن أعلام العباسيين وأشعرهم كانت سوداء فقد ذكر "التيجاني" صاحب الرحلة المعروفة حينما عرض للقتال بين "الموحدين" وبين "بني غانية الملثمين" أن شعارهم كان أسود اللون في حين كان شعار الموحدين أخضر اللون لأنهم كانوا يميلون للدعوة العلوية[4].

<u>أثر قيام دولة المرابطين في نظم الحكم:</u>

هذه الروح التي أملت على المرابطين أن يخطبوا للخلفاء العباسيين على منابرهم جعلهم أن لا يتخذوا من الألقاب ما يتعارض مع الخلافة "لقب أمير المؤمنين" ويظهر ذلك جليا

---

[1]ابن المؤفق المراكشي، السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، طبع بمطبعة الباني، لحلبي وأولاده، ج2، القاهرة، 1341هـ، ص90.

[2]المقريزي، شذور العقود في ذكر النقود، ص66.

[3]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4]يوسف أشياح، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ج1، ط2، 1417هـ-1996م، ص240.

عند صاحب الحلل الموشية[1] إلى "يوسف بن تاشفين" حينما أراد قومه أن يلقبوه بألقاب الخلافة فأبى ذلك وقال: "أنّ هذا اللقب من ألقاب الخلفاء العباسيين القريشيين الهاشميين..."إذن هناك سؤال يطرح نفسه: يا ترى ما هي الألقاب التي خلعها المرابطون على أنفسهم؟

اتّخذ أولي الأمر من المرابطين لقب "الأمير" أول الأمر وظلّ كذلك ينقش على السّكة منذ سنة (450هـ) طوال حكم "أبي بكر بن عمر"، وما إن تولى "يوسف بن تاشفين" حدث تغيّر في ألقاب الأمراء حيث اتّخذ لقب "أمير المسلمين" فمتى اتّخذ "يوسف" هذا اللّقب؟ وما هي الظّروف التي هيأت له أن يتخذ لقبا هو أقرب من لقب الخلافة العبّاسيّة؟ قسّم المؤرخون حياة "يوسف بن تاشفين" إلى فترتين: الأولى ظلّ يتّخذ لقب "الأمير" شأنه شأن أسلافه وأمّا الفترة الثّانيّة اتّخذ فيها لقب "أمير المسلمين" وقد أشار صاحب الحلل الموشية إلى ذلك[2].

و يخيّل إلينا أنّ "يوسف بن تاشفين" لم يتّخذ هذا اللّقب إلّا بعد اشتراكه في معركة الجهاد في "الأندلس"، وعلى ما يبدو أنّ الأمر كان للأندلسيين والفقهاء وذوي الرأي أنّهم خلعوا عليه هذا اللّقب اعترافا بفضله وإشادة بالجهود التي بذلها في محاربة "ألفونسو السّادس" وانتصاره للمسلمين وفي هذا الصّدد يذكر صاحب شذور العقود ذلك بقوله: " فلمّا فتح يوسف بن تاشفين الأندلس وصنع غزاة الزلاقة بايعوه وسلّموا عليه بأمير المسلمين، وهو أوّل من تسمّى بأمير المسلمين من ملوك المغرب"[3].

لقد أثّرت طبيعة قيام الدّولة المرابطيّة في طريقة اختيار ولي الأمر التي اعتمدت على شعب صنهاجة الجنوب من الملثمين[4] وكانت قبيلة "لمتونة" سيدة شعب الملثمين وصاحبة الكلمة فيه، فكان من الطّبيعيّ أن يكون ولي الأمر "لمتونيا" من القبيلة الغالبة ولما كانت رئاسة "لمتونة" في بني ورتنطق كان لا بدّ أن يكون ولي الأمر من بني ورتنطق وكان

[1] الحلل الموشية، المصدر السابق، ص17.

[2] الحلل الموشية، المصدر السابق، ص17..

[3] المغريزي، المصدر السابق، ص66.

[4] يوسف أشباح، المرجع السابق، ج2، ص273.

منهم: "يحي بن عمر"، "أبو بكر بن عمر"، " يوسف بن تاشفين" و"علي بن يوسف" وجميع خلفائه[1]، ولم تكن البيعة عامّة ولم يكن حقّ الاختيار مطلقا بل كان على الشّعب أن يختار أميره من هذا الشّعب ومن قبيلة "لمتونة" ومن شعب "صنهاجة"، لكن الدّور الذي اضطلعت به الدّولة في إحياء السّنة والسّير وفق تعاليمها قد جعلها تعمد إلى نوع من الثورة في اختيار الأمير، فكانت تقام البيعة من زعماء القبائل ثمّ يتلى العقد في المساجد ويقرئ على النّاس ثمّ يخطب للأمير على المنابر إلى جانب خلفاء "بني العباس" وينقش اسمه على السّكة والطّرز والبنود[2].

أمّا نظام ولاية العهد فالمرابطون عرفوا بتقاليدهم البدويّة والمذهب الذي أحيوه – المذهب المالكي– كما أنّ هذه المجتمعات لم تعرف مبدأ التّوريث ولقد ظهرت التّقاليد البدويّة بوضوح في طريقة اختيار الأمراء في أوّل العهد بالدّولة، فقد بايع "عبد الله بن ياسين" الأمير "يحي بن عمر" لتحمّسه للدّعوة فلمّا مات "يحيى" بويع "لأبي بكر بن عمر" وهو من نفس البيت ومن نفس القبيلة، ولم نسمع أنّ يحيى قد ولّى أحد عهده أحدًا، ومن الممكن أنّ بعض النّقود ظهر عليها اسم " إبراهيم بن أبي بكر" وأنّ هذه النّقود خربت "سلجماسة"*[3].

وأمّا صك النّقود باسم "إبراهيم بن أبي بكر" لا يعني أنّه كان ولي عهد إنّما كان أميرا على "سلجماسة" في الوقت الذي كان "يوسف بن تاشفين" أمير على المغرب، وقد افضت التّقاليد بأن يتمتّع كلّ أمير شبه استقلال محليّ لولايته وأن يكون له حقّ صكّ النّقود باسمه وأمّا "يوسف بن تاشفين" الذي خلف "أبا بكر بن عمر" فلقد اختير بسبب إحرازه الانتصارات في معارك "المغرب" و"الأندلس"، ومن هنا نستنتج أنّ الدّولة المرابطيّة حتّى عهد "علي بن يوسف" لم تكن تعرف نظام ولاية العهد، كما تبيّن أن طريقة اختيار هؤلاء الأمراء كانت تقول بالشورى واختيار الأفضل والأصلح.

---

[1] المرجع نفسه، والصّفحة نفسها.

[2] المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3] *سجلماسة: تقع في صحراء المغرب بينها وبين فاس عشر مراحل ومنها إلى أغمات ثمانية مراحل.
ينظر: ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996، ص90.

وفي عهد "يوسف بن تاشفين" ظهر نظام ولاية العهد وهو تطوّر جديد في النّظم المرابطيّة لأوّل مرّة وهذا لاتّساع رقعة الدّولة وانبساط ظلّها في "المغرب" و"الأندلس" وإقليم الصّحراء حتّى "نهر السنغال" و"النيجر" فأراد أن يضع للدّولة نظاما يكفل الوحدة ويحسم داء الخلاف[1] خصوصا وأنّ الدّولة في مرحلة النّشأة ثمّ أصبح تقليدًا سار عليه خلفاؤه روى المؤرخون أن "يوسف" لما قدم إلى "الأندلس" سنة (496هـ-497هـ)، كانت "بلنسية" قد سقطت وكان المرابطون قد احرزوا نجاحا في المعركة الصليبية وهدأت الأحوال في البلاد، وقد أحضر معه ولده عليا وأخذ له البيعة "بقرطبة"[2]، وقد أتى صاحب كتاب "الحلل الموشية" بنص عقد البيعة*[3]، وهي وثيقة هامّة تلقي الضّوء على نظام ولاية العهد كما وضعه "يوسف بن تاشفين" منطلقا من البيعة ثمّ عقد البيعة وذكر الأسباب التي حملته على اختيار ولي العهد ثمّ وضع الشروط التي يجب أن تتوفر في ولي العهد وأخذ البيعة من الحاضرين ثمّ توقيع الوثيقة*[4].

- من خلال الوثيقة نكشف أمرا مهما هو تمسّك "يوسف بن تاشفين" بالشورى وحرصه على استشارة أهل الرأي تحقيقا للتقاليد الإسلامية والبدويّة معا على القرب والنأي فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلا أن يسترعي فيما استرعاه[5].

وكان ولي العهد يتّخذ لقب "الأمير" كما تبيّن من عقد البيعة ومن الألقاب المنقوشة على السّكة، وكان اسمه ينقش على السّكة إلى جانب اسم أبيه فيقال: " الأمير علي بن الأمير يوسف" ويقال أحيانا أخرى: " الأمير يوسف وولي عهده الأمير علي".

---

[1] الحلل الموشية، المصدر السابق، ص ص56-57.

[2] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص458.

[3] *نص عقد البيعة: وهو من إنشاء الصفية أبي محمد بن الغفور.

ينظر: الحلل الموشية، ص56-57.

[4] *أمّا بعد فإنّ أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباد الله المؤمنين... ورأوه أهلا أن يسترعى في ما استرعاه فاحضروه مشترطا عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط فقيل ورطي...

الحلل الموشية، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[5] المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

– تفطّن المؤرخون إلى أمر مهم وهو ضرورة بقاء القبائل المؤسسة للدّولة أن تبقى موحدة ومتآلفة وفي هذا الصّدد يقول "ابن خلدون" و"الطرطوشي" صاحب كتاب "سراج الملوك" حين قال:" ويدخل تحت هذه الترجمة أمرا تقف عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند وهو أن تصطنع وجوه كلّ قبيلة والمتقدمين من كلّ عشيرة وتحسن إلى حملة القرآن والعلم وتقرّب الصالحين والمتنزهين، فكمال السّياسة والرياسة أن تبقى كلّ ذي رياسة وعلى كلّ ذي زعزعته وعلى كلّ ذي منزلة منزلته"[1].

وقد وضع أمراء المرابطين هذه السّياسة نصب أعينهم فقد روى "ابن خلدون" أن "يوسف" اقتسم "المغرب" عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه[2]، وكان ولاة "المغرب" جميعهم من قبيلة "لمتونة" على الخصوص أو من "صنهاجة" على العموم، وقد كان "يوسف بن تاشفين" نفسه قبل أن يصير إليه الأمر عاملًا على "المغرب" من قبل "أبي بكر بن عمر"، أمّا مدينة "فاس" و"سبتة" فقد وليهما الأمير "أبو بكر بن إبراهيم" وولى "تلمسان" "تاشفين بن تينامر" و "الأمير مزدلي"[3] وولي "أبو بكر بن محمد اللّمتوني" بلاد الفرس وكان "أبو بكر بن إبراهيم" قبل أن يولى "فاس" عاملا إقليم الصحراء[4]، وأمّا "سجلماسة" فقد وليها "إبراهيم ابن أبي بكر بن عمر" و"أبو عبد الله بن أبي رنفى"[5] كما كان عامل دكالة من قبيلة "لمتونة"[6].

لم يختلف الحال في "الأندلس" عنه في " المغرب" فقد ولي "يوسف" على "غرناطة" "عليا أبي يوسف" و"أبا الحسن علي بن الحاج" و"موسى بن الحاج" و"أبا بكر بن براهيم" و"يحي بن أبي بكر بن براهيم" و"أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين" و"أبا محمد مزدلي" و"أبا محمد تاشفين بن علي بن يوسف" و"أبا بكر بن أبي محمد" و"عثمان بن بدر اللمتوني"[7].

---

[1]الطّرطوشي، المصدر السابق، ص114.

[2]ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص185.

[3]مؤلف مجهول، المصدر السابق، مفاخر البربر، ص138.

[4]لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص404.

[5]ابن خاقان، الصدر السابق، ص911.

[6]ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ص49.

[7]ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص141.

وأمّا "قرطبة" فقد وليّها "محمد بن الحاج بن عمر الصنهاجيّ" وولده "المنصور" و"أبو محمد بن علي " و"الزبير بن عمر الملثّم"[1]. وولى "سرقسطة" "أبو عبد الله محمد بن الحاج" و"أبو بكر بن إبراهيم" و"ابن تيفاويت"[2]، وفي "ألمريّة" "عمر بن الإمام بن المعتز الصّنهاجيّ" و"تاشفين بن علي"[3]، وولي "بلنسية" الأمير "مزدلي" و"أبو عبد الله بن فاطمة[4].

نستنتج من كلّ ذلك أنّ الدّولة المرابطيّة كانت أمينة على تراثها القبلي حريصة عليه بقدر الطّاقة على أن تؤلف بين قلوب الأمراء والأشراف وشيوخ العشائر والقبائل حتّى يظلّ الحلف قويا، وكانت كلّ قبيلة تتمتع باستقلال ذاتيّ في نطاق هذه الوحدة العامّة ومنه يخيل إلينا أن نظام حكم المرابطين في عهد المرابطين أنّه نظام إقطاعيّ لا مركزيّ وكانت بلاد "الأندلس" ولاية شبه متنقلة يحكمها نائب من قبل أمير المسلمين مطلق السّلطة ولا يتحصّل على هذا المنصب الخطير إلّا أقرب المقرّبين من ولي الأمر من ذوي قرباه[5]. وقد كان له ولاة العهد على "الأندلس" يولّون في حياة أبيهم، وممّن كان له الحظّ بالولاية على "الأندلس" القائد "سير بن أبي بكر" الذي أخضع ملوك الطّوائف وبسط سلطان المرابطين في البلاد[6].

وكان نائب أمير المسلمين يتّخذ "غرناطة" أو "إشبيلية" مقرًّا لحكمه[7]، وكانت سلطتهم مطلقة فقد كانوا يولون الولاة ويعزلونهم وتبين ذلك من كتاب "ليوسف بن تاشفين" بعث به إلى أحد هؤلاء النّواب جاء فيه: " استعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها وأخرج كلّ من يحيف عليها... أو غير رسما أو بدّل حكما أو أخذ لنفسه منها درهمًا ظلما فأعزله..."[8]. وكانوا أيضا يولون القضاة ويعزلونهم فقد روى أن الأمير "سير" نقل القاضي "ابن شبرين"

[1]مؤلف مجهول: مفاخر البربر، المصدر السّابق، ص80.

[2]ابن الآبار: التكملة لكتاب الصّلة، طبعة الشّيخ فنزالت، بلنسية، ج2، 1915، ص338.

[3]ابن الآبار، المصدر نفسه، ج2، الصفحة عينها.

[4]ابن خلدون، مفاخر البربر، المصدر السابق، ص89.

[5]الحلل الموشيّة، المصدر السّابق، ص13.

[6]المصدر نفسه، والصّفحة عينها.

[7]مؤلف مجهول، مفاخر البربر، المصدر السابق، ص81.

[8]ابن خاقان، المصدر السّابق، ص333.

إلى قضاة "إشبيليّة"، وكان القضاة خاضعين لنائب أمير المسلمين[1]، وكانت تعقد للوالي القيادة العليا على الجيوش المرابطيّة "بالأندلس" حتّى تظلّ معركة الجهاد مستمرّة لا تتوقف، وكان الأمير يحرس أشدّ الحرص على تزويد الحرب بما تحتاج إليه من عدّة وسلاح فاتّخذ مخازن للسلاح وعمل التراس ونسج الأدرع وصنع السّيوف وربط الخيل[2] كما اتّخذوا دورًا للضّرب في "أغمات" و"تلمسان" و"سجلماسة" و"فاس" و"مراكش" و"نول لمطة" و"سبتة" و"سلا"، وكان الأمير فوق كلّ ذلك كلّه مجلس للنّظر في المظالم، ويتفرغ للمناظرة في يوم الجمعة[3].

وعلى ما يبدو أنّ ما كان يتمتّع به نائب أمير المسلمين قد تمتّع به الأمراء المحليون فقد كان نائب أمير المسلمين يولى على مقاطعات "الأندلس" رجالًا من أمراء البيت "اللّمتونيّ"[4]. وكان نائب أمير المسلمين ومعاونوه من أمراء الأقاليم يتّخذون كتابًا يطلق عليهم بعض المؤرّخين لقب وزراء[5]، فيحرّرون الرّسائل أيضًا فمثلا: اتّخذ "سير بن أبي بكر" "أبا محمد عبد المجيد بن عبدون" كاتبا[6]، وكان "للأندلس" نائبًا وأكثر من نائب في بلاد "المغرب" وقد كان نائب الأمير في إقليم "مراكش" السّاحليّة يتّخذ مدينة "فاس" لحكومته"[7].

– يذكر "بروفنسال" في مقدّمته لكتاب: " البيدق" أنّه كان يسمّى:" سلكان المغرب"[8].

لقد جاء نصّ في غاية الأهميّة لصاحب "قلائد العقيان"[9] وهو كتاب وجّهه "يوسف بن تاشفين" إلى أحد هؤلاء أمراء، ويعتبر في الواقع دستورًا في الحكم في عصره حيث يحدّد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ويضع مصلحة الرّعيّة في المقام الأوّل: " وكتب عنه

---

[1]ابن عبدون، المصدر السّابق، ص16.

[2]ابن الخطيب، المصدر السّابق، ج1، ص450.

[3]المصدر نفسه، ص446.

[4]ابن خاقان، المصدر السّابق، ص654.

[5]ابن الخطيب، المصدر السّابق، ج1، ص140.

[6]ابن خاقان، المصدر السّابق، ص417.

[7]المصدر نفسه، ص100.

[8]أبي بكر بن علي الصّنهاجي المكنّى "البيدق"، المصدر السّابق، ص29.

[9]ابن خاقان، المصدر السّابق، ص333.

أبو القاسم بن الجدّ أيّده الله ونصره إلى أبي فاطمة رحمه الله كتابا أطال الله في طاعته... وأعزّ بتقواه وشدّ فيما تتولاه أزرك وعضد بالشّديد أمرك... واجعله نكالًا لغيره حتّى لا يقدّم منهم أحدًا على مثل فعله أن شاء الله وهو تعالى".

نستنتج من هذه الوثيقة الهامّة هذه المؤثّرات الجديدة التي أحييتها دعوة "عبد الله بن ياسين" بل أكبر دليل على ما يستطيع الإسلام أن يفعله حتّى يهدي أمثال هؤلاء البدو إلى صراط الحقّ وطريق العدل؛ هذه الدّعوة انعكست على القضاة والفقهاء إيجابا ونظرة تقدير واحترام[1]، وكان ملوك الدّولة المرابطيّة يتّصفون بالتّقوى والورع والإقبال على التّفقه في الدّين وهذا كلّه جعلهم يقربون الفقهاء والعلماء منهم ويذكر أن "يوسف بن تاشفين" قرب القضاء ولا يكاد يقطع رأيا إلّا بعد استشارتهم ولقد روى المؤرخون أنّه ردّ أحكام البلاد إلى القضاة وأسقط ما دون ذلك من الأحكام الشرعيّة[2].

ومن هذا القول نستنتج: الإصلاح الخطير الذي لجأ إليه "يوسف بن تاشفين" حيث جعل القضاة أصحاب الأمر في البلاد وقادة الشّعب وأغرق عليهم الأرزاق والأعطيات وهناك ناحية أخرى جعلت المرابطين يعتمدون على الفقهاء والقضاة هي توسّعهم في تطبيق مبدأ الشّورى والذي جعله "الطّرطوشيّ" أساسًا من أهم أسس الحكم حيث قال: "سياسة الملك ثلاثة: الّين وترك الفظاظة والمشاورة". لقد حقّق المرابطون آمال "الطّرطوشيّ" كاملة وتوسّعوا في المشاورة توسّعا عظيما[3].

اهتمّ المرابطون بالقضاء في العدوتين والمتأمل في كتاب الطّبقات يستطيع أن يتبيّن مراتب القضاء في عهد المرابطين فهناك قاضٍ في مدينة أو قرية صغيرة وهناك قاضي الجماعة بمدينة كبيرة مثل: "قرطبة" أو "إشبيليّة" أو "غرناطة"[4]، ثمّ هناك قاضي الإقليم كلّه، "فالأندلس" كانت مقسّمة إلى ثلاثة أقاليم الشرق والموسطة وبلاد المغرب، وعلى ما يبدو أنّه كان لكلّ إقليم من هذه الأقاليم الكبرى قاضي الجماعة؛ أمّا بلاد "المغرب" فكانت

[1]النباهي: المرقية العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تح: لجنة إحياء التراث العربيّ، دار الآفاق الجديدة، ط5، بيوت، 1983، بيروت، ص94.

[2]ابن عبدون، المصدر السّابق، ص5.

[3]النّباهي، المصدر السّابق، ص182.

[4]ابن خاقان، المصدر السّابق، ص308.

زعامة القضاء معقودة لقاضي الجماعة "بمراكش" الذي كان يسمّى "قاضي الحضرة"[1]. وكان هذا القاضي أقرب الفقهاء إلى قلب أمير المسلمين وأدناهم منهم مجلسا وكان عضوا بمجلس الشّورى.

قطع المرابطون أشواطا متقدّمة في تنظيم القضاء فقد اتّخذوا ففيها له السّلطة العليا على قضاة "المغرب" و"الأندلس"، وعلى ما يبدو أن مشيخة القضاة بالعدوتين كانت تعطى تارة لقاضي الحضرة أو قاضي "سبتة" و"طنجة" وتارة أخرى لقاضي الجماعة من الأندلسيين، ثمّ خلفه "محمد بن أحمد بن خلف بن براهيم التّجيبيّ" المعروف "بابن الحاج"[2].

ولقد تعدّدت سلطات القاضي في الشّورى و الفتيا وخطّة الأحكام والصّلاة والخطبة أما خطّة الشّورى فكان يتولّاها فقهاء يختارهم القاضي من أهل المدينة المعروفين بالورع والتّقوى وكان عددهم أربعة، اثنان يشتركان في مجلس القاضيّ واثنان يقعدان في مجلس الجامع[3] وكان لهؤلاء الفقهاء المشاورين رئيس يزعمهم[4].

وتتّضح سلطة القاضي الواسعة فيما ورد في عقد توليه قاضي الجماعة "ابن حمدين" إذ جاء فيه على لسان أمير المسلمين "ولا تبالي برغم راغم ولا تشفق من ملامة لائم... ولا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يكن عندك أقوى من الضّعيف حتّى تأخذ الحقّ له ولا أضعف من القوي حتّى تأخذ الحقّ منه... ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه..."[5] وكان القضاة يشتركون في الغزو والجهاد يخرجون مع الجند ويحفزونهم على التّفانيّ في القتال يحضرون مجالس الأمير، يشاورونه في كلّ ما يعرض له من شؤون"[6].

---

[1]الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السّابق، ص204.

[2]النّباهي، المصدر السّابق، ص164.

[3]ابن عبدون، المصدر السّابق، ص20..

[4]المصدر نفسه، والصّفحة عينها.

[5]ابن خاقان، المصدر السّابق، ص332.

[6]ابن عبدون، المصدر السّابق، ص9.

وهكذا أصبح القضاة يتدخلون في كلّ كبيرة وصغيرة من شؤون المدينة حتّى في شؤون أرباب الحرف والصّناعات، فكان يولى على كلّ حرفة رجلا من أهلها مهمّته القضاء على ما ينشب بينهم من خلاف[1].

يحرص "ابن عبدون" والذي كان من الفقهاء على أن يظلّ عصب الأمور بيد القاضي، فلا يتدخل الأمير في شؤونه ويقول في هذا الصّدد: " إذا وقع بينهم الخلاف في شيء من أمورهم لا يبلغون الحاكم بل يحدهم القاضي، ذلك أن يرجع إلى حكمه ورأيه فهو أرفق لهم واستر لانكشافهم"[2].

إنّ المكانة الرّفيعة الّتي تمتع بها الفقهاء أكثرت عليهم الأموال وارتفع قدرهم وعظم سلطانهم، وأمّا عن القضاة المقرّبين من أمير المسلمين فحدث ولا حرج فيروي المؤرّخون أن قضاء "سلا" كان في "بني عترة"، كلّمتهم مسموعة وأمرهم مطاع قصدهم شعراء من الأندلس يمدحونهم ويفرون إليهم لحمايتهم"[3]، ومع هذا كلّه كان هؤلاء القضاة يخضعون لأمير المسلمين خضوعًا تامًّا بل كان أمراء المقاطعات يعزلونهم أو ينقلونهم في بعض الأحيان وكان أمير المسلمين يعين كبار القضاة ببلاد "الأندلس" و"بلاد المغرب" ويترك للأمراء المحليين أمر تعيين القضاة في المدن والقرى بعد مشاورة قاضي الجماعة في "قرطبة" أو "مراكش" وكان أمير المسلمين إذ ولى أحد هؤلاء القضاة كتب له عقد توليته وبعث به إليه وكان ولي الأمر يوحي القاضي بأن يكون حازما لا يستند فيكرهه النّاس ولا لينا فيستضعفونه وأن يكون عادلًا وأن يسوّي بين الناس بين أميرهم وحقيرهم[4].

- **<u>أثر قيام دولة المرابطين في النّظم الحربيّة:</u>**

كانت الأسس التي قامت عليها الدّولة المرابطيّة ذات صدى بعيد في النّظم الحربيّة، ذلك أنّ الدّعوة التي بثّها "عبد الله بن ياسين" قد ألّفت القلوب وفتحت آفاقا جديدة، وبثت روحًا جديدة أيضًا في هؤلاء البدو كما أنّنا لا ننكر أن شعب الملثّمين كان شعبًا محاربا

[1] المصدر نفسه، ص20.

[2] المصدر نفسه، والصّفحة عينها.

[3] ابن عبدون، المصدر السّابق، ص9.

[4] المصدر نفسه، ص9و10.

من الطّراز الأوّل وظهر ذلك جليًّا عندما اندفعت الجيوش من رباط "السّنغال" متّجهة صوب الشّمال كأنّها الصّاعقة انقضت على المغرب الأقصى وظهر في قتالهم الشّدة والبأس ليس لغيرهم[1].

كما تجلّت هذه الرّوح الجديدة في معركة الجهاد "بالأندلس" إذ أنّ المرابطين اختاروا الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف، وإذ كان "عبد الله بن ياسين" هو صاحب الفضل الأوّل في بعث المرابطين وخلق هذه الرّوح الجديدة، فإنّ "يوسف بن تاشفين" صاحب الفضل الأوّل في تنظيم هذه الطّاقة العظيمة وتسخيرها في معركة الجهاد في بلاد "المغرب" و"الأندلس"[2].

وهكذا كان العمل الذي قام به "يوسف" لا يقلّ أهميّة عن جهاد "عبد الله بن ياسين" ونقول كلاهما كانا صاحب فضل في إقامة صرح هذه الدّولة. ولقد اعتمد المرابطون في فتح "المغرب" على جهودهم الخاصّة من فرق الملثّمين و"جدالة" وحلفائهم وكانت مهمّة "يوسف" بعد إتمام الفتح أن يحتفظ بثمر هذا النّصر لتحقيق أهداف الدّولة في الجهاد، فكان عليه قبل كلّ شيء أن يؤلّف بين القبائل وأن يجسمها في النّظام الجديد، وقد استطاع تحقيق ذلك حيث أخفق من سبقه من الولاة فأقر السّكينة في ربوع البلاد وآمنت القبائل بالنّظام الجديد.

اعتمد "يوسف بن تاشفين" في تحقيق أهدافه على إشراكه أهل "المغرب" من غير الصّنهاجيّين في معركة الجهاد لأنّه كان يرى أن وحدة الجهاد تؤلّف بين القبائل المتيقظة، فنسى خلافاتها فأشرك الزّناتيون والمصامدة مع الصّنهاجيّين في معركة الزّلاقة جنبًا لجنب ومعنى ذلك أنّ "يوسف" وضع تحت تصرّف الدّولة طاقة بعيدة الأثر، لكنّ الرّوح القبليّة ظهرت بجلاء في معاملة الملثّمين لأفراد هذه الفرق، "فصنهاجة" كانت تؤلّف فرقًا مستقلّة وكانت لا تدخل المعركة إلّا بعد أن تكون الفرق الأخرى قد نالت من العدو وأنهكته، وكان

[1] البكري، المصدر السّابق، ص166.

[2] المقري، المصدر السّابق، ج1، ص442.

المرابطون ينظرون إلى الفرق الأخرى بأنّها أقلّ مرتبة من فرق "لمتونة"، وظهر ذلك في الاسم الذي أطلقه المرابطون على هذه الفرق باسم الحشم أو الأتباع"[1].

وعلى ما يبدو أنّ أهل "الأندلس" كانوا يفرّقون أيضًا بين هؤلاء وبين غيرهم من جند الملثّمين ونلمس ذلك في قول " ابن عبدون": " يجب ألّا يتلثّم إلّا صّنهاجيّ أو لمتونيّ فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثّم يلثّمون على النّاس ويهيبونهم..."[2].

لم يكن "يوسف بن تاشفين" مجددا في دعم الجيش بالعبيد فقد كان أمراء "المغرب" السابقون يعمدون إلى تجنيد فرق من هؤلاء السّود يتّخذون منهم حرسًا خاصّا وذلك بالشّراء[3]، كما استخدم المرابطون الجند الصقلب والسؤال المطروح إلى من يرجع الفضل في استخدام هؤلاء الجند؟

يرجع الفضل "ليوسف بن علي" وابنه، وفي هذا الصّدد يقول "يوسف أشباخ": "أن عليا بن يوسف كان أوّل من استخدمهم وأكثر منهم، ولكنّه يعود مرّة أخرى[4]، فيذكر أن يوسف بن تاشفين هو البادئ باستخدام الصقلب في حرصه الخاصّ واستعان المرابطون بالمغاربة في مقاتلة النّصارى وفي نفس الوقت استعانوا في حراسة أهل المغرب، واستعانوا أيضًا بالمطوعة من أهل الأندلس والمغرب الّذين كانت تدفعهم حمايتهم إلى الانخراط في سلك المجاهدين طلبًا للشّهادة في سبيل الله ولربّما كانت طائفة من بني هلّال قد اشتركت في معركة الجهاد ونلمس ذلك من قول صاحب القلائد:" وفيهم من اجناده زنجها وعربانها"، وقد قام "يوسف بن تاشفين" إلى إصلاح نظام تسليح الجيش وطريقة إعداده للقتال وهذا يرجع إلى أن أسلحة الملثّمين كانت بدويّة معتمدين على الإبل ويفضّلون القتال وهم راحلون[5].

---

[1]ابن اخطيب، المصدر السّابق، ج1، ص297، ابن عبدون: ثلاث رسائل أندلسيّة، ص28.

[2]ابن عبدون، المصدر السّابق، ص28.

[3]يوسف أشباخ، المرجع السّابق، ج1، ص71.

[4]المرجع نفسه، والصّفحة عينها.

[5]البكريّ، المصدر السّابق، ص166.

من المعلوم أنّ المرابطين سَخّروا جميع القوى في معركة الجهاد في "الأندلس" وكانوا لا يتناسون في دفع فرقة تلو فرقة فكانوا بحاجة إلى نوع من الجند، يسخرون لحماية مدن "المغرب" ويشترون في القلاع والحصون التي أقامها المرابطون في بلاد المصامدة لحراستهم وإرهابهم[1]. وأدخلت وسائل جديدة على الجيش المرابطي من لبس الخوذات والدّروع والزرد، كما يفعل أهل "الأندلس" في حربهم وقتالهم وهم الذّين اعتادوا على درق اللّمط والقنا الطوال[2]، وقد كان يحمل الرّجل منهم عدّة مرازيق في آن واحد[3]. وهكذا اصبح الجيش المرابطي تتمثّل فيه جميع الأسلحة المستعملة في عصره سواء كانت بدويّة أو مغربيّة أو أندلسيّة.

وأمّا نظام إمرة الجيش فإنّ "يوسف بن تاشفين" لم يدخل عليه تعديلًا كبيرًا إذ ظلت التّقاليد القبليّة تتحكّم في هذه النّظم وتسييرها إذ كان على القبيلة الغالبة أن تخصّ أبناءها بالقيادة وكانت القيادة العليا لزعيم القبيلة المستمرّة "ليوسف بن تاشفين"[4].

وأمّا فرق الجيش المختلفة فكانت إمرتها تعقد لقواد من أفراد البيت الحاكم ممّن يثق بهم أمير المسلمين ويطمئن إلى إخلاصهم حتّى قوات الحشم وهي قوات غير "صنهاجة"[5] كانت قيادتها لرجال من "لمتونة". وبعد أن فتحت "الأندلس" توحدت القيادة بها وهو حاكم "الأندلس" من قبل أمير المسلمين. وكان لهم مجلس حرب للمشاورة لاتّخاذ خطّة موحدة في معركة الجهاد[6].

كان أمير المسلمين يجري تنقلات مستمرّة في قيادة فرق الجيش حتّى لا يطول بقاء القائد في منصبه فيستبدّ بالأمر ويحرض الجند على أمير المسلمين، كانت هذه السّياسة ناجحة "لابن تاشفين" برًّا وبحرًا، وقد ظهرت معارك "المغرب" و"الأندلس" أيضًا مجموعة

---

[1] محمد عليّ صلابيّ، المرجع السّابق، ص198.

[2] الحلل الموشية، المصدر السّابق، ص11.

[3] البكري، المصدر السّابق، ص166.

[4] يوسف أشباخ، المرجع السّبق، ج1، ص71.

[5] الحلل الموشية، المصدر السّابق، ص13.

[6] يوسف أشباخ، المرجع السّابق، ج1، ص73.

من الأبطال والذين كانوا مصدر رعب للعدوّ نذكر منهم: "سير بن أبي بكر"[1]، و"داود بن عائشة"[2] و"عبد الله بن فاطمة"[3] و"أبو محمد مزدلي فاتح الشرق"[4] و"ابن ميمون" قائد الأسطول وكان للعسكر قضاة يقضون بين الجند ويحفزونهم على الجهاد ويؤمونهم في الصّلاة[5]، وكان للملثمين قبل عهد "يوسف بن تاشفين" يعتمدون على صنفين من المقاتلة فأمّا الصّنف الأول وهو الرجالة وعلى الإبالة حيث يجعلون من المشاة صفوفا فيجعلون في الصّف الأوّل فريقا من المقاتلة مسلّحين بالقنا الطوال ويجعلون في الصّف الثّانيّ مشاة من الرّجال بيدهم المرازيق وكان هؤلاء عادة من مهرة الرّماة وكانوا يجعلون في مقدّمة الصّفوف حامل الرّاية يرتهن المقاتلون بإشارته إذا انتصب الرايم وقفوا وإن أمالها جلسوا[6]. والسؤال الذي يجب أن نطرحه: هل أبقى "يوسف بن تاشفين" حين تسلّم قيادة الجيش على هذا النّظام البدوي في فنّ القتال أم غيره بنظام آخر؟

ليس من السّهل على "يوسف بن تاشفين" تغيير طبائع النّاس وما ألفوه من أساليب القتال، جاء ذلك في وصف "الطّرطوشيّ" حيث قال:" ... هو تدبير نفعله في لقاء عدوّنا أن تقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرّماح الطّوال والمرازيق المسبوتة النافذة... فيخرج قبل المسلمين بين الرّماة والرجالة قتال منهم ما شاء الله"[7].

لقد كان "الطّرطوشيّ" معاصرا لدولة المرابطين ولتدفقهم إلى "الأندلس"، ومن خلال وصفه لنظام القتال في بلاد "الأندلس" في المراحل الأولى لعهد المرابطين وفي أيّام "يوسف بن تاشفين" بوجه خاص، وتكاد روايته أن تطابق رواية "البكري" في هذا الصّدد[8].

---

[1] الحلل الموشية، المصدر السّابق، ص81.

[2] المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص138.

[3] ابن خاقان، المصدر السابق، ص65، 76.

[4] ابن خلدون، مفاخر البربر، المصدر السابق، ص ص79-80.

[5] محمد علي صلابي، المرجع السابق، ص184.

[6] البكري، المصدر السابق، ص166.

[7] الطرطوشي، المصدر السابق، ص179.

[8] البكري، المصدر السابق، ص166.

حافظ "يوسف بن تاشفين" على هذه التّقاليد، ومن جهة أخرى أراد التّجديد فأعاد تقسيم الجيش على أسس جديدة لم تكن معروفة من قبل إذ جعل أساس تقسيمه قبليا حيث أنّ الفرق كانت تتكوّن من أفراد القبيلة الواحدة[1].

وكان الحشم مع "الزناتيين" و"المصامدة" يؤلّفون قسما مستقلًا بذاته وكان المطوعة يؤلفون قسما آخر وأمّا فرق "لمتونة" وغيرها من أهل اللّثام فكانت مستقلّة وكانت فرق الحشم في مقدّمة الصّفوف وفرق الملثّمين في القلب، وكان المحاربون من أهل "الأندلس" يصطفون في السّاحة وأهل الثغور يؤلفون صنهاجيّ الجيش[2]، كما أنه أبقى على نظام الابالة فكان يقيم منهم صفوفا تحدّق بالمعسكر وتحف به، وتتّخذ كلّ فرقة موضعها وتتهيّأ للقتال تحت قيادة واحدة تتحرّك وفق مشيئة كأنّها قطع شطرنج فتنهال هذه الكتل البشرية على العدو مرّة واحدة فتنال منه وتخلخل صفوفه، وقد كان لهذا التّطور الجديد أثرًا هائلا في معارك "الأندلس" لأنّ النّصارى كانوا يعتمدون على الشّجاعة الفرديّة وعلى الخيالة الثقيلة وتتحرّك الفرق تحرّكات مستقلّة، وهكذا كانت أجنحة العدو تنكر أمام هذا النّظام الدّقيق.

أمّا أسلوب قتال المرابطين فكان يعتمد على عنصر المفاجأة وعلى الحرب الخاطفة وأيضًا على الصّفات الفردية المتمثلة في سرعة الحركة والثّبات والشّجاعة فينزلون على العدو كالصّاعقة في هجوم جريء ومفاجئ[3]، وكانت خسارة العدوّ مبكرة في السّاعات الأولى من القتال، وكانت تقاليد الملثّمين تقضيّ بأن يثبت الفارس في موضعه لا يتقهقر أو يلقى حتفه[4].

لم يكن المرابطون يعرفون فنّ الحصار وهم البدو الرّحل، وعلى ما يبدو أنّهم بعدما أخفقوا في "معركة لبيط"[5]، تعلّموا فنّ الحصار وفي ذلك يقول صاحب الحلل:" أن يوسف شرع في بناء الأسوار ورم ما نشعت من الأبراج وحفر الحفير حولها، وشحنها بالأطعمة

---

[1]يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج2، ص234-235.

[2]المرجع السابق، والصّفحة عينها.

[3]حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، بدون مكان، 1992، ص37.

[4]المرجع نفسه، والصّفحة عينها.

[5]المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص141.

والأسلحة ورتّب فيها عسكرا من نخبة رجاله وأسكنهم بها"[1]. وازداد اتقانهم لهذا الفنّ في عهد "علي بن يوسف" فبرعوا فيه وظهر أثر ذلك في حصار مدينة "تشرين"[2] واستيلائهم عليها وكتب القائد "سير بن أبي بكر" إلى أمير المسلمين ينوه بهذا الانتصار واصفا له ما لاقاه العدو من آلام الحصار ومتاعبه[3]. وأهمّ ما يلاحظ أن المرابطين بدو الصحراء، ولم يكن لهم عهد ركوب البحر حتّى قدر لهم أن يفتحوا المغرب الأقصى وأن يستولوا على الموانئ السّاحليّة المطلّة على حوض البحر الأبيض المتوسّط الغربيّ فبدأت تواجههم مشاكل جديدة لم يكن لهم بها عهد وكان يتعيّن عليهم أن يجدوا لها حلًا خاصة وأن ساحل إقليم المغرب الأوسط والأقصى كان في حاجة إلى قوّة بحريّة تحرسه وتقيه شرّ غارات القراصنة التي بدأت تشتدّ في ذلك الوقت، كما أنّهم أنشأوا دورًا للصّناعة في الموانئ لبناء أسطول بحريّ قويّ وكان ذلك في عهد "علي بن تاشفين"، وعلى ما يبدو أنّ هذا الأسطول شارك في حصار مدينة "سبتة" ومدّ العون للقوّات البرّية التي كانت تقاتل سقوف البرغواطي[4]، وهكذا أدرك "يوسف بن تاشفين" بعد انتصاره في معركة "سبتة" أهميّة العامل البحريّ في كب المعارك وبدأ يولي اهتماما به خاصّة وأنّه استعان ببحارة "الأندلس" وبدأت الفتوحات في اتّجاه الشّرق ففتحت "ألمرية" التي كانت ثغرا مهما في هذا المجال.

وكان من أثر ذلك أن بدأ الأسطول المرابطي يظهر كعنصر فعّال في معركة النّضال، من أجل السيادة على بلاد "الأندلس" وبدأ يتّخذ موقف المهاجم وبدأ المرابطون يعدون السفن لا لنقل القوات بين العدوتين بل للحرب والنزال، فاشترك الأسطول في معركة "بلنسيّة" التي احتدمت بين "القمبياطر" و"المرابطين" ومن المؤسف أن المراجع لا تتحدّث بالتّفصيل عن نشاط البحرية المرابطيّة في عهد " يوسف بن تاشفين" ممّا يحمل على الظّنّ أنّها كانت لا تزال في دور البناء والتّكوين[5] والمترجم "جايا نجوس" لكتاب "نفح

[1]المصدر نفسه، الصفحة عينها.

[2]ابن خاقان، المصدر السابق، ص139.

[3]المراكشي، المصدر السّابق، ج4، ص141.

[4]المصدر السابق، ص48.

[5]الادريسي، المغرب وأرض السودان، المصدر السابق، ص ص 54-55.

الطيب" أشار إلى أنّ "عيسى بن ميمون" والد أمير البحر "علي بن ميمون" كان يقود أسطول المرابطين في "قادش".

إنّ البذور التي زرعها "يوسف بن تاشفين" قد انبعثت ثمارها في عهد "علي بن يوسف" فلقد ازدهر الأسطول في عصره واستطاع أن يفتح "ميورقة"[1]، بعد أن كانت محاصرة من قبل صاحب "برشلونة" وطلب صاحبها "ميشر" المساعدة من "علي بن يوسف" الذي ألحق هزيمة نكراء بالفرنجة، وبسط المرابطون ظلهم على المنطقة وأصبحت من أهم قواعدهم البحريّة في "البحر المتوسط. وولوا عليها "وانود بن أبي بكر" وظهرت شهرة "علي بن عيسى" "ابن مميمون" قائد الأسطول البحريّ المرابطي الذي فتح عهدا جديدا للدّولة في تاريخ النّضال بين المسلمين والفرنجة وطلب "الحسن بن علي بن يحي" المساعدة من الأسطول المرابطيّ في "صقلية"، وتكررت غارات المرابطين حتّى ضجّ "روجر" بالشّكوى واعتقد أن "بني زيري" هم الذين يحرضون "النورمنديين" ، فأعدوا العدة لتأديب الزيريين واستولوا على "المهدية" وبدأت سفنه تجول في "أجواز صقليّة" تقتل وتأسر وتفتك[2].

على ما يبدو أنّ نّشاط أسطول المرابطين بدأت تتّسع وبدأت غارتهم تمتدّ إلى سواحل "إيطاليا" وسواحل "فرنسا" وبدأت تناضل أساطيل "بيزنطة" وهكذا يكون المرابطون قد ساووا الجهاد في البرّ والبحر، ولكي تتّضح الصّورة جليّة في النّظم الحربيّة في عهد المرابطين وأثر قيام الدّولة في نموّها وتطوّرها لابدّ أن نعرف صدى التّأثيرات القبليّة حيث انتشرت القلاع والحصون في جميع أنحاء "المغرب الأقصى"، خصوصا حول المنطقة الجبليّة في الجنوب والشّمال وفي المغرب الأوسط وهناك سؤال يتبادر في الذّهن، هل عمد المرابطون إلى هذا النّظام وأكثروا من هذه القلاع والحصون في عهد "عليّ بن يوسف" حتّى ظهر خطر الموحدين أم أنّ "يوسف بن تاشفين" وضع أساس هذا النّظام كما وضع أساس النّظم المرابطيّة كلّها؟

[1]ابن خاقان، المصدر السابق، ص666.

[2]التيجاني، رحلة التيجانيّ، تح: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس، 1981، ص335.

يخيّل إلينا أنّ "يوسف بن تاشفين" هو الذي وضع أساس ذلك النّظام وأن يقر السكينة في ربوعه توطئة للاشتراك في الجهاد كما أشرك بلاد "المغرب الأوسط" في ذلك حيث روى المؤرّخون أنّ "يوسف بن تاشفين" بنى مدينته "تاكرارت" التي تعني في لغة "البربر" معناها "المحلة" أو "السكر"[1].

قد وضّحت هذه السياسة منذ فجر الدّعوة المرابطية، فما كاد المرابطون يستولون على "أودغشت" حتّى ابتنوا معسكرا على مقربة منها يكون مركزا لعملياتهم الحربيّة ومستودعا لأثقالهم وأموالهم ثمّ كان ذلك في "أغمات" و"مراكش"، وسيطرة الملثمين على إقليم "المغرب الأقصى" وتمّ لهم إخضاع المصامدة والزّناتين والبرغواطين ودانت لهم جميع شعوبه بالطّاعة والغلبة والتّوحيد بين إقليم السّاحل وإقليم الهضاب والصحراء، فتتعاون هذه الأقاليم الثلاث في سبيل الاستقرار سيعزف الناس إلى الإنتاج، هذه العوامل جعلت "يوسف بن تاشفين" يبني سلسلة من الحصون تحفّ مضارب قبائل "مصمودة" في الجنوب و"غمارة" في الشّمال و"زناتة" بالمغرب الأوسط لتراقب حركاتها وتحول دون عبثهم بالأمن حتّى تشدّد القبيلة المتغلبة قبضتها وعلى ما يبدو أنّ خطر الموحدين قد لاح في الأفق "لعلي بن يوسف" وأحس أن الحصون التي بناها أبوه لم تحقّق الغرض المنشود، يقول "البيدق" في هذا الصّدد:" أخذ المحميون الحصون وبنوها في مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات لكي ينصروا بها الموحدين"[2].

[1] عبد الرحمان بن زيدان، اتحاف إعلام الناس بجمال أخبار حافرة مكناس، تح: علي عمر مكتبة الثقافة الصينية، ج1، ط1، 2008، ص86.

[2] أبو بكر الصنهاجي المدعو البيدق، المصدر السابق، ص ص50، 64.

المطلب الثّانيّ: تأثير الفكر السّياسيّ في الجانب الاقتصاديّ

تركت الأوضاع التي تمخضت عن قيام دولة المرابطين آثارًا بارزة في الميدان الاقتصاديّ، وإذا كنّا غير مبالغين إذا قلنا أنّ الأحوال الاقتصاديّة في البلاد كانت أكثر تأثرا بالظّروف التي أدت إلى قيام الدّولة من أيّ ناحيّة من نواحي الحياة في المغرب في القرن الخامس هجري وأوائل القرن السّادس، فلقد كان تدفّق الملثّمون إلى "الأندلس" على النّحو الذي تقدّم وتمخّض ذلك كلّه عن فتح أسواق "الأندلس" أمام تجارة "السودان"، كما فتحت أسواق "المغرب" وأصبحت هذه التّجارة تحميها الدّولة وشد أزرها، وقد كان لفتح أسواق "الأندلس" أمام تجارة "السودان" معناه فتح الطريق إلى أسواق "أوروبا" عن طريق موانئ شرق "الأندلس" وقد كان من أثر هذا النّشاط الذي تمتّعت به التّجارة في عهد المرابطين أن ظهرت في بلاد "السودان" و"المغرب" و"الأندلس" أسواقًا ذات شهرة قصدها تجار العالم من كلّ حدب وصوب حيث برزت مدينة "أودغشت"[1] كسوق تجاري عظيم نافست "سجلماسة" في هذا الميدان وأصبحت بها دارًا لصك النقود بسبب وفرة البتر الذي تجلبه القوافل من بلاد "السودان"[2].

أما في بلاد "الأندلس" فقد نهضت مدينة "ألمرية" لتنافس أسواق "المغرب" التي قصدها مراكب التجارة الدولية خاصة مراكب التجارة من "الإسكندرية" و"بلاد الشام"[3].

فلقد أصبحت "الأندلس" أيام الملثمين مدينة الإسلام حيث ازدهرت بها صناعات الحرير وآلات النحاس والحديد كما كانت فواكهها تحمل إلى بلاد إفريقية والمغرب[4].

لقد تركزت التجارة في بلاد "المغرب الأقصى" وأصبحت القوافل المسافرة بين "السودان" وبين موانئ "البحر الأبيض المتوسط" التي تمر بديار "جدالة" و"لمتونة" في طريقها إلى إقليم الريف، وبعد أن نجحت الدولة المرابطية في توحيد أقاليم "المغرب الأقصى" أن توفر الأمن والسكينة في ربوعه وأن تسهر على حماية الطرق وتأمين

---

[1] ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص278.

[2] الحميري، المصدر السابق، ص29.

[3] المصدر نفسه، ص184.

[4] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

المسالك[1] والضرب على يد العابثين بالأمن، فأمن التجار على أنفسهم واطمأنوا واقبلوا بتجارتهم على أسواق البلاد خصوصا وأن الحكومة الجديدة نهضت لحماية الإسلام وبسط سلطان الدين وإحياء السنة القويمة وبسط لواء العدل والقانون على الناس سواء فكسبت ثقة الناس في جميع البلاد[2].

لقد كان لعامل إلغاء المكوس في عهد الحكومة الجديدة للدولة المرابطية أثرا بليغا في تشجيع التجارة الداخلية على الخصوص[3] والتي كانت حكومات "زناته" تفرضها على المتاجر التي تسلك أقاليم "المغرب الأقصى" والتي أثقلت بها كاهل الناس حتى أدى ذلك إلى كساد سوق التجارة وانصرافها عن بلاد "المغرب الأقصى" ملتمسة موانئ أخرى وكان الحال في بلاد "الأندلس" في عهد "الطوائف" لا تختلف عنها في "المغرب" في عهد دولة "زناتة" حيث فرضت المكوس الجائرة على التجارة الداخلية حبا في المال والترف ولكن المرابطين ألغوا هذه "المكوس" في "المغرب" و"الأندلس" على السواء[4].

لقد كان من نتائج هذه السياسة الحكيمة للمرابطين إلى التخفيف عن كاهل التجار وتشجيعهم على المغامرة وارتياد الأسواق عن طيب خاطر وأما عن التجارة الخارجية في عهد المرابطين فقد بلغت شأنا عظيما وازداد إقبال أوروبا على تجارة "المغرب" والدليل على ذلك شيوع النّفقة بالدينار المرابطي حتى وصل إلى القسطنطينية وكاد أن يصبح عملة دولية؛ أما عن الزراعة فقد ساهمت عوامل عديدة على زيادة الإنتاج ومضاعفته لأن الدولة المرابطية بسطت ظلها على "المغرب الأقصى" حيث السهول الخصبة والمراعي الشاسعة.

وكان من نتائج هذه السياسة الحكيمة للمرابطين إلى التخفيف عن كاهل التجار وتشجيعهم على المغامرة والتردد على الأسواق عن طيب خاطر.

---

[1] الحميري، المصدر السابق، ص184.

[2] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص137.

[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4] المقري، المصدر السابق، ج1، ص439.

وأما في "الأندلس" فقد اطمأن الناس إلى أن الخطر "القشتالي"[1]قد تضاءل وأن النصارى في "الأندلس" لم يعودوا بحيث يستطيعون مواصلة سياسة العدوان القديم، هذه السياسة التي أشاعت في البلاد جوًا من القلق والاضطراب.

لجأ المرابطون في "الأندلس" إلى تطبيق سياسة كان لها أثر كبير في مضاعفة الإنتاج وإنعاش الزراعة في البلاد ذلك أن "المنصور بن أبي عامر" وخلفاؤه عمدوا إلى انتزاع الاقطاعات الزراعية التي كانت قد منحت للجند مقابل خدمتهم العسكرية[2] وفرض عليهم الحياة وتولت الدولة إدارتها والإشراف عليها ولم يحسن العمال معاملة الناس بل سموهم "الخسف" وأثقلوا عليهم فضعف إنتاجهم فتهاربوا، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان، وضعفت الأجناد[3].

لقد ساءت الأحوال الاقتصادية في البلاد في عهد ملوك الطوائف بسبب الحروب المستمرة والفتن والضرائب الباهظة التي كانت تقسم ظهور الناس، ولما آل الأمر إلى المرابطين عادوا إلى السياسة القديمة[4] وأقطعوا الجند أرضا يفلحونها ويستثمرونها "فمن ظهرت نجدته وشجاعته وأعانته أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده".

كانت هذه السياسة الحكيمة بعيدة الأثر في تاريخ الحياة الاقتصادية في البلاد فلقد أقبل الفلاحون على الأراضي التي كانوا قد هجروها بعد أن انتشر في البلاد الاستقرار والأمن وخف عبء الضرائب والسؤال الذي وجب أن نطرحه هل طبق المرابطون هذه السياسة في "المغرب" كما طبقوها في "الأندلس" أم لا؟

على ما يبدو أنهم فعلوا ذلك في "المغرب" مثل ما فعلوه في "الأندلس" وأقطعوا جنود "لمتونة" بوجه خاص وجنود الملثمين بوجه عام أرضا يفلحونها وينتفعون بغلتها وتروي بعض المصادر التاريخية إلى أن "يوسف بن تاشفين" أرسل إلى قومه بالصحراء يدعوهم

---

[1]الادريسي: نزهة المشتاق، المجلد1، المصدر السابق، ص536.

[2]الطرطوشي، المصدر السابق، 123.

[3]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

إلى الاستقرار "بالمغرب" وكان يقطع إقطاعات للوافدين يشرفون على إدارتها وكان من أثر هذه السياسة تضاعف الإنتاج االزراعي في بلاد "المغرب" و"الأندلس".

وعلى ما يبدو أن الصناعة أيضًا قد حققت الازدهار والرواج بقدر ما حققته الزراعة ويرجع ذلك لتوفر المواد الأولية الخام وتعدد الأسواق ونشاط التجارة بين موانئ "المغرب" و"الأندلس" والذي بدوره يساعد على رواج الصناعة وظهرت في "المغرب" و"الأندلس" مراكز صناعية ذاع صيتها مثل مدينة "نول لمطة"[1]؛ والتي اشتهرت بصناعة الجلد والمنسوجات، ومدينة "مراكش" التي عرفت بصناعة الصابون و المغازل[2]، "وفاس" بصناعة الدباغة وتسبيك الحديد وصنع الزجاج والكاغد[3]، وكذلك "ألمرية" التي عرفت بصناعة الحرير وآلات النحاس والحديد[4]وعلى ما يبدو أن تقدم الصناعة ورواجها في آخر عهد المرابطين دفع الأمراء إلى التماس المال عن طريق فرض الضرائب على أهل الحرف والصناعات يقول "الإدريسي" في هذا الصّدد: " فكانت أكثر الصنع بمراكش مثل: سوق الدخان والصابون والمغازل، فكانت القبالة على كل شيء يباع دق أوجل، كل شيء على قدره"[5].

لقد ظهر تأثير المبادئ التي قامت عليها دولة المرابطين واضحا في جانب آخر من جوانب الحياة الاقتصادية في بلاد "بلاد المغرب" ونعني بها؛ السياسة الضريبية لأن المرابطين قد التزموا أحكام السنة وأحبوا أن يطبقوا أحكامها في الشؤون المالية بدقة متناهية فلقد كانت "بلاد المغرب" و"الأندلس" تعج بالضرائب الجائرة من الزناتيين أو ملوك الطوائف[6]، هذه الضرائب تكون في أوقات يفرضها العامل متى شاء وكانت المكوس تفرض على التجارة المارة من مدينة إلى مدينة ومن إقليم إلى إقليم وهناك ألوان عديدة من

[1]الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص264.

[2]عز الدين موسى، المرجع السابق، ص240.

[3]المرجع السابق، ص230.

[4]الحميري، المصدر السابق، ص184.

[5]عز الدين موسى، المرجع السابق، ص267.

[6]ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص120.

المغارم يسميها "عبد الله بن بلكين" مغارم الإقطاع[1]، وهي ضرائب كان ملوك الطوائف يفرضونها على الناس إرضاءً لنزواتهم وأطماعهم، وهناك أيضًا ما يعرف "بالقبالات" وهي شر أنواع الضرائب يقول "ابن عبدون" في هذا الصدد:" المتقبل هو شر خلق الله وهي بمنزلة الزتبور الذي خلق الضرر ولا للنفع فهو يجري ويسعى لضرر المسلمين..."[2]، ولما فتح المرابطون "المغرب" و"الأندلس" أبطلوا هده الجبايات الجائرة حيث كانوا على علم ما سوف يتبع هذه السياسة في حياة الناس وأصبح للمرابطين المظهر الحلو المنقذ في نظر الناس أيضًا والتف الناس حولهم طائعين وعلى ما يبدو أن هذه السياسة الاقتصادية كانت من أهم العوامل التي مهدت على الناس إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة[3] من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين[4].

تضاعفت الأموال للدولة المرابطية نتيجة السياسة الحكيمة التي طبقتها وانتشر الرخاء واليسر وأصبح الأمراء يعيشون بيسر فيغدقون العطاء على الفقهاء والعلماء[5] ينشؤون المساجد وينفقون في سبيل الله[6] وعظم ثراء "يوسف بن تاشفين"[7]، ولما مات وجدوا في بيت ماله ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمسة آلاف وأربعين ربعا من دنانير الذهب[8]، هذا إن دل إنما يدل على ظاهرة اقتصادية لديها ما يفسرها: قلة الضرائب مع ضمان تحصيلها خير من كثرتها والعجز على تحصيلها وعلى ما يبدو أن هذه السياسة قد تمكنت من تفكير المرابطين تمكنا كبيرا فلقد اعتنوا بتحصيل الزكاة والعشور، كما دأب المرابطون في ضمان تحصيل هذه الضّرائب إلى اليهود في بلاد "الأندلس" بأعمال الجباية، كما جعلوا أعمال الجباية "بالمغرب" للنّصارى المقيمين في البلاد، ولقد عمدوا إلى ذلك لأنّ أمثال هؤلاء يخافون السّلطان، فكان المرابطون بدورهم يراقبون عمّال الخراج

---

[1]ابن بلكين، المصدر السابق، ص137.

[2]عز الدين موسى، المرجع السابق، ص267.

[3]ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص137.

[4]حسن إبراهيم، النظم الإسلامية، مكتبة النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1939، ص 280.

[5]أحمد بن القاضي: جدوة الاقتباس، المصدر السابق، ص545.

[6]ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص137.

[7]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[8]أحمد القاضي: جدوة الاقتباس، المصدر السابق، ص545.

مراقبة دقيقة ويتوعدونهم بالعقاب العسير إذا كان هناك تقصير ويحاسبهم إذا اعتزلوا الخدمة ويعرضونهم لمصادرة المال والسّجن[1] وكانوا يحاسبون ورثة العامل إذا مات وينقلون عليهم ويصادرون تركة المتوفيّ إذا لزم ذلك.

نستنتج من كلّ ذلك: أنّ الدّعوة الدّينيّة التي قامت عليها الدّولة المرابطيّة قد أشاعت بين النّاس روح الأمانة والثّقة وكان الأمراء والملوك قدوة للرّعيّة والعمال وكما يقال: النّاس على دين ملوكهم بالإضافة إلى روح التّقشف والزّهد قد شاعت بين الأمراء ورجال الدّولة في عهد "يوسف بن علي" على الأقل.

[1] عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص110.

المطلب الثّالث: تأثير تطور الفكر السياسي للمرابطين في الجانب الاجتماعي

لقد كان لقيام دولة المرابطين نتائج بعيدة الأثر في الحياة الاجتماعية في " المغرب" و"الأندلس"، فقد ظهرت طبقة جديدة من الملثمين وهي طائفة سيدة حاكمة انتشرت في "المغرب" وأقاليمه وفي مدن "الأندلس" وأقاليمه يتولون الأعمال أو يزاولون التجارة أو الزراعة أو الصناعة وقد تجلى صدر دلك التطور الاجتماعي الخطير في "الأندلس" فبعد أن كان البربر أقلية زاد عددهم وتوافدوا على "الأندلس" وأصبحوا أصحاب الدولة والسلطان[1]. وكانوا يعيشون هؤلاء البدو في معزل عن المجتمع ويأنفون الخضوع للقضاء، مما جعل أمير المسلمين يكتب إلى أحد القضاة قائلا: "وعهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تقتضيه ولا يتعرضوا عليك في قضاء تقضيه"[2]. لهذا طالب "ابن عبدون" بأن يتخذ القاضي أعوانا من البربر[3].

كان الملثمون يسيرون في الطرقات مرتدين اللثم يحملون السلاح فيدخلون الرعب والفزع في قلوب السكان الآمنين ويرتكبون الشرور والآثام، وفي هذا الصدد يقول "ابن عبدون": " يجب ألا يلثم إلا صنهاجي أو لتموني أو لمطي، فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيبونهم، ويأتون أبوابا من الفجور كثيرة بسبب اللثام"[4]. ونتيجة أيضًا لقيام المرابطين ظهور طبقة جديدة أيضًا ذات حول وطول ونفوذ ونعني بها طبقة الفقهاء والقضاة ورجال الدين، وحظيت هذه الطبقة منزلة رفيعة من قبل الأمراء المسلمين، ولم يكن "يوسف بن تاشفين" أو ولده عليا إلا والفقهاء والقضاة يحفون بهم ويسيرون في ركابهم وتمتعوا بسلطان عظيم[5].

---

[1]المقري، المصدر السابق، ج1، ص217.

[2]ابن عبدون، المصدر السابق، ص14.

[3]المصدر نفسه، ص9.

[4]المصدر نفسه، ص28.

[5]القاضي عياض، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تح: ماهر زهير [ورقة1-63أ] جرار، دار الغرب الإسلامي، ط1،بيروت 1982، ص14.

ونتيجة لهذه المكانة التي وصلوا إليها عند المرابطين لجأ إليهم الناس متقربين مستشفعين بل حتى الشعراء قصدهم مادحين مشيدين بفضلهم وتكدست في أيديهم الأموال وأخذوا يعيشون عيشة البذخ والترف[1].

وقد بلغ من نفوذ القضاة أن حاول أحدهم وهو "ابن حمدين" أن ينقل بملك "قرطبة" في أواخر العهد المرابطي وحاول فقيه آخر أن يقسم مقعد "عبد الله ياسين" وأن يكون له الأشراف الفعلي على شؤون الدولة يعمل الأمراء بإرشاده[2].

لقد تمخض أيضًا عن قيام الدولة المرابطية ظهور ظاهرة اجتماعية لم تكن مألوفة في "المغرب" و"الأندلس" ونعني بها؛ ظهور المرأة الصنهاجية في المجتمع ومشاركتها في الحياة الاجتماعية وعرف ذلك في النظم الاجتماعية للملثمين تجعل للمرأة مكانة عالية وأبرز مثال على ذلك "زينب النفراوية" زوج أمير "يوسف بن تاشفين"[3]، وقد بلغ نفوذ الأميرات المرابطيات أن قصدها الشعراء يمدحون ويتقربون، فقد كتب الشاعر "ابن خفاجة" إلى الأميرة "مريم بنت إبراهيم" يستشفع بها إلى الأمير "الطاهر تميم ابن يوسف"[4].

هناك طبقة أخرى من طبقات المجتمع تأثرت بالأوضاع التي تمخضت عن قيام الدولة المرابطية، ونعني بها طبقة "أهل الذمة" في "الأندلس" و"المغرب" من النصارى المعاهدين واليهود في عهد ملوك الطوائف حيث اشتغل الكثير منهن بأعمال الجباية للمسلمين والنصارى، لكن قيام دولة المرابطين وبسط لوائها على "المغرب" و"الأندلس" قلب هذه الأوضاع فقد أوقف المرابطون "قشتالة" و"ليون" عند حدهما، ووقفوا للقوات الصليبية في البحر بالمرصاد وخلعوا ملوك الطوائف وبسطوا لواءهم على ما بيد المسلمين من بلاد "الأندلس"، فتغيرت أوضاع "أهل الذمة" ولم يكن من الطبيعي أن يحتفظ النصارى المعاهدون بهذه المكانة التي كانوا قد وصلوا إليها ما دامت الدولة قد رفعت لواء السنة وهكذا ساءت أحوالهم في ظل الدولة الجديدة فمن دخل في الإسلام كان له ما

---

[1] المراكشي، البيان المغرب، المصدر السابق، ج4، ص113.

[2] القاضي العياض، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، المصدر السابق، ص46.

[3] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص134.

[4] الحميري، صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص23.

للمسلمين وما عليهم ومن اختار الجزية دفعها عن يد وهو صاغر[1]، والأمر لم يتوقف هنا فقط؛ بل أفتى فقهاء المرابطين بهدم كنسية المعاهدين "بغرناطة" فأرسل " يوسف" في هدمها ولا جرم أن سيطرة فقهاء "مالك" على الشؤون العامة في البلاد قد نشر جوًا من التزمت والمغالاة في معاملة أهل الكتاب. وهكذا نجد المؤرخ "دوزي" قد لام المرابطين والفقهاء على موقفهم هذا[2].

ونتيجة لهذه الوضعية تأججت الحرب الصليبية بين الإسلام والنصرانية فما قام به السيد "القمبياطور" في "بلنسية" أكبر دليل على ذلك حيث أقدم على حرق الفقهاء وانتهاك حرمة المساجد وأيضًا لم يترفق المرابطون باليهود والنصارى وطالبوهم بالإسلام أو دفع الجزية، وعلى ما يبدو أن يهود "المغرب الأقصى" كانوا يقيمون في مدن معينة فلم يكن لهم يسمح لهم بالدخول إلى "مراكش" إلا نهارًا وحرم عليهم المبيت فيها وإلا تعرضت أموالهم وأرواحهم للخطر[3].

لقد بدأ الأمراء ينفقون الأموال وأخذ الولاة كذلك، فقد روي أن عامل دكالة رغب في أن ينقطع أحد الفقهاء إلى صحبته، فلما أبى الفقيه ضمن له أن يعطيه ألف دينار ذهبية مرابطية[4].

إن فتح "الأندلس" كان له تأثير كبير على "بلاد المغرب" حيث ظهر تلاقح حضاري بين حضارتين أو لونين من ألوان الحياة الاجتماعية، فأما الأول أندلسي رفيع والثاني لون مغربي أقل رقيا، ومن الطبيعي أن تتفوق الحياة الأكثر رقيا فتصرع الحياة الأكثر ضعفا، غير أن التعاليم التي بثها الإمام "عبد الله بن ياسين" وسار عليها خلفاؤه من الأمراء خلقت جيلا من الولاة يعيشون حياة بسيطة طغى عليها الزهد والتقشف خاصة في عهد "يوسف

[1] يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج1، ص85.

[2] حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص420.

[3] الإدريسي، المغرب والسودان، المصدر السابق، ص69.

[4] ابن المؤقت المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص123.

بن تاشفين" مثل: "سير بن أبي بكر"، "أبو عبد الله بن عائشة" والذي لم يكن من قواد "يوسف" مثلها بأسا وجدًا في نصرة الإسلام[1].

هذه المؤثرات لم تصمد طويلا خاصة بعد وفاة "يوسف بن تاشفين"، إذ طغت الحياة الأندلسية بمغرياتها، ومن جهة أخرى لم يستطع المرابطون المقاومة أمامها طويلًا وظهرت مؤثراتها في أوائل عهد "علي بن يوسف" الذي كان قد ولد في بحبوحة العز والترف متقشفا كأبيه، فيذكر "ابن خاقان": "خرجت بإشبيلية مشيعا لأحد زعماء المرابطين، فلما انصرفنا مال بنا إلى معرش أمير المسلمين أدام الله تأييده.... ويتمنى الصبح أن يسم به محياه"[2].

في هذا القصر الجميل كان ينزل أمير المسلمين كلما رحل "بالأندلس" ليستمتع بمطالب الحياة الأندلسية الرفيعة بالبعيد أن يعيش الأمراء والقواد على منواله واتخذوا مجالس الشعراء والغنيين فلقد روى "المقري" أن "أبا عبد الله محمد بن أحمد بن نوح الإشبيلي" مدح فيها الأمير "إبراهيم بن يوسف بن تاشفين" وكان يدل عليه وينادمه بقصيدة مطلعها:

أنا شاعر الدنيا وأنت أميرها **** فمالي لا يسرى إلى سرورها [3]

وكانوا يستمعون إلى المغنيين ويجالسونهم ويطربون لشعرهم وغنائهم فقد جالس "أبو بكر بن باجة" "ابن تيفاويت" صاحب "سرقسطة" فألقى موشحه كان أولها "جرر الذيل أيماجر" فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله: " عقد الله النصر لأمير العلا أبي بكر".

ولما طرق ذلك التلحين سمع "ابن تيفاويت" صاح وأطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت[4].

---

[1]ابن خاقان، المصدر السابق، ص948.

[2]ابن خاقان، المصدر نفسه، ص502.

[3]المقري، المصدر السابق، ج2، ص220.

[4]الأعمى التيطلي، الديوان، تح: محي الدين ديب، شركة المؤسسة الحديثة للكتاب، ط1، لبنان، 2014، ص76.

ومنه نستنتج الصورة الرفيعة للحياة الاجتماعية التي كان يحياها الأمراء في "الأندلس" والتي تجلت فيها المؤثرات "الأندلسية"، كما نستنتج أيضًا مما تقدم أن الحياة الاجتماعية في "المغرب" قد أصابت من هذه المؤثرات الشيء الكبير فانتقل الأدباء والشعراء والمغنون يعبرون البحر إلى العدوة ويلمون بـ"فاس" أو "تلمسان" أو "مراكش" يمدحون الأمراء ويجالسونهم وليس ببعيد أن أمراء "المغرب" يحييون مثل هذه الحياة المترفة، كما انتشرت بها قصور الأمراء وخدام الدولة[1]، وكلما تعمقت الدولة في الترف كلما تناست رسالتها و أطرحت المثل والقيم التي وضعها "عبد الله بن ياسين" فذكر "البيدق" "أن الحوانيت كانت مملوءة دفوفا وقراقر ومزامير وعيدانا وأربية وقيثارات وجميع اللهو"[2].

[1] الإدريسي، المغرب وأرض السودان، المصدر السابق، ص68.

[2] أبو بكر الصنهاجي المدعو "البيدق"، أخبار المهدي، المصدر السابق، ص66.

المطلب الرابع: تأثير تطور الفكر السياسي في الجانب الثقافي والديني

لقد كان تأثير قيام الدولة المرابطية في حضارة "المغرب" و"الأندلس" تأثيرًا كبيرًا في الحياة الثقافية والدينية والحضارية بصفة عامة، فلقد توحد المغربين "الأوسط" و"الأقصى" وظهورهما في عالم شمال إفريقية حال دون توسع عرب "بني هلال" وأطماعهم في المنطقة خاصة عندما نالوا من دولة "بني زيري" وأن يهزموا "صنهاجة" بقيادة "المعز بن باديس"[1] ومن "القيروان" حيث نشروا الدمار والخراب في طولها وعرضها[2].

وأنهت "القيروان" كجامعة ذات شأن في الحياة الثقافية التي نهل منها المغاربة والمشارقة ما طاب لهم من علم طيلة أربعة قرون، كما أغلقت مدارس " القيروان" وتمكن العلماء من النجاة من مدن إفريقية بعلمهم وفقههم[3]، والتجأوا إلى مدارس "المغرب الأقصى" وإلى "فاس" و"سبتة" و"طنجة" و"أغمات" و"تلمسان"، وهكذا بدأت مدارس "المغرب الأقصى" تتطور في ميدان الثقافة، كما أسدى المرابطون خدمة جليلة في حماية المنطقة من شر "بني هلال" وحيثما راح "بنو حماد" الذين تنكروا لتراث قبيلتهم وخانوا بني عمومتهم يجمعون الأعراب ويحرضونهم ويجندونهم للإغارة على "المغرب الأوسط" وطعن المرابطين من الخلف وهم في معركة الجهاد ووقف لهم "يوسف بن تاشفين" بالمرصاد[4]، وحال بين الأعراب وبين العبث "بالمغرب الأقصى" كما أن عامل الاستقرار والرخاء كانا من أهم الأسباب التي تمكن للحضارة من أن تذكر وتنضج ثمارها إذ ينصرف العلماء إلى آداء رسالتهم السامية في هدوء وطمأنينة وهكذا حافظ المرابطون على تراث الحضارة في "المغرب بسبب السياسة الإصلاحية العظيمة التي وضع أساسها "يوسف بن تاشفين" حيث أوصى ولده " ألا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة"[5].

---

[2]ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص221.

[3]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4]ابن خاقان، المصدر السابق، ص786.

[5]الحلل الموشية، المصدر السابق، ص60.

إن تدفق المرابطين على "الأندلس" قد انقدها مما كانت فيه من فوضى واضطراب وعدم الاستقرار مما أدى ذلك إلى هجرة العلماء فرارًا من هدا الاضطراب والفساد في ظل ملوك الطوائف وعندما قامت الدولة المرابطية قامت مع قبائل بناء – كانوا بدوًا ما في ذلك شك– ولكنهم كانوا من ذلك الصنف من البدو الذي يغير لا ليغرب، وهناك عامل آخر أبرزه تدفق المرابطين جنود "الأندلس" فتلاقحت المؤثرات الحضارية بين العدوتين وسوف يتمخض من هذا المزج تألق نجم الثقافة والفن في "المغرب". وعمل ملوك المرابطين وأمرائهم على تشجيع هذه المؤثرات وشد أزر العلماء، فقد استقدم "علي بن يوسف" مثلا منهم طائفة ممتازة جاؤوا إلى "مراكش" فاستكتبهم واستوزرهم ومهد لهم السبيل ليشيعوا في البلاد هذه الألوان الأندلسية في الفن والأدب[1]، كما أنّ الفنانون والصنّاع من أهل "الأندلس" يلقون اهتماما وتشجيعا من ملوك المرابطين، كما قام الملوك باستخدام أعلام الفقهاء والعلماء لتأديب بيتهم[2]، كما عمل المرابطون على تشجيع الأطباء والفلاسفة[3]، وقد صورت كتب الطّبقات هذه العلاقات التي نشأت بين "المغرب" و"الأندلس" والتي توثقت عن أهل "المغرب" الذين جلسوا إلى فقهائه وعلمائه وأدباءه وشعراءه وعندما عادوا إلى بلادهم تكوّنت لديهم نظرة علميّة عظيمة، وتتكلّم كتب الطّبقات أيضًا[4]عن أعلام الفكر من أهل "الأندلس" ورحيلهم إلى "المغرب" فلقوا الرّعاية والتّكريم[5].

لقد تتلمذ "الغرب" على "المشرق" دهرًا طويلًا وظلّت أمّهات الكتب التي ألّفها المشارقة تدرس في مدارس "الأندلس" و"المغرب" حتّى تمكّن "المغرب" من نفسه وزخرت مدارسة بالحياة واطمأن إلى مقدرته، بدأ يخرج ألوانا أندلسية مغربيه تفوق ما عرف من الألوان المشرقية فبدأ التفوق في الشعر وفي النثر والفلسفة والطب وعلوم الحديث والقرآن واضحا جليا، ولقد كشفت كتب الطبقات التقارب من هذه المدارس الثقافية المتعددة منها:

---

[1]ابن بشكوال: الصّلة، تح: إبراهيم الايباري، دار الكتاب المصري، ج1، ط1، مصر، 1989، ص1012.

[2]ابن القاضي، المصدر السابق، ص69.

[3]المقري، المصدر السابق، ج1، ص 442.

[4]ابن الآبار: الحلّة السيراء، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، ج1، ط1 و2، القاهرة، 1962–1985، ص ص 53–54.

[5]التادلي، المصدر السابق، ص 127–128.

مدرسة "فاس" التي بلغت في عهد المرابطين والموحدين تطورًا كبيرًا[1]، قصدها العلماء من "الأندلس" و"أفريقية" ومن مدارس "المغرب الأقصى"، أيضًا مدرسة "سبتة"[2] التي تقع على مضيق "جبل طارق" فتتلقى المؤثرات "الأندلسية" و"المغربية" على سواء، وقد أنجبت عالمًا فذا من أعلام عصر المرابطين هو "القاضي عياض اليحصبي" وانتشرت المدارس أيضًا في "طنجة"[3]و "أغمات"[4] و"سجلماسة"[5] و"تلمسان"[6]و مدرسة "مراكش"[7]، فعلى ما يبدو أنها تفوقت تفوقا ظاهرا لأنها حاضرة الدولة ومقر السلطان وقد قصدها الكثير من العلماء من كل حدب وصوب لينالوا رضا الأمراء وعطاءاتهم، كما لا ننسى أيضًا مدارس "الأندلس" التي نهضت نهضةً موفقة في عهد المرابطين بعد أن اطمأن العلماء وهدأوا واستقرت أحوالهم ومن أهم مدارسها: مدرسة "قرطبة"[8] ومدارس "مرسية"[9] و"ألمرية"[10] و"دانية"[11]و"إشبيلية"[12]و"بلنسية"[13]و "طرطوشة"[14]و"غرناطة"[15]و "بطليوس" و"شاطبة" و"سرقسطة"[16].

---

[1]الجرناني: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تح: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، ط2، الرباط، 1991، ص7.

[2]ابن الآبار، المعجم في أصحاب القاضي عياض، المصدر السابق، ص279.

[3]ابن الآبار: المعجم في أصحاب القاضي عياض، المصدر السابق، ص18.

[4]المصدر نفسه، ص90.

[5]المصدر نفسه، ص56.

[6]المصدر نفسه، ص288.

[7]ابن فرحون، الديباج المذهب، ص49.

[8]ابن الآبار، المعجم في أصحاب القاضي عياض، المصدر السابق، ص26.

[9]المصدر نفسه، ص10، 12.

[10]المصدر نفسه، ص57، 65.

[11]المصدر نفسه، ص70.

[12]ابن طير الإشبيلي، فهرست ابن خير الإشبيلي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1978، ص121.

[13]ابن الآبار، المعجم، المصدر السابق، ص6، 7.

[14]المصدر نفسه، ص93.

[15]المصدر نفسه، ص92.

[16]المصدر نفسه، ص180.

كما أن كُتب الطبقات عددت مناقب العلماء وبينت مكانتهم من العلم وذكرت مشايخهم ومن أخذ عنهم من الطلاب، وأظهرت تفوق على الفقه والرواية والحديث في ذلك العصر تفوقًا عظيما ومن أبرز العلماء في هذه الناحية علمان من أعلام "الأندلس" هما: "أبو علي الصدفي"[1]و" أبو علي الغساني"؛ فالأول يروي سنن "أبو داود" وجامع "الترمذي" وتاريخ "البخاري" ورياض المتعلمين "لأبي نعيم" والثاني قد انفرد بالإمامة بعد وفاة "الصدفي" فكان آخر المسندين "بقرطبة"، فكثر الراحلون إليه[2].

وبرز في هدا الميدان أيضًا: "أبو العباس الحرزي" و"أبو الوليد الباجي" وغيرهم وأما "القاضي عياض" فقد شع نجمه في أواخر القرن السادس الهجري وأصبح من أعلام مدرسة "سبتة" وجله فقهائها، تعلم "بالأندلس" وتتلمذ على شيوخها الثقات حتى أصبح من أهل اليقين في العلم والذكاء واليقظة[3].

عندما نأتي إلى "علم الفقه" نذكر العالم: "أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد" فقد كان فقيهًا عالمًا حافظا للفقه، وكان من أقطاب مذهب "مالك بالأندلس"، وقد برع في علم "الفرائض" و"الأصول"، ألف كتاب "المقدمات" لأوائل كتاب المدونة وكتاب "المبين" و"التحصيل" لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل و"اختصار المبسوطة"، و"اختصار بشكل الأثير للطلحاوي"[4]، وكان "محمد بن حيدرة المعافري" خاتمة الحفاظ "بالأندلس" وأعرفهم بعلمه وأكثر المبرزين في صناعته ومعرفته ومعانيه وحفظ أسمائه[5]. وممن تألق نجمه في الفقه والحديث كما تألق في الأدب والبلاغة الوزير "أبو عبد الله محمد بن مسعود بن فرج بن خلصه أبي الخصال الغافقي"، فقد ألف كتاب "المنهج في معارضة المبهج" وكتاب "ظل الغمامة" وطوق الإمامة في مناقب من خصه رسول الله –صلى الله

[1]المصدر نفسه، ص51، 100، 119.

[2]ابن الآبار، المعجم، المصدر السابق، ص100.

[3]النباهي، المصدر السابق، ص101.

[4]المصدر نفسه، ص98، 99.

[5]المصدر نفسه، ص63 ابن الآبار، المعجم، المصدر السابق، ص63.

عليه وسلم- من صحابته بالكرامة وكان الناس يرون جميع كتبه وكلامه من منشور ومنظوم وخطب[1].

أما العلوم العربية فقد راجت بضاعتها وظهرت في بلاد "الأندلس" في ذلك العهد طائفة من الكتاب برعوا في الكتابة فتهافت عليهم الملوك والرؤساء يستخدمونهم في دواوين الإنشاء. ومن أعلام هؤلاء نذكر: "عبد الرحمان بن جعفر بن إبراهيم أحمد المعافري" و"محمد بن سليمان الكلاعي" المعروف "بابن القصيرة" رأس أهل البلاغة في وقته و"محمد بن أحمد بن إبراهيم بن السقاط" و"عبد الملك ابن أبي الخصال"[2]وغيرهم، وقد برع في علوم اللغة مجموعة من الأعلام نذكر منهم: "أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله الشميري"[3]و "محمد بن أغلب بن أبي الدوس" و"محمد بن حسين بن محمد بن غالب الأنصاري"[4] وغيرهم.

أما الشعر فقد تحدثت كتب الطبقات عن مجموعة من الشعراء الفحول مثل: "إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري الشاعر"[5] صاحب الديوان الذي مجد أمراء المرابطين ومدحهم وتغنى بشمائلهم ونال عطائهم، وقد برز في فن "الموشحات" في عصر المرابطين تفوقًا عظيمًا على يد الشاعر "أحمد بن عبد الله القيسي أبي العباس" الملقب "بالأعمى التيطلي" و"يحي بن بقي" و"بكر بن الأبيض"[6]، كما تفوق فن "الزجل" على يد الزجال المعروف "ابن قزمان" وأما الفلسفة فقد تألق نجمها ومن أبرز علمائها: "مالك بن وهيب" و"زير علي بن يوسف" وأقرب المقربين إليه، ألف كتابا سماه "قراصنة الذهب في ذكر أيام العرب في الجاهلية والإسلام"[7]، أما الفيلسوف "ابن ماجة" فحدث ولا حرج فقد ذاع صيته في "الأندلس" و"أوروبا" في العصور الوسطى وبرع أيضا في

[1]ابن خاقان، المصدر السابق، ص518.

[2]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3]محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص469.

[4]النباهي، المصدر السابق، ص124.

[5]ابن الآبار، المعجم، المصدر السابق، ص ص59، 60.

[6]المقري، نفح الطيب، ج2، ص209.

[7]المراكشي، البيان، المصدر السابق، ج4، ص57.

الموسيقى. وأما الطب فمن أبرز أعلامه: "أبو العلا زهر عبد الملك" الذي برع في الأدوية المفردة والمركبة وشاع صيته في "الأندلس"[1]، وقد ألف كتابا سماه "الاقتصاد في إصلاح الأجساد" للأمير "علي بن يوسف" أمر بجمع مصنفاته بعد وفاته فجمعت ب"مراكش" و"الأندلس" ونسخت[2].

لقد تركت هذه الحياة الفكرية الرفيعة أثرًا بعيدًا في شعب الملثمين فأقبلوا على الثقافة يردون مواردها وينهلون منها ما طاب لهم وقد كان الملثمون مستعدون على تقبل هذه الثقافة الجديدة، ولقد كان للدعوة الدينية لـ"عبد الله بن ياسين" تأثيرًا بالغًا حيث هيأ أرضًا خصبة لتقبل الثقافة الإسلامية عقيدة وسلوكًا، بل أكثر من ذلك حيث عكف الكثير من الناس في هذه الفترة على الزهد والتقشف، وقد ذكر صاحب كتاب التشوف في عدد الأولياء: "أبا عبد الملك مروان اللمتوني" و"أبو مروان بن سراج"[3].

أقبل الأمراء والنبلاء على الثقافة كما أقبل عليهما عامة الناس الملثمين، وظهر فيهم فريق عرف بالتقوى وقد تحدثت عليهم كتب الطبقات، مثل: "عمر بن إمام بن المعتز الصنهاجي" أمير "ألمرية" الذي تتلمذ على الشيخ "أبي علي الصدفي" وبلغ من علمه أن سمي بالفقيه القائد[4]، و"المنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجي اللمتوني" الذي سمع بـ"قرطبة" من "أبي محمد بن عناب" وغيرهم، كما أن بعض الأمراء لم تمسكهم الظروف من الالتحاق بالمدارس والإرسال في طلب العلم والعلماء إلى قصورهم فمثلا كان "إبراهيم بن يوسف بن تاشفين" يرسل في طلب الفقيه الجليل الشيخ "أبي علي الصدفي" ليسمع عليه الحديث.

ومما سبق نستنتج: أن الحياة الثقافية في "المغرب" و"الأندلس" في عهد المرابطين وما تقدم من أدلة على مساهمة الدولة المرابطية بنصيب وافر في حماية العلوم وعمل الأمراء على شد أزر العلم والعلماء، لكن هذه الصورة المشرقة نجدها عند المؤرخ "دوزي"

---

[1]ابن أبي اصبيعة، طبقات الأطباء، نشره مولر، ج2، القاهرة، 1882، ص66.

[2]محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص473.

[3]الشادلي، المصدر السابق، ص258.

[4]المصدر نفسه، ص 427.

غير ذلك، حيث يظهر المرابطين بمظهر البداوة والحفاء والغلظة والذين أشاعوا في البلاد جوًا من التعصب، ومن جهة أخرى نلاحظ تحكم طبقة الفقهاء في رقاب العباد وراحوا ينفثون سمومهم في صدور الأمراء وبذلك يحاربون أهل الفكر الحر وينكلون بكل من يتصل بالفلسفة من بعيد أو قريب وأبرز مثال على ذلك "مالك بن وهيب" "وزير علي بن يوسف" الذي كان يشتغل بالفلسفة ولما خاف على نفسه طرحها جانبا وأكب على دراسة الفقه وعكف على كتب المذهب المالكي.

شهدت بلاد "المغرب" في عهد "يوسف بن تاشفين" وأوائل عهد "علي" أمنًا وطمأنينة واستقرارًا، ربما لم تشهده في أي عصر سابق، وبذلك انتشرت الآثار الفنية في مدن "المغرب الأقصى" وسبب تنافس الأمراء والقواد والعمال ورجال الدولة[1].

وظهرت العمارة المدنية والدينية وأصبحت مدينة "فاس" من أهم مراكز الفن في "المغرب" في عهد المرابطين، ومن ناحية أخرى الرخاء الذي زاد في دخل الدولة وصرفت الأموال في إقامة الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد الجامعة، فلقد روي أن "علي بن يوسف" أنفق في بناء مراكش 80ألف دينار.

ويتجلى ذلك الفن أيضا في جامعة "تلمسان" الذي بني سنة 520ه في عهد "علي بن يوسف"، وظهرت فيه آثار الفن "الأندلسي" حتى قد شبه بجامع "قرطبة" وأيضا جامع "الجزائر"... وقد حرص المرابطون على تثبيت سيادتهم في "المغرب الأقصى" وإخضاع القبائل المغلوبة على أمرها لحكمهم وقد نجحوا في هذه السياسة نجاحًا بعيد المدى، فأكثروا من القلاع وأقاموا صنفا من الحصون حول جبال "الأطلس" لإخضاع المصامدة والسيطرة عليهم، وقد أقاموا بـ"مراكش" قنطرة على نهر "تانسيفت" وجلبوا المياه من جبال "الأطلس"[2]. مع مطلع القرن الخامس هجري كان "المغرب الأقصى" يعج بالمذاهب والنحل "الشيعة"، "الخوارج" والنحل الضالة، وإلى جانب ذلك مذهب "مالك" في بعض الحواضر

[1] المصدر نفسه، ص429.

[2] الإدريسي، المغرب وأرض السودان، المصدر السابق، ص69.

والرباطات العلمية مثل: رباط الفقيه "وجاج بن زولو اللمطي" في "المغرب الأقصى" الذي تتلمذ على شيوخ المالكية في "القيروان"[1].

لقد كانت الاضطرابات السياسية في عهد الزناتيين [368هـ-467هـ] عائقا أمام ظهور العلماء في "المغرب الأقصى" بل أكثر من ذلك إلى رحيل من وجد منهم، فقد اضطر "أبو عمران الفاسي" [430هـ] إلى النزوح عن وطنه "فاس" بسبب العنت الذي لقيه على يد عمال "مغراوة" الزناتيين[2]. هذه الوضعية جعلت "المغرب الأقصى" يأخذ البضاعة العلمية الجاهزة وقد اعتورتها أيدي العلماء من أصقاع مختلفة[3]، وأمام هذه الظروف اختار مؤسسوا الدولة المرابطية المذهب المالكي وكان ذلك لأسباب منها: انتماء "مالك" للمدينة المنورة وهي مركز الإسلام، فأعجب المغاربة بعلمه وفضله واقتنعوا به لأنه أقرب إلى حقيقة الشريعة من فقهاء "العراق" و"الشام" وغيرهم.

الأثر الوارد في عالم المدينة في قوله -صلى الله عليه وسلم-: " يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة". وكذلك الرحلات العلمية من "سجلماسة" إلى "الحجاز" خاصة وعندما عادوا إلى بلدانهم أضحوا مدرسين للعلوم التي أخذوها[4]، ثم استقرار بعض أئمة المالكية في "مصر" كان عاملا محفزًا لأهل "المغرب" للأخذ بهذا المذهب فهي أقرب حواضر العلم "للمغرب" كما أنها طريق للحج.

كما إن طبيعة المذهب المالكي لا يقوم على الرأي والقياس بقدر ما يقوم على النص والنقل وعلى الأثر والرواية هذا بالإضافة إلى واقعيته القائمة على الاعتماد على أهل المدينة باعتباره نوعًا من الإجماع[5]؛ فهو مذهب يميل إلى البساطة والسير إلى السهولة وهكذا نجده يتوافق مع طبائع أهل "المغرب" لهذا نجد المرابطين لم يجدوا عنفا كبيرا في إقراره والعمل به. وبمرور الزمن سوف يشكل نوعًا من الهوية لأهل "المغرب"، وأصبح مذهبا رسميا للدولة المرابطية بل أكثر من ذلك بل جعلوه اختيار علمي مدعومًا بالحجج

[1] إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس البكري، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص44.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، بيروت، 1975، ص52.

[4] إدريس العلوي، الدرر البهية والجواهر البنوية، ج1، طبعة حجرية، فاس، 1896، ص63.

[5] القاضي عياض، المصدر السابق، ج1، ص47.

والبراهين يصمد أمام آلية النقد، فدعموه بتأليف الكتب في مناقب الإمام "مالك" وأصحابه وأبرز مثال على ذلك ما قام به القاضي "عياض"* من جهد جبار لذلك[1]، وتأليفه كتاب: "ترتيب المدارك وتقريب المسالك"، وهذا كله من أجل الترغيب في المذهب المالكي وما عرف عن إمامه من أوصاف حميدة وآراء سديدة[2]، ولا شك أن لكل مذهب مناوئين وأعداء وكل أول المنددين بهذا المؤرخ الموحدي "عبد الواحد المراكشي" صاحب كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" حيث اعتبر أفراد المذهب المالكي أن جعل طلبة العلم يهتمون بالفروع ويهملون الكتاب والسنّة[3]، ونتيجة لذلك وجد المستشرقين هنا ضالتهم لأنهم ومن بينهم "دوزي" و"ألفريدبل" الذي يقول:"... وانحطاط الدّراسات الدّينيّة سواء فيما يتعلّق بالعقيدة وبالشريعة على يد الفقهاء المالكيين بمساندة حكومة المرابطين كان مما يتلاءم مع سكان "المغرب الإسلاميّ"[4]، والسؤال الذي يجب أن نطرحه: هل كان المرابطون وعلمائهم فروعين لا يفقهون آية ولا حديثًا؟

لو نلقي نظرة متقدمة متمحصة في كتب التّراجم في عهد المرابطين تجعل الباحث يصل إلى نتيجة معاكسة لما توصل إليه "عبد الواحد المراكشي"، فلقد انتشر في العهد المرابطي طلب العلم بصفة عامّة والحديث والقرآن بصفة خاصّة، فقد اشتهر كثير من أهل الحديث وأئمة القرآن بصفة خاصّة ولقد خصهم ألوف الطّلاب إذ كيف يكون النظر في حديث الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– مهجورًا وطلبة شيخ واحد من شيوخ الحديث في العهد المرابطي ممّا يستحق أن يترجم لهم أكثر من ثلاثمائة، فـ"ابن الآبار" ألف كتابا ترجم فيه لثلاثمائة وخمسة عشر من طلبة الإمام "أبي عليّ الصّدفي"[5].

---

[1]*القاضي عياض: بن موسى اليحصبي [ت544هـ] أصله من سبتة وأجداده من الأندلس ثم انتقلوا إلى مدينة فاس ثم إلى سبتة من أئمة الفقهاء الأصوليين، عرف اللغة وآدابها وبصر الأحكام وحفظ المذهب المالكي ولي القضاء بالأندلس والمغرب ولد سنة 476هـ وتوفي سنة 544هـ في مراكش، ترك مصنفات عديدة، صنف المقري فيه كتاب: "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض" وتاريخ قضاء الأندلس: 101، الديباج المذهب، ترتيب المدارك.
ينظر: ابن خاقان، المصدر السابق، ص683.

[2]القاضي عياض، المصدر السابق، ج1، ص68.

[3]المراكشي، المصدر السابق، ص171، 176، 279.

[4]انجل جنبالت بالتنيا، المرجع السابق، ص20.

[5]ابن الآبار، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي عليّ الصّدفي، المصدر السّابق، ص15.

ويلخص "ابن بشكوال" تلك الكثرة بقوله أن لإمام: "أبي علي الصدّفي" الذي قصد "مرسية" واستوطنها فرحل النّاس من البلدان إليه وكثر سماعهم عليه[1]. ولم يتوقف على طلبة العلم من عوام النّاس بل حتّى أن أفراد البيت المرابطي الحاكم اهتموا بدراسة علم الحديث والأخذ عن شيوخه المعتبرين ونذكر في ذلك الأمير: "ميمون بن ياسين اللّمتوني" (530هـ) كان ممّن عنّي بالرواية والسماع له وهناك الأمير "منصور بن الحاج داود بن عمر" أحد رؤساء "لمتونة" الذي سمع عن "أبي محمد بن عناب" وغيرهم، كما أن الأمير "علي بن يوسف" استجاز "أبا عبد الله محمد الخولاني" جميع مروياته لعلو سنده فأجازه، وهكذا نجد مسعى العلماء في العهد المرابطي جعل الدولة ذات منطلق ومرتكز دينيّ وكان ذلك مع مؤسسها الفقيه "عبد الله بن ياسين" و"الإمام محمد بن الحسن الحضرمي"*[2]، من خلال مبادئ الإسلام ومعطيات الواقع تحت لواء قيادة الخلافة العباسية، وكان الواقع هو استحالة هذه الوحدة الشّاملة، ولتجاوز هذا الإشكال أعطى هؤلاء العلماء لدولتهم هدفًا وهويّة تتمثل في الجهاد بمعناه الشّامل من مدافعة العدو إلى إقامة الحقّ، وقد عرف علماء الأحكام السّلطانيّة مثل:"الفراء"[3]، هذا النّوع من الدّول القائم على الجهاد والمعترف بسيادة الخلافة بأنّه إمارة يفوض الأمير جميع أحكامها ويتمّ التأكيد على تدبير الحرب كأحد أهمّ أحكامها[4].

إنّ هذه الدّولة المجاهدة سعت إلى إقامة العدل الشّامل في علاقة الحاكم والمحكومين امتثالًا لقوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾. لذا قد سعى العلماء في دولة المرابطين إلى تحقيق العدل عن طريق نظم ثلاثة وهي:

[1]ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص616.

[2]محمد بن الحسن الحضرمي (ت489هـ)، فقيه أصولي متكلم.

ينظر: ابن خاقان، المصدر السابق، ص133.

[3]الإمام الحافظ زين الدّين أبي الفرج عبد الرحمن، ابن شهاب الدّين أحمد رجب البغدادي ثمّ الدمشقي الحنبلي، الذيل عن طبقات الحنابلة، تح: أبو حازم أسامة بن حسن، دار الكتب العلمية، ط1، ج2، بيروت، 1997، ص193.

[4]أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانيّة، تح: محمد الفقيّ، شركة الحليّ، ط2، 1966، ص39.

– نظام البيعة حيث يبايع أفراد الأسرة الحاكمة الأمير المرشح ثمّ يبايعه سادة "لمتونة" ثمّ سادة القبائل الأخرى حتّى إذا اكتملت أسباب هذه البيعة تلي عقد البيعة في المساجد وقرئ على النّاس[1].

– ونظام البيعة من صميم أنظمة الحكم في الإسلام وأحد ركائزه والنّظام الثّانيّ هو نظام الشّورى ويعتبر من المبادئ العظيمة للإسلام في الحكم بقول الله تعالى مخاطبا نبيّه محمّد –صلّى الله عليه وسلّم–:﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[2]، وقد جعل الإمام "الطرطوشي" "الشّورى" أساسًا من أهم أسس الحكم تقال سياسة الملك ثلاثة: "اللّين وترك الفظاظة والمشاورة...".

– عمل العلماء القائمون على الدّولة المرابطيّة العمل بالشّورى، فكانوا لا يقطعون أمرًا ذا بال إلّا بعد أن يستشيروا جماعة الحل والعقد من المرابطين فالإمام "عبد الله بن ياسين" كان كثير المشورة لأصحابه رغم أنّهم سامعون طائعون له وقد سلك الأمراء المرابطين منهج الشّورى متأثرين في ذلك بالمنهج الذي رسمه لهم علمائهم، وقد تكون في العهد المرابطي من شكل مجلس شورى يتكوّن أساسًا من العلماء يستعين أمير المسلمين برأيهم في المهم من أمره لهذا كان "يوسف بن تاشفين" يفضّل الفقهاء ويعظّم العلماء ويعرض الأمور إليهم ويأخذ فيهم برأيهم[3].

– أمّا النّظام الثّالث: فهو نظام القضاء حيث أولى العلماء في العهد المرابطي القضاء حيث أولى العلماء في العهد المرابطي القضاء رعاية خاصّة لإقامة الحقّ والعدل ومن أبرز من تولّى هذا المنصب: "الإمام أبي الوليد محمد بن رشد" (ت520هـ)الذي تقلّد القضاء بـ"قرطبة"، و"أبي علي الصّدفي" (ت514هـ)، الذي تولّى القضاء بـ"مرسيّة" فسار فيه سيرة فضحت من كان قبله واتعبت من جاء بعده[4]. ولقد منح المرابطون سلطة واسعة للقضاء فالجميع سواسية أمّا القضاء وهذا ما نلمسه في الرّسالة التي وجّهها الأمير "علي بن يوسف" إلى قاضي الجماعة بـ"قرطبة": "أبي عبد الله بن حمدين" يقول فيها: "... وقد

---

[1]حسن محمود، المرجع السّابق، ص342.

[2]سورة آل عمران/ الآية:38.

[3]الحلل الموشية، المصدر السابق، ص82.

[4]ابن عطيّة، فهرست بن عطية، تح: محمد بن الأجفان، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1400هـ، ص74.

عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلّموا لك في كلّ حقّ تمضيه... ونحن أوّل وكلهم آخر".

لقد تظافرت النّظم السالفة فتحقّقت بها العدالة والأمن العام الذي اطمأنّت به النّفوس وتهيّأت الظّروف للرّخاء فانفسخ الأمل[1].

لم يكن المذهب المرابطي في الحكم مذهبًا ظرفيا بل كان قاعدة ثابتة لهذا نجد علماء المرابطين يخافون بعد وفاة الإمام "عبد الله بن ياسين"، فلقد كانت سياسة يسر عليها كبير وينشأ عليها الصّغير نلمس ذلك في وصيّة الأمير "أبي بكر بن عمر" لـ"يوسف بن تاشفين"، عندما ولاه "المغرب" يقول فيها:" ...إني وليتك هذا الأمر وإنّي مسؤول عنه... ولا تضيع من أمور رعيّتك شيئًا فإنّك مسؤول عنهم... والعدل في رعيّتك"[2] وكذلك نجد رسالة "الطّرطوشيّ" إلى "يوسف بن تاشفين" يبيّن له فيها سبيل النّجاح في الدّولة إذ يقول: "هو الذي يقضي بكتاب الله وينفق على الرّعيّة نفقة الرّجل على أهله"، قال الله تعالى:﴿الذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ﴾[3].

تميّز القرن الخامس هجري باستناد الصّراع الفكري بين أهل الحقّ والباطل وكان ذلك ببروز علم أصول العقائد المتعلّقة بذات الله وصفاته وأفعال العباد هل هي اختياريّة أم لا؟ وصاحب الكبيرة هل هو من أهل النّار أم لا؟ وغيرها. ومن أبرز أعلام هذا العلم في المشرق القاضي "أبي بكر الباقلاني"*[4]، والقاضي " عبد الجبّار" والإمام "الغزاليّ"*[5].

---

[1]الماوردي: أدب الدنيا والدّين، دار الفكر، دمشق، ص136.

[2]ابن أبي زرع، المصدر السّابق، ص135.

[3]سورة الحجّ، الآية:41.

[4]*القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالبقاقلاني (ت403هـ)متلكلّم مشهور على مذهب أبي الحسن الأشعري، كان يلقب: شيخ السنة ولسان الأمّة، المذهب المالكي.

ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، المصدر السّابق، ص269.

[5]*محمد بن محمد الغزاليّ (ت505هـ) فقيه أصولي، فيلسوف متصوّف له مائتي مصنف من أشهرها كتاب: "إحياء علوم الدّين"، "تهافت الفلاسفة" "المنقذ من الظّلال".

ينظر: ابن خلكان، المصدر نفسه، ص219.

إنّ أهمّ ما ميّز القرن الخامس هجريّ نفوذ الفلسفة إلى جميع المدارس فاستعملتها جميع أطراف المعارك الفكريّة لتدعيم مواقفها مع تفاوت درجة الأخذ[1]، وإلى جانب مدرسة علم الكلام: المطعم بالفلسفة ظهرت مدرسة أخرى فلسفيّة بحتة تعبّر عن ثقافة "اليونان" وممارسة الحريّة[2]، ومن رجال هذه المدرسة "ابن سينا" (ت428هـ) و"البيرونيّ" وغيرهما. ولقد امتدّ نفوذ هذه الميّادين الفكريّة إلى "المغرب الإسلاميّ مجرّدة من حدّتها وجدتها تتعامل معها العلماء بروية وهدوء لذا نجد الدّولة المرابطيّة نسبة في منهجها وأحكامها بالمنظور المالكيّ.

نستنتج ممّا سبق: أنّ العمل الذي يجب اتّباعه هو بلا شك عمل السّلف الأوّل لهذا نجد بغض النظر الإمام "مالك" لأقوال الفرق الإسلاميّة في العقائد، لأنّها تؤديّ إلى منازعات عقليّة لا يهتدي الفكر فيها إلى رأي، فلقد كان مذهبه في أصول العقائد اتّباع السّلف في طريقتهم وتعاطفهم مع النّصوص[3]، كما أنّ هذه الخلفيّة الفكريّة جعلت العلماء المرابطون ينبذون الفلسفة باعتبارها علمًا لا ينفع وفكر مشبوه بالفكر[4].

ومن الأدلّة على محاربة العلماء في العهد المرابطي لعلم الكلام ما نلمسه في الجواب الذي كتبه شيخ المالكيّة "أبو الوليد بن رشد" في ردّه على استفسار أمير المسلمين "علي بن يوسف" عن "أبي الحسن الأشعري"*[5]، و"أبي بكر البقاقلاني"...ونظرائهم ويتكلم في أصول الدّيانة، أهم أئمة رشاد وهداية أم هم قادة حيرة وحماية؟"، فأجابه: بأن هؤلاء أئمة خير وهداية، وممن يجب بهم الاقتداء لأنّهم قاموا للتنّظر للشريعة وأبطلوا شبه أهل الزّيغ"[6]. وقد اشتهر بعض علماء المرابطين بمعرفة علماء الكلام مثل: "الإمام الحضرمي

---

[1]عبد المجيد بدوي: التّاريخ السيّاسيّ والفكريّ للمذهب السّني في المشرق الإسلاميّ حتّى سقوط بغداد، دار الوفاء، المنصورة، 1988، ص45.

[2]سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفيّ في الإسلام، دار المعارف، ج1، القاهرة، 1987، ص192.

[3]أبو زهرة: مالك حياته وعصره، آراءه وفقهه، دار الفكر العربيّ، ط2، ص154.

[4]حسن السايح: موقف القاضيّ عياض من الإمام الغزالي، نشر وزارة الأوقاف، ج2، الرباط، 1983، ص243.

[5]علي بن إسماعيل أبو الحسن الأشعري(324هـ)، مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من أئمّة المتكلّمين المجتهدين، له مطبوع: "الابانة عن أصول الدّيانة".

ينظر: الزّركلي: الاعلام، ج5، ص69.

[6]ابن رشد: الفتاوي، تح: المختار التّليلي، دار المغرب الإسلاميّ، ج2، بيروت، 1987، ص802.

المرادي" الذي وصفه "القاضي عياض" بأنّه أوّل من أدخل الانتقاد إلى "المغرب الأقصى" وله فيه عدّة مؤلّفات منها كتاب "التّجريد"[1].

ومن كلّ ذلك نستنتج: أن "علم الكلام" لم ينتشر في بلاد "المغرب الإسلاميّ" مقارنة "ببلاد المشرق"، وأمّا "الفلسفة" فكانت منبوذة في العهد المرابطي لهذا هجرت فلم يتعاطاها النّاس وحتّى إن وجد من تعاطاها إنّما كان يفعل ذلك سرًّا وأبرز مثال على ذلك الفيلسوف "مالك بن وهيب"*[2] رغم قربه من أمير المسلمين.

***<u>التّصوّف:</u>** تميّز العهد المرابطي بنوعين من التّصوف: تصوف "سنّي" ومن أبرز علمائه الفقيه "وجاج بن زلو" وهو شيخ الإمام " عبد الله بن ياسين" الذي كان زاهدًا في زخرف الدّنيّا ومن أشهر فقهاء هذا المنهج الفقيه المحدث "أبو علي حسين بن محمد الصّدفيّ"(ت514هـ) في موقعه فقتده[3].

إلى جانب التّيار الصّوفي "السُنّيّ"بدأ يتشكل ملامح تيّار صوفي فلسفي نشأ نتيجة التأثر بالتّيار اليونانيّ كفلسفة "أفلاطون" و"أرسطو" التي ترجمت في "المشرق" ثمّ انتقلت إلى "الأندلس" مع مؤلّفات "الفارابي" و"ابن سينا" و"أخوان الصّفا"*[4]و "مصنّفات المعتزلة"[5] ويمثّل هذا الاتجاه "ابن العريف"*[6] صاحب كتاب "محاسن المجالس"، و"أبو القاسم أحمد بن بلقاسم بن قسيّ"*[7]و "ابن برجان"*[8].

---

[1]عياض: الغنيّة، المصدر السّابق، ص282.

[2]*مالك بن وهيب: فقيه وفيلسوف، زاهد ورع، كان مستشار أمير المسلمين علي بن يوسف ووزيره.
ينظر: المقري، نفح الطّيب، المصدر السّابق، ج5، ص28.

[3]القياض عياض، المدارك، المصدر السّابق، ج8، ص194.

[4]*أخوان الصّفا: جماعة ذو نزعة فلسفيّة ظهروا في النّصف الثّانيّ من القرن الرّابع هجريّ وقد أذاعوا أفكارهم ن طريق رسائل أذاعوها بين النّاس.
ينظر: عمر فروخ: تاريخ الفكر الغربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ص377.

[5]عصمت دندش، المرجع السّابق، ص360.

[6]*أحمد بن محمد المعروف بابن العريف (536هـ): متصوّف من أهل ألمريّة. ينظر: ابن بشكوال، المصدر السّابق، ج1، ص83.

[7]*أحمدبن بلساقم بن قسي (ت546هـ):أحد المنتشرين بالتصوف والثائرين على المرابطين في آخر دولتهم. ينظر: ابن الخطيب: أعلام الاعلام، المصدر السّابق، ص 248.

[8]*أبو الحكم بن برجان (ت536هـ): متصوّف من أهل إشبيليّة ومن أهل علم الكلام له بتفسير القرآن الكريم. ينظر: ابن خلكان، المصدر السّابق، ج4.

لقد أثار هذا التّيار الأخير من الصوفيّة غضب العلماء، فـ"ابن العربي" ينكر على هؤلاء قولهم بالحلول والاتّحاد وما أليها من ألفاظ كالحرقة والفناء والعشق في الله ويعتبره تجاوز عظيم[1]، وقد وصل نكير الفقهاء من أهل هذه النحلة أن أغروا بهم الأمراء حيث استدعي "ابن العربف" إلى "مراكش" لاختبار أحواله*[2]، وقد سجن جماعة من هؤلاء المتصوّفة منهم "ابن برجان" و"الميورقي"*[3]، وفي جوّ هذا الصّراع أقدم بعض العلماء المرابطين على التّنديد بكتاب: "إحياء علوم الدّين" وقاموا بالرّد عليه*[4].

ثمّ أفتوا بمنعه من التداول ثمّ تعرّض للمصادرة ثمّ تمّ إحراقه في عهد " علي بن يوسف" وكان ذلك سنة (502هـ)[5]، كما أمر بتفتيش المكتبات وأن يحلف أصحابها أنّهم لا يملكون نسخًا من الأحياء، ولقد كان لهذا الأمر صدى عند المؤرّخين بين مؤيّد منددّ له ومن بينهم "ابن القطان" و"ابن عذارى" و"الحلل الموشية"، كما اختلف المؤرّخون في أسباب الحرق، فمنهم من يرى أن "الغزالي" من أهل الرأي[6].

والبعض الآخر يقول: أنّ سبب الإحراق يرجع إلى موقف "الغزاليّ" الرّافض لغرض الضرائب على المسلمين ثمّ إلى منحى الكتاب الصوفي الباطني[7]، وصنف ثالث يدخل ضمن الصّراع الفكريّ بين المالكيّة والشّافعيّة[8].

---

[1]العواصم من القوائم، تح: عمار طالبي، نشرة بعنوان: "آراء ابي بكر بن العربي الكلامية، الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1974، ص16.

[2]*لما وصل مراكش أمر المسلمين "علي بن يوسف"بإطلاق سراحه وأحن إلي، لكن القاضي أين الأسود قاضي شرق الأندلس الذي كان أحد أبرز الناقمين على ابن العربيّ الذي أمر بسم هذا الأخير فمات في صفر536هـ بعد شهور من عودته.

ينظر: الشادلي، المصدر السابق، ص121.

[3]*محمد بن الحسين أبو بكر الميورقي: صوفي من أهل غرناطة توفي ببجاية عام (537هـ). ينظر: ابن الآبار: المعجم، المصدر السّابق، ج1، ص146.

[4]*ألّف القاضي محمد بن حمدين رسائل في الرّد على الغزاليّ وكتابه وقد أخذها عن ابن حمدين "أكثر من عالم من أمثال". ينظر: عبد الحقّ بن عطيّة، المصدر السّابق، ص85.

[5]ابن القطان، المصدر السّابق، ص80.

[6]أحمد حسن محمود، المرجع السابق، ص446.

[7]مصطفى بن سباع: إحراق كتاب الأحياء، ملتقى الدراسات المغربيّة الأندلسية، النّدوة5، تطوان، 1993، ص358.

[8]عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص129.

لم يكن أسلوب الإحراق أسلوبا سليمًا ولعلّ الحلّ الذي كان يراه "القاضيّ عياض" في التّعامل مع كتاب الأحياء كان الأسلوب الأمثل فقد كان يقول:" لو اختصر هذا الكتاب واقتصر على ما فيه من خالص العلم لكان كتابا مفيدا"[1].

إنّ كتاب الأحياء رغم ما أخذ عنه فقد لقي القبول لدى الأمة وقد أثنى عليه بعض العلماء ومن بينهم الشّيخ "ابن تيميّة" "وفيه رأي الأحياء"[2].

[1]محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض، تح: محمد بن شريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة المغربيّة، الرباط، 1983، ص106.

[2]ابن تيميّة: الفتاوى، نشر دار عالم الكتب، مج1، الرياض، 1991.

الخاتمة

خاتمة:

في الختام هذا البحث توصلت إلى نتائج مهمّة تمثلت فيما يلي:

- ✓ قيام دولة المرابطين كانت نتيجة تخطيط وفكر لبعض العلماء الّذين أرادوا لهذه الدّولة أن تتمسّك بالإسلام ومبادئه الفاضلة وهذا لمسناه مع مؤسّسها الرّوحيّ الفقيه:" عبد الله بن ياسين" والسّياسيّ "يوسف بن تاشفين".
- ✓ استطاعت الدّولة المرابطيّة أن توحد بين "المغرب" و"السّودان" و"الأندلس" ويرجع ذلك إلى السّياسة الحكيمة للحكّام بداية من "يوسف بن تاشفين" وتقريبهم للعلماء واستشارتهم في كلّ ما يهم الدّولة والإسلام وأجلى مثال على ذلك ما ساهم به العلماء في معركة الزّلاقة سنة(479هـ) وفتح "الأندلس".
- ✓ عملت الدّولة المرابطيّة منذ قيامها إلى تحقيق الوحدة الدّينيّة التي أدّت بدورها إلى توحيد سياسي وثقافيّ وهو مكسب تاريخيّ لا غبار عليه.
- ✓ سيطرة طبقة القضاء على دواليب الحكم في "العهد المرابطي" من خلال إعطائهم صلاحيّات واسعة على الأقل بداية من عهد "علي بن يوسف"، جعل المجتمع ينقم على هذه السّياسة.
- ✓ تأثر بلاد "المغرب" بالمؤثرات والمباهج "الأندلسيّة" في الجانب السّياسيّ والثّقافيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ.
- ✓ بالرّغم من أنّ منطلق الدّولة المرابطيّة كان دينيًّا كان يهدف إلى تطبيق الإسلام وتحقيق العدل في المجتمع، لكنّها من جهة أخرى لم تستطع الدّولة المرابطيّة في منهجها السّياسيّ والعسكريّ أن تتخلّص وتنسلخ من العصبيّة القبليّة من خلال جعل طبقة الملثّمين هي الطّبقة السّيدة والحاكمة في العدوتين "المغرب" و"الأندلس" وكان ذلك أيضًا في الجهاز الإداريّ العسكريّ.
- ✓ الشعار الّذي حملته الدّولة المرابطيّة المرتكز على الجهاد استطاع في فترة من فترات حكمها أن يوقف حركة الاسترداد المسيحيّة في "الأندلس" وأن يوقف زحف "بني هلّال في "المغرب الأوسط".
- ✓ تطوّر الفكر السّياسيّ للحكّام المرابطين من خلال وضعهم لنظم قويّة في الدّولة مكّنها من السّيطرة والسّيادة على "المغرب" و"الأندلس".

خاتمة

- ✓ يعدّ "يوسف بن تاشفين" أوّل من لُقّب بـ"أمير المؤمنين" في ظلّ الخلافة العبّاسيّة وهو تطوّر لفكر سياسيّ جديد عرف بالتّفويض حيث كانت الدّولة المرابطيّة تمارس حكمها وسيادتها تحت لواء وحكم الخلافة العبّاسيّة وهذا ما ورد في كتاب: "الأحكام السّلطانيّة لأبو يعلى الفراء".

السّياسة الحكيمة لـ"يوسف بن تاشفين" وتطوّر فكره السّياسيّ أدّى إلى استحداث منصب ولي العهد الّذي يعتمد على الاختيار والشّورى كما حدث لـ"علي بن يوسف" من بعده.

- ✓ السّياسة الحكيمة أيضا لـ:"يوسف بن تاشفين" وتطوّر فكره السّياسيّ أدّى إلى استحداث "نظام الشّورى" والذي لعب دورًا كبيرًا في عمليّة الاتّصال والتّواصل بين أقاليم الدّولة المترامية الأطراف "مغربا" و"أندلسا"
- ✓ استقطبت الدّولة المرابطيّة جلّ العلماء والكُتّاب والأدباء والقضاة من "الأندلس" والّذين كانوا في بلاط ملوك الطّوائف بعد القضاء عليهم.
- ✓ كانت سياسة المرابطين تعتمد على جعل الولّاة أو قيادة الجيش من قبيلة "لمتونة" أو "صنهاجة" أو "لمطة نول"، وذلك لإحكام السّيطرة وعدم انشقاق القبائل والرّجوع إلى الصّراعات القديمة.
- ✓ عمد "يوسف بن تاشفين" إلى إحداث جهاز إداريّ يتمثّل في الحسبة والشّرطة لمساعدة القضاة في مهامهم.
- ✓ تصدّت الدّولة المرابطيّة للحركات الفكريّة الدّخيلة خاصّة على بلاد "المغرب" والمتمثلة في "علم الكلام" أو "الفلسفة اليونانيّة" وبالتّاليّ حافظت على وحدة المجتمع دينيًّا من خلال مذهب "مالك بن أنس".
- ✓ ندّد العلماء المرابطين لكتاب: "إحياء علوم الدين" للإمام "الغزالي" وأفتوا بمنعه من التّداول ثمّ مصادرة نسخة وإتلافها ثمّ أفتوا بحرقه.
- ✓ يعتبر الجهاز القضائي من أهمّ الأجهزة الإداريّة في دّولة المرابطين من أجل تحقيق العدل والمساواة وذلك لأنّ أمرائها كانوا يميلون إلى الزّهد.

- ✓ أصبح للمرأة في عهد المرابطين مكانة مرموقة في الجانب السّياسيّ حيث وصلت إلى مرتبة المستشار مثل: ما كان مع زوج الأمير "يوسف بن تاشفين زينب النفراويّة.
- ✓ الحريّة التي أعطيت للمرأة في العهد المرابطيّ أوصلها إلى مراتب علميّة راقية في علم تفسير القرآن وحفظ الحديث ونظم الشّعر... .
- ✓ العوامل الطّبيعيّة المتنوعة من تنوع التّضاريس والمناخ وكثرة الموارد المائيّة كان لها تأثير تنوّع المحاصيل الزّراعيّة للبلاد ثمّ حالة الأمن والاستقرار الّذي فرضته الدّولة المرابطيّة كان له تأثير على ذلك.
- ✓ اعتماد الدّولة المرابطيّة على سياسة جديدة في تحصيل الضّرائب المبني على الموارد الشّرعيّة (الزّكاة، العشور، الجزية، ...) بخلاف العهود السّابقة أدّى إلى توفر الأمن والاستقرار وتنشيط الحركة التّجاريّة في "المغرب" و"الأندلس".
- ✓ كان لإلغاء "المكوس" وإسقاط المغارم من قبل حكّام المرابطين، كان له أثر جليّ وواضح على تحفيز التّجار عمومًا بين "السّودان" و"المغرب" و"الأندلس".
- ✓ مشاركة الجيش المرابطي في تطوير الميدان الاقتصاديّ من خلال السّياسة التي طبّقها حكام المرابطين على الأقل في عهد "يوسف بن تاشفين" ومنحهم إقطاعات زراعيّة والذي يعتبر كرواتب من خلال غلاتها.
- ✓ اهتمام المرابطين بمجالس الأدباء والشّعراء على الأقل في عهد "علي بن يوسف".
- ✓ إشراك المرابطون "أهل الذّمّة" لاسيما النّصارى في الحياة العامّة والسّياسيّة في المجتمع المرابطيّ حيث اتّخذ منهم الحرص الخاصّ وجباة الأموال، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على مكانتهم في الدّولة.
- ✓ تبين من خلال هذه الدّراسة أنّ الأمراء المرابطين كانوا يقيمون مجالس للحرب أو لوعظ النّاس أو لحضور الأدباء والشّعراء.
- ✓ كان للمرابطين احتفالات دينيّة وعسكريّة وكان فنّ الموسيقى منتشرًا في المدن "المغربيّة" رغم محاولة حكّام المرابطين مكافحة انتشاره.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم

قائمة المصادر:

1) ابن أبي اصبيعة: طبقات الأطباء، نشره مولر، ج2، القاهرة، 1882.
2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض الفرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطّباعة والوراقة، الرّباط، 1972.
3) ابن الآبار: التّكملة لكتاب الصّلة، مطبعة الشيخ فنزالت، ج2، بلنسيّة، 1915.
4) ابن الآبار: الحلة السيراء، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، ج1، ط1و2، القاهرة، 1962-1985.
5) ابن الآبار: معجم في أصحاب القاضيّ الإمام ابن علي الصّدفيّ-رضي الله عنه-، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ط1، بدون مكان النّشر، 2000م.
6) ابن الأثير أبي الحسن علي: الكامل في التّاريخ، تح: أبي العذاء عبد الله، دار الكتب العلميّة، ج1، ط1، بيروت، 1407ه، 1987.
7) ابن الأحمر: تاريخ الدّولة الزّيانيّة تلمسان، تح: هاني سلامة، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ط1، مصر، 2011.
8) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، فاس، 1039ه.
9) ابن القطان: النظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزّمان، تح: محمود عليّ مكيّ، دار المغرب الإسلاميّ، ط1، دون مكانش النشر، 1990.
10) ابن المؤقت المراكشي: السعادة الأبديّة في التعريف بمشاهير الحضارة المراكشيّة، طبع بمطبعة البانيّ للحلبي وأولاده، ج2، القاهرة، 1341ه.
11) ابن بشكوال: الصلة، تح: إبراهيم الايباريّ، دار الكتاب المصري، ج1، ط1، مصر، 1989.

12) ابن بلكين: كتاب التبيان عن الحادثة الكائنّة بدولة بني زيريّ في غرناطة، تح: علي عمر، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ط1، القاهرة، 2006.

13) ابن تيميّة: الفتاوي، نشر دار عالم الكتب، مج1، الرياض، 1991.

14) ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996.

15) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ج1 و2، ط1، الأردن، 1409هـ، 1989م.

16) ابن خلكان: وفيات الأعيان.

17) ابن خير الاشبيلي: فهرست ابن خير الاشبيلي، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 1978.

18) ابن دحيّة: المطرب، تح: إبراهيم الايباريّ، حامد عبد المجيد، الطّبعة الأميريّة، القاهرة، 1954.

19) ابن رشد: الفتاوي، تح: المختار التليليّ، دار الغرب الإسلاميّ، ج2، بيروت، 1987.

20) ابن سعيد: المغرب في حليّ المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ج1، ط2، مصر، 1964.

21) ابن عبدون: ثلاث رسائل أندلسيّة في آداب الحسبة والمحتسب، تح: ليفي بروفنسال، مطبعة العهد العالمي الفرنسيّ للآثار الشّرقيّة، القاهرة، 1955م.

22) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب، مكتبة صادر، ج1، بيروت، 1950.

23) ابن عرفة: شرح حدود ابن عرفة، تح: محمد أبو الأجفان، دار المغرب الإسلامي، القسم الأوّل، ط1، بيروت، 1993.

24) ابن عطيّة: فهرست بن عطيّة، تح: محمد الأجفان، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1400هـ.

25) ابن غالب الأندلسيّ: قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، مجلّة معهد المخطوطات العربيّة لطفيّ عبد البديع، مجلد1، ج1، 1955.

26) ابن فرحون: الدّيباج المذهب في معرفة أعيان المذهب.

27) أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالقيروانيّ: قطعة من تاريخ إفريقيا والمغرب، تح: عبد الله العلي الزيتون، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990.

28) أبو عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: إحسان عباس، دار الثّقافة، ج4، ط2، بيروت، 1983.

29) أبو يعلى الفرّاء: الأحكام السلطانيّة، تح: محمد الفقيّ، شركة الحلي، ط2، 1966.

30) أبي بكر بن عليّ الصّنهاجيّ "المكنّى البيدق": أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار منصور للطّباعة والوراقة، الرّباط، 1971.

31) الإدريسيّ: وصفة المغرب وأرض السّودان ومصر والأندلس، [نقلا عن] كتاب نزهة المشتاق، لندن، 1864.

32) الأعمى التيطلي: الديوان، تح: إحسان عبّاس، دار الثّقافة، المجلّد الثّانيّ، بيروت، 1417هـ، 1997.

33) الإمام الحافظ زين الدّين أبي الفرج عبد الرّحمان، ابن شهاب الدّين أحمد رجب البغداديّ الدذمشقيّ الحنبلي: الذيل عن طبقات الحنابلة، تح: أبو حازم أسامة بن حسن، دار الكتب العلميّة، ج2، ط1، بيروت، 1997.

34) البخاريّ: كتاب الجهاد والسير، ج3، حديث رقم 2892.

35) البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تح: محمد محي الدّين عبد الحميد، مكتبة علي صبح وأولاده، القاهرة، 1910.

36) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا، مكتبة المثنى، بغداد، 1966.

37) التادلي: التشوف إلى رجال التّصوف، تح: أحمد التوفيق، منشورات كليّة الآداب والعلوم، ط2، الرّباط، 1997.

38) التّيجانيّ: رحلة التيجانيّ، تح: حسن حسين عبد الوهاب، الدار العربيّة للكتاب، ليبيا، تونس، 1981.

39) الجرجانيّ: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تح: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكيّة، ط2، الرّباط، 1991.

40) الحميريّ: الرّوض المعطار في أخبار الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، ط2، بيروت، 1975م.

41) الحميريّ: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الرّوض المعطار في خبر الأقطار، تح: ليفي بروفنسال، دار الجيل، ط2، 1988.

42) خير الدّين الزّركليّ: قاموس تراجم أشهر الرّجال ونساء من العرب والمشرقين، ج6، ط2، دون مكان النّشر وتاريخ النّشر.

43) الزّركليّ: الاعلام، ج5.

44) الطّرطوشيّ: سراج الملوك، المطبوعات العربيّة، بدون مكان النّشر، 1872.

45) عبد الرّحمان بن خلدون: تاريخ بن خلدون، تح: سهيل زكار، دار الفكر، ج6، بدون مكان، بدون تاريخ.

46) عبد الرحمان بن زيدان: اتحاف إعلان النّاس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تح: علي عمر، مكتبة الثّقافة الصّينيّة، ج1، ط1، بدون مكان نشر، 2008.

47) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، ج1، ط1، دون مكان النّشر، 1949.

48) القاضي عياض: الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تح: ماهر زهير، ورقة [1-63]، جرار، دار الغرب الإسلاميّ، ط1، بيروت، 1982.

49) القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، ج4، المغرب، دون تاريخ.

50) لسان الدّين الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ج3، ط6، القاهرة، 1977.

51) لسان الدّين بن الخطيب: أعمال الأعلام، تح: أحمد مختار العبادي، دار الكتاب، ج3، المملكة المغربيّة، 1994.

52) مالك بن أنس الإمام: الموطأ صحّحه وأخرج أحاديثه محمد عبد الباقيّ، دار إحياء الكتب العربيّة، بدون مكان النّشر، 1951، رقم02.

53) الماوردي: أدب الدّنيا والدّين، دار الفكر، دمشق، دون تاريخ.

54) الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1421.

55) محمد بن عياض: التّعريف بالقاضي عياض، تح: محمد بن شريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة المغربيّة، الرباط،1983.

56) المقري: نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، ج1، بيروت، 1988.

57) المقريزيّ: شذوذ العقود في ذكر النّقود.

58) مؤلّف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تح: سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الاسكندريّة، مصر، 1958.

59) مؤلّف مجهول: الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة، تح: سهيل زكار، دار الرّشاد الحديثة، 1939هـ، 1970.

60) مؤلّف مجهول: مفاخر البربر، جهاد للنّشر والتّوزيع، تح: محمد زينهم محمد عزب، ط1، القاهرة، 1417هـ، 1998.

61) النّاصريّ: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر النّاصريّ، دار الكتاب الدّار البيضاء، ج2، دون تاريخ نشر.

62) النّباهيّ: تاريخ قضاة الأندلس، كتاب المرقيّة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا، نشر ليفي بروفنسال، دار الكتاب المصريّ، 1948.

63) الونشريسيّ: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيّة والأندلس والمغرب، تح: محمد حجيّ، دار المغرب الإسلاميّ، ج9، بيروت، بدون تاريخ.

64) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار الصادر، ج3، بيروت، دون تاريخ.

65) يحي نبهان: معجم مصطلحات التّاريخ، دار يافا العلميّة، ط، عمان، 2008.

قائمة المراجع:

66) إبراهيم القادري بوتشيش: الإسلام السري في المغرب العربيّ، الناشر، ط1، 1985.

67) إبراهيم القادري بوتشيش: حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في المغرب الإسلاميّ، دار الطّليعة، ط1، لبنان، 2006.

68) أبو زهرة: مالك حياته وعصره، آراءه وفقهه، دار الفكر العربيّ، ط2، بدون مكان نشر ودون تاريخ النّشر.

69) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطّوائف والمرابطين، الشروق، عمان، 1997.

70) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النّهضة العبيّة، بيروت، دت.

71) إدريس العلوي: الدّرر البهيّة والجواهر النبويّة، طبعة هجريّة، ج1، فاس، 1896.

72) أرشيبالدر لوسين: القوى البحريّة والتّجاريّة في حوض البحر المتوسذط (500هـ-1100م)، تر: أحمد محمد عيسى، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، 1951م.

73) إسماعيل بن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطّباعة والوراقة، الرّباط، 1972.

74) بالثنيا: تاريخ الفكر الأندلسي، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة، دون تاريخ نشر.

75) بوزياني الدّراجيّ: القبائل الآمازيغيّة أدوارها ومواطنها وأعيانها، ج2، دون تاريخ ودون مكان النّشر.

76) جمال أحمد طه: مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين (448هـ-1056م) (468هـ-1269م)، دراسة سياسيّة وحضاريّة، دار الوفاء، الاسكندريّة، دون تاريخ.

77) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربيّ، القاهرة، بدون تاريخ.

78) حسن السايح: موقف القاضي عياض من الإمام الغزالي، نشر وزارة الأوقاف، ج2، الرباط، 1983.

79) حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزّهراء للإعلام العربيّ، ط1، القاهرة، 1987.

80) حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون للأندلس، صحيفة العهد المصريّ الدراسات الإسلاميّة، مدريد، المجلّدات 7-8، 1959-1960.

81) حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة عند دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ط1، مصر، 1420ه، 2000م.

82) حمدي عبد المنعم محمد حسين: التّاريخ السّياسيّ والحضاريّ للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعيّة، الاسكندريّة، 1997.

83) سامي النّشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلامي، دار المعارف، ج1، القاهرة، 1987.

84) سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس في عهد يوسف بن تاشفين، دار النّهضة العربية، ط1، بيروت، 1985.

85) السّيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلاميّ، مؤسّسة الشّباب الجامعيّة، 1999.

86) طائش كبرى زادة: مفاتيح السعادة ومصباح في موضوعات العلوم، دار الكتب العلميّة، ج2، ط1، بيروت، 1985م.

87) عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة ألمريّة الإسلاميّة، قاعدة أسطول الأندلس، مؤسّسة شباب الجامعة، الاسكندريّة، 1984.

88) عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندريّة، بدون تاريخ.

89) عبد الله كنون: النبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، بيروت، 1975.

90) عبد المجيد بدوي: التّاريخ السّياسيّ والفكريّ للمذهب السّنيّ في المشرق الإسلاميّ حتّى سقوط بغداد، دار الوفاء المنصورة، 1988.

91) عز الدين موسى: النّشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السّادس الهجريّ، دار الشروق، ط1، بيروت، 1973.

92) عصمت ندنش: الأندلس في نهاية المرابطين وفي مستهلّ الموحدين عصر الطّوائف الثّانيّ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، بدون تاريخ.

93) علي محد صلابي: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشّمال الإفريقيّ، دار المعرفة، ط3، بيروت، 2009.

94) عمر فروخ: تاريخ الفكر الغربيّ، دار الملايين، بيروت، 1979.

95) غرسية جومث: الشعر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، القاهرة، 1902.

96) محمد إسماعيل عبد الرّزاق: الخوارج في بلاد المغرب حتّى منتصف القرن الرّابع هجريّ، دار الثّقافة، ط2، المغرب، 1406هـ-1985م.

97) محمد إسماعيل: الأدارسة حقائق جديدة، مكتبة مديولي، ط1، 1411هـ-1991م.

98) محمد بن عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثّانيّ دولة الطوائف عند قيامها إلى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، ط4، القاهرة، 1998.

99) محمد عايد الجابري: فكر ابن خلدون، العصبة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط8، بيروت، 2007.

100) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثّالث عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1990.

101) محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون تاريخهم السّياسيّ (430هـ-539هـ)، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1969.

102) محمد عيسى الحريري: الدّولة الرّستميّة بالمغرب الإسلاميّ حضاريًّا وعلاقتها الخارجيّة بالمغرب، دار الفكر، ط3، الكويت، 1408هـ-1987م.

103) مصطفي بن سباع: إحراق كتاب الأحياء، ملتقى الدّراسات المغربيّة الأندلسيّة، النّدوة 5، تطوان، 1993.

104) موسوعة المغرب العربيّ، ج2.

105) نزيه شحادة: صفحات من الحضارة الإسلاميّة، دار النّهضة العربيّة للنّشر، ط1، بيروت، 2006.

106) هوينكز: النّظم الإسلاميّة في المغرب في القرون الوسطى، تر: أمين توفيق الطّبيب، دار العربية للكتاب، تونس، دون تاريخ.

يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج2، القاهرة، 2011.

الملاحق

الملحق رقم1:حسين مؤنس: كتاب "تاريخ أطلس الإسلام"

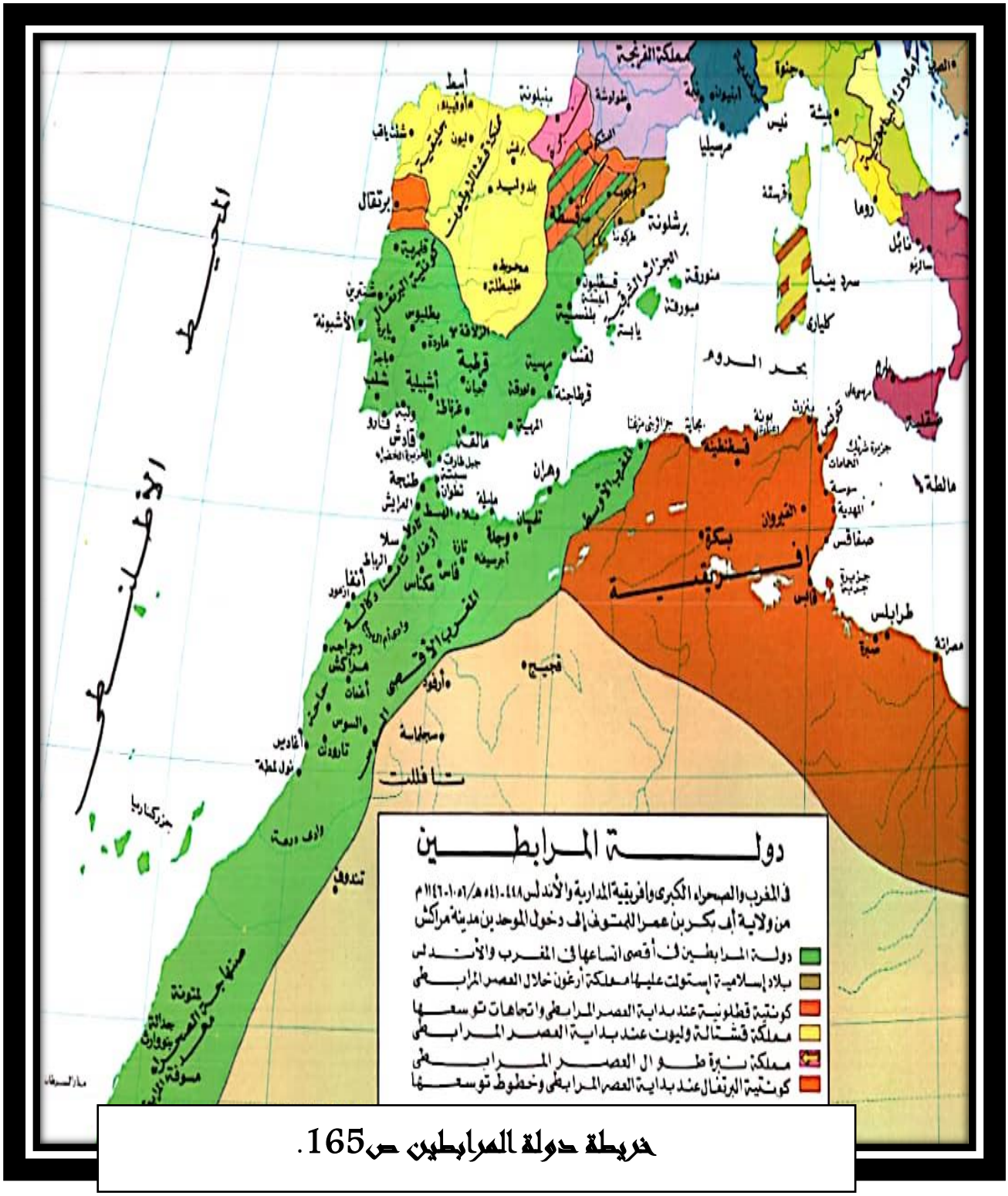

خريطة دولة المرابطين ص165.

<u>الملحق رقم02:</u> مؤلف مجهول: الحلل الموشية (كتاب يوسف بن تاشفين للرعية بالعدوتين يأمرهم بأن يدعوه بأمير المسلمين وناصل الدين) الصفحة 29-30.

ويوسف بن تاشفين كان يدعى بالامير ، فلما ضخمت مملكته ، واتسعت عمالته ، اجتمع اليه أشياخ قبيلته ، وأعيان دولته ، وقالوا له : أنت خليفة الله فى هذا المغرب ، وحقك أكبر من أن تدعى بالامير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين ، فقال لهم : حاش الله أن نتسمى (43) بهذا الاسم ، انما يتسمى به خلفاء بنى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لانهم ملوك الحرمين : مكة ، والمدينة ، وأنا رجلهم ، والقائم بدعوتهم ، فقالوا له : لابد من اسم تمتاز به ، وبعدما أجاب الى « أمير المسلمين وناصر الدين » (44) ، خطب له بذلك على المنابر وخوطب به من العدوتين ، وأمر كتابه أن يكتبوا عنه فى ذلك ، فكتبوا ما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم.

وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

من أمير المسلمين ، وناصر الدين ، يوسف بن تاشفين .

الى الاشياخ والاعيان والكافة والخاصة من أهل « الفلانه » (45) أدام الله كرامتهم بتقواه ، ووفقهم لما يرضاه .

---

43 ــ فى ك : تسموني .

44 ــ فى ك : وانا قائم بدعواهم ، وتابع لهم ، فقالوا له : لابد من اسم تمتاز به ، فقال لهم : ان كان ولابد ، فادعوني بامير المسلمين وناصر الدين .... هذا وهناك خلاف حول تاريخ اتخاذ يوسف لهذا اللقب ، فهناك من يذهب الى ان ذلك كان بعد معركة الزلاقة التي سيأتي ذكرها .

45 ــ فى ك : من بنى فلان

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد : حمدا لله ، أهل الحمد والشكر ، ميسر اليسر ، وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وانا كتبناه اليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله ، فى منتصف محرم سنة ست وستين وأربعمائة ، وانه لما من الله علينا (46) بالفتح الجسيم ، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة ، برود النعيم ، وهدانا وهداكم الى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم ، لنمتاز به عن سائر أمراء القبائل . وهو « أمير المسلمين وناصر الدين » فمن خاطب الحضرة العلية السامية ، فليخاطبها بهذا الاسم ان شاء الله تعالى ، والله ولى العدل بمنه وكرمه ، والسلام .

وكانت علامته الصادرة عنه « الملك والعظمة لله » .

قال كاتب هذا : وقد جرى فى مدة الخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد ، ثامن الخلفاء من بنى أمية بالاندلس مثل هذا ، وذلك أنه كان تسمى « بأمير المؤمنين الناصر لدين الله » وأوقع هذين الاسمين على نفسه ، وقد مضت من خلافته ست عشرة سنة . وكان ذلك سنة ست عشرة وثلاثمائة ، ونسخ بها ما كان يدعى به أولا من اسم الامارة ، بعد أن سلك فى ذلك مسلك آبائه فى الاندلس منذ استخلف الى هذه السنة ، فقد كان لنمو فضله ، وتصرف الايام لمجاريه ، واطباق النفوس

---

46 — فى ك : لنا .

الملحق رقم 03:مؤلف مجهول: الحلل الموشية (مرسوم تعيين يوسف بن تاشفين ابنه عليا وليا للعهد) الصفحة 78-79.

كذلكـــم الايـــدى ســـــواء بنانهـــا
وتختـــص فيهـــن الخنـــاصر بالحـــلا

ولما جال فى بلادها ، وتطوف على أقطارها ؛ شبهها بعقـاب رأسه طليطلة ، ومنقاره قلعة رباح ، وصدره جيان ، ومخالبه غرناطة ، وجناحه الايمن بلاد الغرب ، وجناحه الايسر بـــلاد الشرق .

قال كاتب هذا : ومن كيفية وضع هذه البلاد ، وتمثلها فى الصقر يبدو بيان هذا التشبيه الذى هو راجع الى سياسة أمرها ، ومبنى على اختبار حالهـا .

ولما كان فى سنة ست (65) وتسعين وأربعمائة ولى عهده لابنه الامير أبى الحسن ، وكتب عنه ولاية العهد لابنه المذكور الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور (66) ، وكان رحمه الله علم بلاغة به يهتدى ، وامام شرف قدمه العلم والندى ، وعاصب مجد هو الغاية والهدى ، ونص العهد :

الحمد لله الذى رحم عباده بالاستخلاف ، وجعل الامامة سبب الائتلاف ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريـــم ، الذى ألف القلوب لمتنافرة ، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة .

أما بعد فان أمير المسلمين،وناصر الدين،أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين ، خاف أن

65 — فى الاصيل : خمس ، وهو خطأ صوابه ما اثبتناه من خلال سياق الخبر ، ومن القرطاس : 156 ، ويلاحظ انه الم هنا بجميع الاصول الخطية اضطراب شديد ؛ ووقع فيها سقط ، وتقديم وتأخير فى سياق الروايات .

66 — هو من رجال قلائد العقيان ؛ انظر ص : 182 من ط . باريس .

— 78 —

يسأله الله غدا عما استرعاه : كيف تركه هملا لم يستتب فيه سواه ، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أوكد الاشياء الكريمة ، كيف وفى عظائم الامور ، ومصلحة الخواص والجمهور .

وان أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله به من النظر فى هذه الامور الدينية الشريفة ، قد ماز عوالى رماحه (67) ، وأحد سلاحه ، فوجد ابنه الامير الاجل أبا الحسن أكثرها ارتياحا الى المعالى واهتزازا ، وأكرمها سجية ، وأنفسها اعتزازا ، فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه لما كان اليه دعى ، بعد استشارة أهل الرأى على القرب والنأى ، فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه ، فأحضره مشترطا عليه الشروط الجامعة ، بينها وبين المشروط ، فقبل ورضى ، وأجاب حين دعى بعد استخارة الله الذى بيده الخيرة والاستعانة بحول الله ، الذى من آمن به شكره(68) .

وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت من النصيحة مرامى قصية ، يقول فى خاتمة شروطها ، ووثيق ربوطها : « كتب شهادته على على النائب والمستنيب ، من رضى امامتهما على البعيد والقريب ،

---

67 ــ استعار الكاتب الفكرة من خطبة الحجاج المشهورة ، ومن الملاحظ ان جميع الاصول الخطية ، قد صحفت هذه الفقرة بشكل كبير ، لكن احتفاظ بعض النسخ برسم للكلمات قريب مكن من التصحيح .

68 ــ اورد ابن الخطيب فى الاحاطة : 518/2 نصا آخر لولاية العهد ، كتبه محمد بن سليمان ــ المعروف بابن القصيرة ــ بقرطبة وهو مؤرخ بذى الحجة سنة 496 هـ ؛ ويمكن القول ــ نظرا للاختلاف فى البتعة والتاريخ ، والكاتب ، جاء هذا الثانى تاكيدا للاول .

فهـــــرس

فهرس الموضوعات:

الموضوعات	الصّفحة
بسملة	
مقدّمة	أ–ي
المبحث الأوّل: بلاد المغرب قبيل قيام دولة المرابطين	**12**
المطلب1: الأوضاع السّياسيّة لبلاد المغرب قبيل قيام دولة المرابطين	**14-12**
المطلب2: الأوضاع الدّينيّة السّائدة لبلاد المغرب قبيل قيام دولة المرابطين	**19-14**
المطلب3: الدّعوة الدّينيّة لـ: "عبد الله بن ياسين"	**29-20**
المطلب 4: بوادر تشكل دولة المرابطين	**37-30**
المبحث الثّاني: مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ عند المرابطين	**39**
المطلب1: مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في التّنظيم الإداريّ	**56-39**
المطلب2: مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في الميدان الاقتصادي	**68-57**
المطلب 3: مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في الميدان الاجتماعيّ	**75-69**
المطلب4: مظاهر تطوّر الفكر السّياسيّ في الميدان الثّقافيّ	**85-76**
المبحث الثّالث: تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في الجوانب الحضاريّة للمرابطين.	**87**
المطلب1: تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في النّظام الإداريّ	**107-87**
المطلب2: تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في الجانب الاقتصادي	**113-108**
المطلب3: تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في الجانب الاجتماعي	**118-114**
المطلب4: تأثير تطوّر الفكر السّياسيّ في الجانب الثّقافيّ والدّينيّ.	**134-119**
خاتمة	**138-136**
قائمة المصادر والمراجع	**149-141**
الملاحق	**155-151**
فهرس الموضوعات	

ملخص:

شهدت بلاد "المغرب" و"الأندلس" ظهور دولة مترامية الأطراف عرفت بدولة المرابطين، ظهرت بذورها الأولى بدعوة دينيّة للفقيه "عبد الله بن ياسين" ثمّ تحوّلت إلى كيان سياسيّ مهيب الأركان بزعامة " يوسف بن تاشفين" الذي كان له دور بارز في إرساء مختلف النّظم في الميدان السّياسيّ والإدرايّ، ارتبط ذلك بظهور لقب جديد مزاحم للقب الخليفة العباسيّ عرف: "بأمير المؤمنين" و"ناصر الدّين" ومنصب ولي العهد روعي فيه شروط لاختياره ومشاورة زعماء القبائل والأعيان "مغرب" و"أندلسا" وكان لطبيعة هذا الفكر السّياسيّ الجديد تطوّر في الحياة الاقتصاديّة الّتي بنيت على أساس الشّريعة الإسلاميّة في الزّراعة والصّناعة والتّجارة وكذا في الجانب الاجتماعيّ، رغم بقاء النّزعة القبليّة لبيت الملثّمين في المجتمع المرابطيّ وكذلك الميدان الثّقافيّ وظهور التّلاقح الحضاريّ بين "المغرب" و"الأندلس"، ولقد كان لتطوّر الفكر السّياسيّ للحكّام المرابطين وتقريبهم لطبقة الفقهاء والقضاة انعكاسات جليّة على مختلف المجالات الحياتيّة للمرابطين فلقد وحّدت بين العدوتين "المغرب" و"الأندلس" وحتّى بلاد "السّودان" وكان ثمار ذلك توفر الأمن والاستقرار الذي غائبًا لعهود طويلة فتطور اقتصاد الدّولة وظهر الثّراء في المجتمع خاصّة طبقة التّجار، وظهرت حركة فكريّة ومذهبية متنوّعة في بلاد "المغرب" و"الأندلس" كان فيها المذهب المالكي مهيمنًا عليها لأنّه بكلّ بساطة مذهب الدّولة المرابطية.

Summary=

The countries of "Morocco" and "Andalusia" witnessed the emergence of a sprawling state known as the Almoravids state. Its first seeds appeared with the religious call of the jurist "Abdullah ibn Yassin", then it turned into a majestic political entity led by "Yusuf ibn Tashfin", who had a prominent role in establishing various Systems in the political and administrative field. This was linked to the emergence of a new title competing with the title of the Abbasid Caliph, known as: “Commander of the Faithful” and “Nasser al-Din.” The position of Crown Prince took into account conditions for his selection and consultation with tribal leaders and notables: “Morocco” and “Andalusia.” This was due to the nature of this new political thought. Development in the economic life that was built on the basis of Islamic law in agriculture, industry and trade, as well as in the social aspect, despite the persistence of the tribal tendency of the house of the masked in Almoravid society, as well as in the cultural field and the emergence of cultural cross-fertilization between “Morocco” and “Andalusia”. This was due to the development of the political thought of the Almoravid rulers. Their rapprochement with the class of jurists and judges had clear repercussions on the various areas of life of the Almoravids. It united the two enemies, “Morocco” and “Andalusia,” and even the country of “Sudan.” The fruits of that were the provision of security and stability that had been absent for long periods. The state’s economy developed, and wealth appeared in society, especially the merchant class, and a movement emerged. Diverse intellectual and sectarianism in the countries of “Morocco” and “Andalusia” was dominated by the Maliki school of thought because, quite simply, it is the doctrine of the Almoravid state.